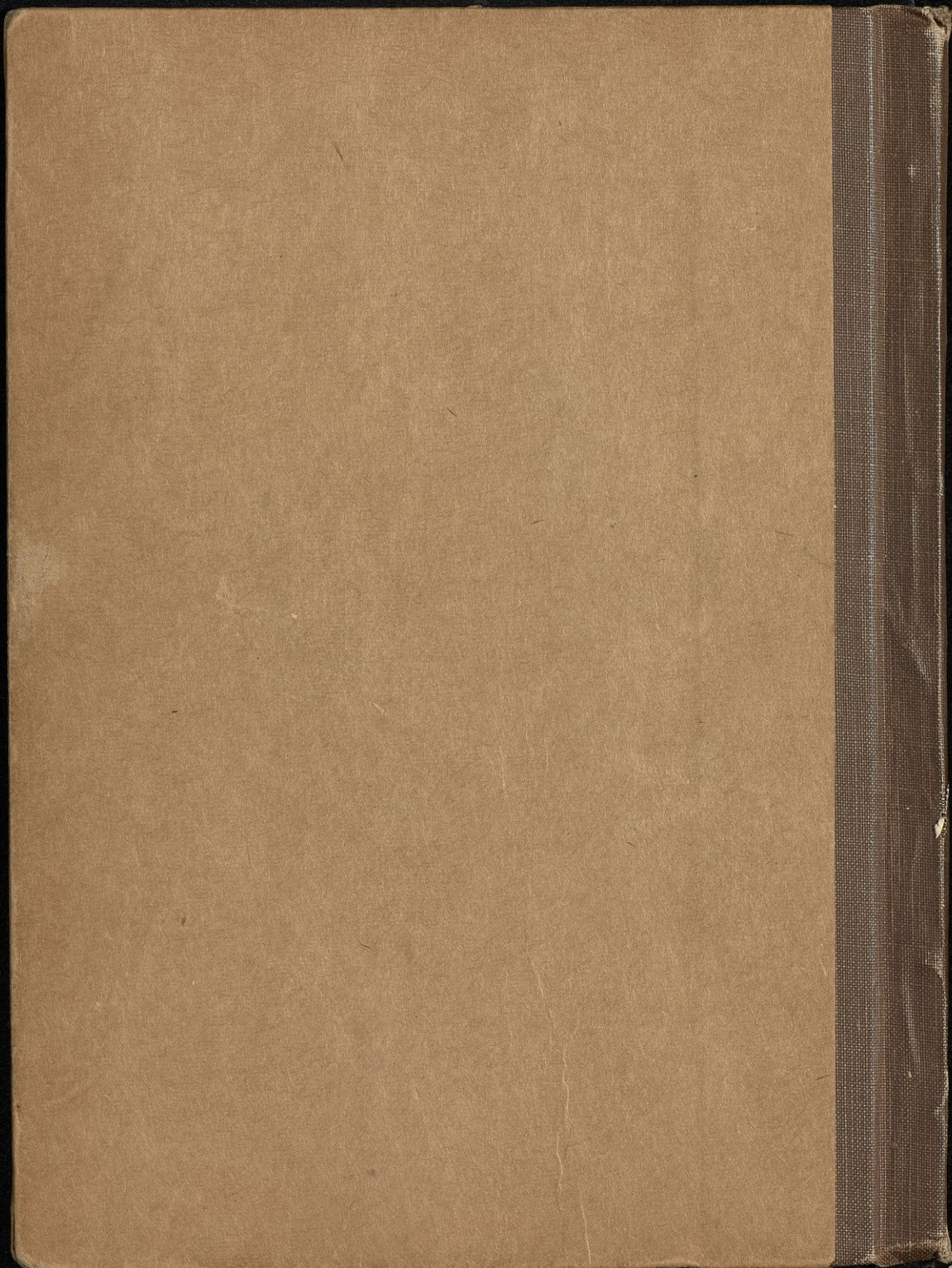




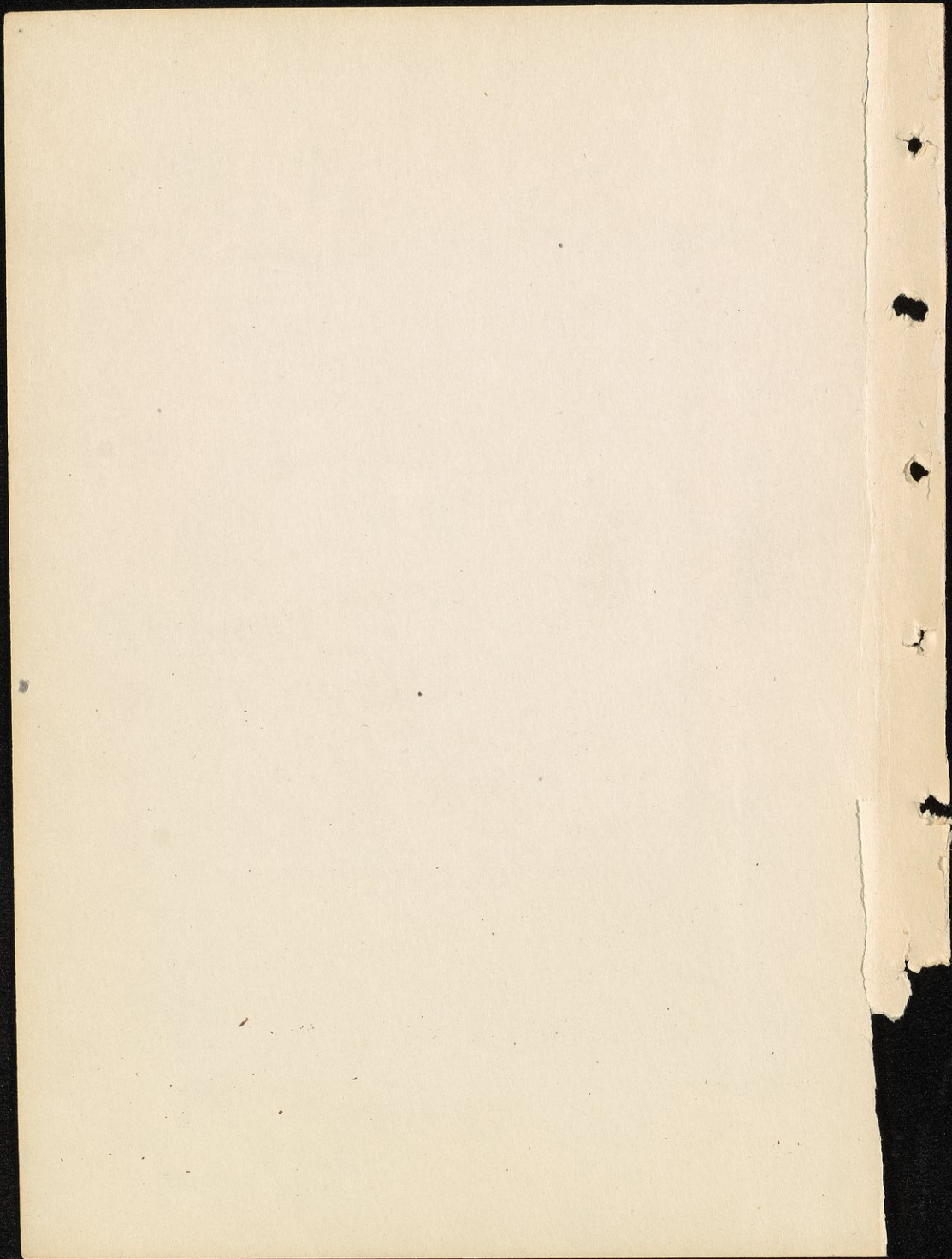
Columbia University
in the City of New York

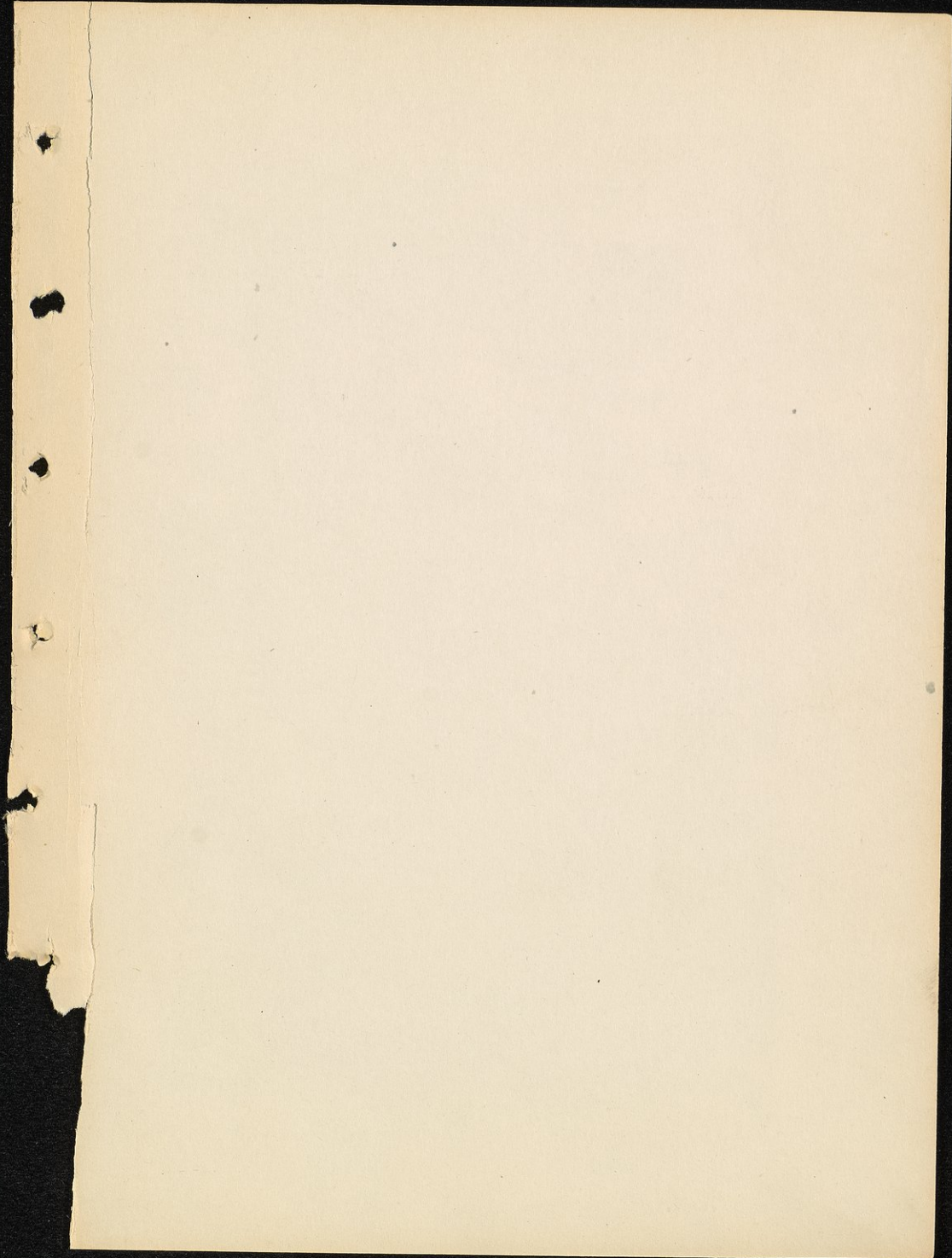
THE LIBRARIES



GIVEN BY
THE AUTHOR

13.7p | 492
-105





كلام وانتم بحير



محمود تيمور

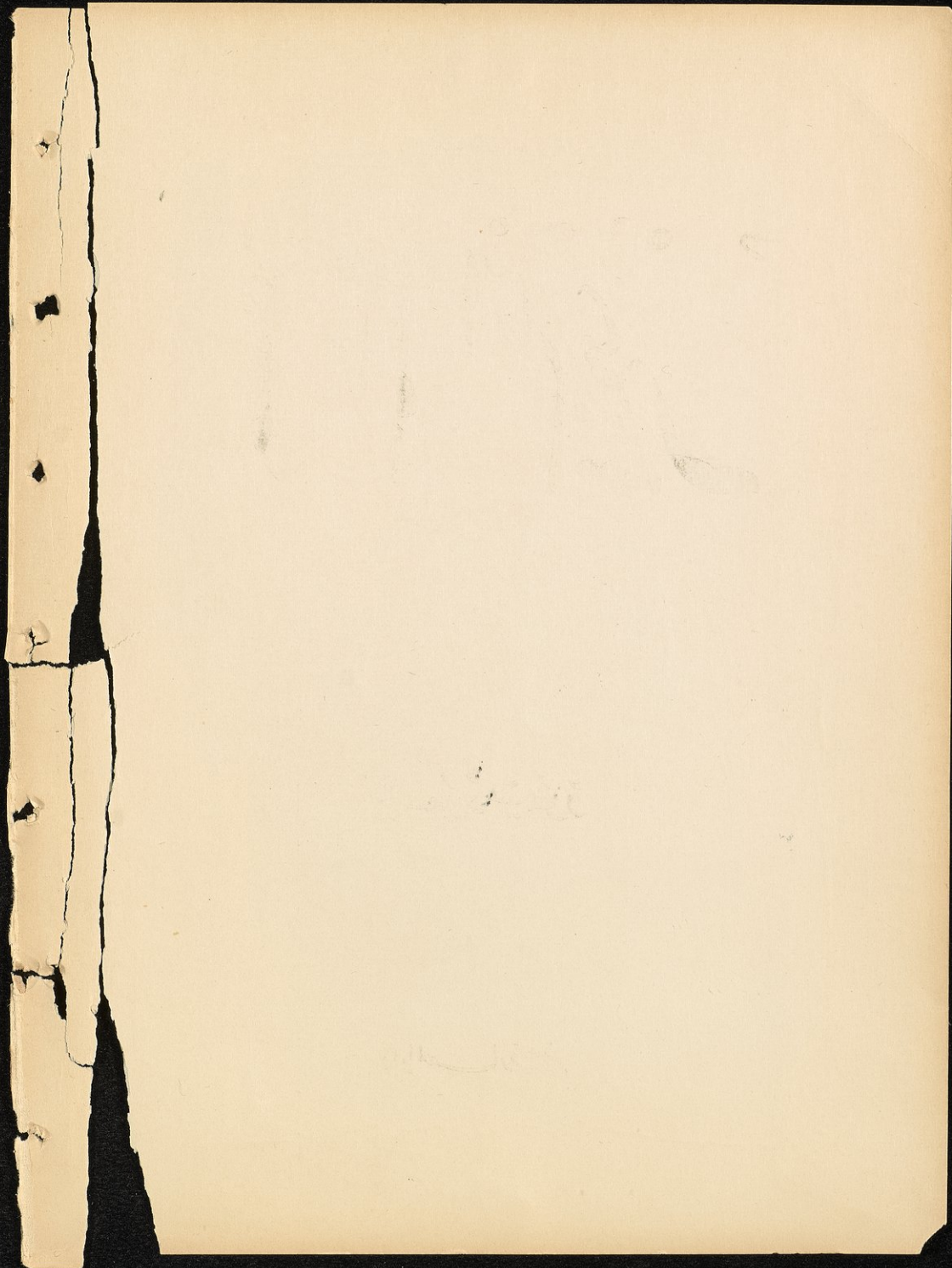
MAHMOUD TEYMOUR

6, Rue Emir Hussein

ZAMALEK

CAIRE, EGYPT

دار المعارف بمصر



لجنة للغة
Columbia University
New York
م. افنديات المنزل

كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ
وَقَصَّصْ أَخْبَرِي

محمود تيمور
1951

MAHMOUD TEYMOUR
6, Rue Emir Hussein
ZAMALEK
CAIRE . EGYPT .

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — سنة ١٩٥٠

محمّد بن عمر

كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ
وَقَصَصُ أَخْرَى



مكتبة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

893.79

T1363

Author's Gift

كُلَّ عامٍ وَأَنْتُمْ بَخِير

بَرَحْتُ مَشْرَب « نيوبار » بميدان « الأوبرا » ، مَشَرَبِي المفضل
الذي أُرْجِي فيه أَكْبَرُ وَقْتِي فِي الضَّحَوَاتِ وَالْأَمَاسِيَّ .

برحته في مَدْخَلِ اللَّيْلِ إِلَى دَارِي ، أَتَاهُ لِلْجُلُوسِ إِلَى الْمَذْيَاعِ ، كَيْمَا
أَسْتَمِعَ إِلَى الْخَفْلَةِ السَّاهِرَةِ الْكُبْرَى الَّتِي تَقَامُ فِي مَسْرَحِ حَدِيقَةِ « الْأَزْبَكِيَّةِ » ،
مُشْتَرِكَةً فِي إِحْيَائِهَا كَوَاكِبُ « مِصْر » فِي الْغِنَاءِ .

مَا بُكُورِي فِي الْعُودِ إِلَى مَنْزِلِي ، وَالْخَفْلَةُ لَا تَبْدَأُ إِلَّا فِي مُنْتَصَفِ
الْعَاشِرَةِ ؟ وَهَلْ تَتَطَلَّبُ الْأَهْبَةُ لِلْسَّمَاعِ هَذَا الْوَقْتُ الْمَدِيدُ ؟ إِنَّهَا بَضْعُ لِحْظَاتٍ
أُدِيرُ فِيهَا مِفَاتِيحَ الْمَذْيَاعِ ، فَتَنْسَابُ الْأَنْغَامُ فِي النَسِجَامِ !

لَمْ أَجِدْ فِي نَفْسِي مِنْ جَوَابٍ عَنْ سُؤَالِي ، فَقَدْ أَفْلَيْتُنِي أَتَخَلَّى عَنِ اللَّعِبِ
بِالنَّزْدِ فِي حَلْقَةِ الصَّحَابِ ، تَارِكًا وَرَائِي سَوَاطِعَ الْأَضْوَاءِ ، زَاهِدًا فِيمَنْ
كَانَتْ آتَسُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَاعَةِ الْجَوَّالِينَ فِي الْمَشْرَبِ ، أَسَاوِمِهِمْ وَأَمَاكِسِهِمْ
وَأَخْرَجَ ظَافِرًا بَعْضَ السَّلْعِ ، لِقَاءَ ثَمَنٍ بِخَس .

نفضتُ يدي من هذا كله ، وعَجَلْتُ بالانصراف ، آخُذُ الطريق
إلى الدار ، على حين أن الليلة ليلة العيد ، ومن شأنها أن تثير البهجة وتبعث
على الإنسراح ، ولكني لا أشعر بابتهاج ، بل أشعر بتذمر وتضجر .
« كل عام وأتم بخير » !

شَدَّ ما كَلَّ لساني اليومَ من ترداد تلك العبارة الشائعة المبتذلة ، بل
شَدَّ ما سَمِعَ سمعي وَقَعَهَا .

لماذا أَسْتَشعر أني مستغرق في الشواغل ، وأن على كتفي أعباء من
جِسامِ المهام ، فإذا رجعتُ إلى نفسي ، أتبين ما يشغلني ويثقلني ، لم أَلِمْ
شيئاً يقوم به عذري ، وتنهض حجتي ؟!

تعلقتُ بترام « شبرا » واتخذتُ لي موقفاً في الدرجة الثانية ، ولبثتُ
أعاني ضغط الزحام من حولي ، ولكني لم أُلْقِ لذلك بالاً ، فقد أَلِفْتُ هذا
الوقوف ، واحتمال مكارهه ، طوعاً لسياسة الاقتصاد التي أخذتُ بها نفسي
في المعاش .

لماذا أنا ضائق ؟

لقد أُنْجِزْتُ كل مطالب العيد ...

أعددتُ البطاقات والرسائل التي أُحِبُّ بها الأهل وأُخلِّلان .

أوصيتُ بصنع الفطائر وشراء الفاكهة والورود ، للذهاب بها إلى
القرافة في الصباح .

century

كُتِبَتْ قَائِمَةٌ بِالْعِيدِيَّاتِ الَّتِي عَلَى أَنْ أُمْنَحَهَا لِلْمُحْتَاجِينَ وَغَيْرِ الْمُحْتَاجِينَ
مَنْ أَقْبُوا مُنْحَتِي فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ .

وَوَجَدْتُ يَدِي تَفْرَعُ إِلَى جَيْبِي تَنْزِعُ مِنْهُ دَفْتَرَ الْحِسَابِ ، وَاسْتَفْرَقْتُ
فِي مَرَاجَعَةِ مِيزَانِيَةِ الْعِيدِ ، مُجْتَهِدًا فِي اخْتِصَارِ مَا يُمْكِنُ اخْتِصَارُهُ ، سِيرًا عَلَى
سَنَنِ الْاِقْتِصَادِ الْحَمِيدِ .

وَمَا زِلْتُ مُصْرُوفًا إِلَى دَفْتَرِي وَحِسَابِي ، حَتَّى كَادَ التَّرَامُ يَجُوزُ الْمَوْقِفَ
الَّذِي يَجِبُ أَنْ أُنْزَلَ فِيهِ ، فَفَقَزْتُ مِنَ الْمَرْكَبَةِ قَفْزَةً زَلَّتْ بِهَا قَدَمِي ،
فَتَمَاسَكْتُ وَتَمَالَكْتُ ، وَاتَّخَذْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مَنْزِلِي ، وَأَنَا أَعْمَغُ سَاخِطًا
نَائِرُ النَّفْسِ .

وَمَا خُطُوتُ بَضْعَ خُطُوتٍ ، حَتَّى بَرَزْتُ رَجُلَ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ يَتَوَكَّأُ عَلَى
عَصَاهُ ، وَعَلَى فَمِهِ ابْتِسَامَةٌ مَلَقَ بَارِدَةٌ ، فَمَدَّ يَدَهُ الْقَدْرَةَ قَائِلًا :
كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ ...

فَصَحْتُ بِهِ :

وَأَنْتَ فِي شَرٍّ يَا سَيِّدِي . . . لَيْسَ لَدَيَّ مَا أُعْطِيهِ !

دَخَلْتُ الْحَارَةَ الضَّيْقَةَ ، لِأَبْلُغَ مَنْزِلِي الصَّغِيرَ .

إِنَّهُ الْمَنْزِلُ الْحَبِيبُ إِلَيَّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِدَمِهِ وَضَالَّتِهِ .

لَقَدْ أَوْرَثَنِي إِيَّاهُ أَبِي ، وَإِنِّي لَمُشْفِقٌ عَلَيْهِ مِمَّا أَصَابَهُ مِنْ تَصَدُّعٍ ، فَمَا أَشْبَهَهُ
بِعَلِيلٍ أَرْمَى دَاوَاهُ ، حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَصْرَعَهُ .

How could I do
that with all the
conceding?

والحق أن من الرحمة القضاء على مثل ذلك العليل ، تخفيفاً عنه ، وإراحة له مما يلاقه ، وذلك ما اعتزمتُ في شأن منزلي العزيز . . لأَهْدِمَنَّهُ ، ولأَقِيمَنَّ مكانه داراً جديدة على طراز هندسيّ حديث .

إني لفاعل ذلك حتماً ... ولكن متى ؟.. لست أدري ... فقد انتويتُ ذلك ، وبنيت العزم عليه ، منذ قضي والدي . وهما هي ذى خمسة عشر عاماً تمرّ ، وأنا أرسُمُ على الورق خِطَطَ الدار الجديدة ، وأُعمل فيها يد الإصلاح والتعديل ، وفقاً لما يجدُّ في هندسة البناء ومراقب الحياة من مخترعات وكشوف ، وما برح المنزل القديم ماثلاً يصارع الزمن في تجدد واحتمال . دخلتُ الدار ، وألقيتُ بالطربوش جانباً ، ورحتُ أُمسح عرقى . ولم يكد يستقرّ بى المقام حتى صافح سمعى صوت صبيّ يتباكى وينتحب انتحابه المملول .

إنه ابن الطباخ ، ذلك الذى يكُمّن في ركن المطبخ لا يَبرّحه في ليل ولا نهار ، كما تكمن القطة مترصّدة لكل ساقطة !

يعلم الله أىّ خسارة يجشّنى إياها ذلك الصبيّ الشرّ الشَّعُوب . إنه ساعد أبيه الأيمنُ في التصيّد والاعتنام !

فيم نَحِيبُهُ وتباكيه ؟

ألا يتقلب في أعطاف خيرى ، وينمى عظمه ولحمه من حُرّة

مالى ؟

٩
هذه الديدان الصغيرة هي التي تعمل في خراب البيوت ما يعمل السوس
في الخشب الغليظ !

ضِقتُ ذرعاً بما تواصل على سمعى من ذلك الطنين السقيم الذى استرسل
فيه ابن الطاهى ، فصحت :

إن لم تسكت لكم ضوضاء فلقت أدمعتكم !
وانقطع الصوت ، وشاع الصمت ، وانكفأت على المنضدة أتصفح
دفترى ، وأراجع حسابى .

ما زال دخلى وافراً بحمد الله ، وما زالت ثروتى تتكاثر ...
ما أَيْمَنَ تلك السياسة الاقتصادية التى التزمته منذ خَلَقْتُ أبى على
ماله ... لقد نَوَّلتنى خيراً جزيلاً ، ولكنى مع ذلك ظَلَلْتُ فى الحياة فرداً ،
لا يَخْدُمْنى إلا ذلك الطباخ وابنه المنهوم ... وهأنذا قد ذَرَفْتُ على
الأربعين ، وأنا مستكمل أسباب العافية ، فى عيشة راضية .
عجباً لأولئك الذين لا يتركون الناس يَحْيَوْنَ فى طمأنينة وأمان ...
ما شأن الخلاق بى ؟

ما بال هؤلاء المتطلعين يُخَدِّقون بى ، ويُخَدِّقون فىّ ، تنبعث من
أعينهم نظرات الحسد والحقْد ؟
وإنى لأحس بأن أشد الناس عداوة لى ، هم أولئك الأقارب الذين
إخالهم يعدُّون علىّ ما أُصِيب من لَقِيَمَات .

هذا عمى « لطيف بك » ما أسمعَه وأثقلَه ! ... قائمة كالسارية مجفء ،
وعُنُقُ تمتد كأنها أفعى ، وشفتان تَبْدُوَانِ فى ابتسامة كابية حين يتحدث
إلى ... وإن ريقه ليتحلب طمعاً فى ثروتى التى تربو على ثروته ولا تفتأ
تربو ... وإنه ليتحوّل كلَّ حيلة لِيُغْلَّ رقبتي بالزواج من بنته « فكرية » ،
فهو يَنْصِبُ لى ذلك الفخ الأنيق ، ولكن هيهات أن أكون له صَيِّداً !
أما ابنته فأعترف بأنها على شىء من الوسامة ، وإنى لأحس بأنها تميل
إلى كل الميل . وكيف يغيب ذلك عنى ، وأنا الذى لا تَبْدُوُ عن فطنتى
خفايا النفوس ، ولا يُعَيِّنُنِي أن أُسْتَكْنِهَ ما هو مستور خلف الطواهر ؟
إلا أن عقلى ينهانى أن أَرْضَى بهذا الزواج الذى يهدد ثروتى ، ويُشْفِي
بها على الخطر ... وهل الزواج إلا نفقات إثر نفقات ، تَسْتَنْزِفُ الأموال ،
وتهدم الثروات ؟

خاب فأل عمى ، وذهب طمعه أدراج الرياح !
وألقيتُ يدي تَعَبْتُ فى درج المنضدة بأوراق ، وإذا بها تخرج رسوم
المنزل الجديد الذى أزمعتُ ابتناؤه ، فأقبلتُ أدرس الرسوم وأفاضل بين
بعضها وبعض ، متوخياً أن يكون منزلى المنشود على أحدث طراز
تتوافر به الراحة والطمأنينة .

إنى لأذكر يوماً دخل علىّ فيه عمى ، وأنا باسطة هذه الرسوم أتصفحها ،
فجعل يشاركنى فيما أنا فيه ، وكانت له ملاحظات فى شأن حُجَرِ الأطفال

وما إليها . وفيما هو يتحدث ، كان يكشف لى فى ابتسامته المداهنة عن أسنان نخرة صُفّر .

حقاً ما أسمعجه ! ... ما أسمعجه !

سألتنى عمى هذا حتماً فى القرافة صباحاً ، فهو لا يتخلف عن زيارة القرافة فى كل مناسبة وكل موسم .

إنه يعدُّ اختلافه إلى تلك المقابر نزهة طيبة ، فأراه هنالك متطلق الوجه ، هانىء البال .

عجباله له يُبدى هذا التفاؤل الموصول ، حتى فى مثابة الموتى !
إنى مُلاقٍ عمى فى غدى ، وإنى لمحبيّه تحية العيد لا بدّ ، وسألتنى معه شِرذمة من ذوى القربى ، أولئك الذين لو كشفوا عن طواياهم ، وأفصحوا عن نياتهم ، لصاحوا صوتاً واحداً ، وهم يحيوننى :
كل عام وأنت مع الراحلين ...

ما أشقَّ يوم القرافة علىّ ! *Why do you do it then?*
ألا ساءت تلك العادات المرذولة من توزيع الفطائر والفواكه على قوم لا يطعمونها ، وإنما يجمعونها لبيعوها بدرهمات !

لقد أيقنتُ أن طاقات الورود التى أنتقيها ، وأبذل فيها غالى الثمن ، تكريماً لمن يضمهم الثرى من أهلى ، لا تلبث أن تُحمَلَ بعد مغادرتى للقرافة ، فتباع لمن يطلبها زينةً لمجلس ، أو حليّةً لعُرس !

ومن هو المستغل الأول لهذه النفقات ؟

هو « التَّربَّى » ... « التُّرْبَى » ... يا لله من هذا الرجل الذى يتظاهر بالتدين والتقوى ، لا تفارق السُّبْحَةُ الطويلة السوداء أصابعه ، ولا تلقاه إلا بفم يُبَسِّمِل وَيُحْمَدِل ، ويعلم الله ما يُكِنُّهُ فى وليجة نفسه من خبث وشر وطماعية !

هذا « التربي » ... إني ملاقيه أيضاً غداً ، فهو يقف على رأس الطريق ، يرتصد لِمَقْدَمِي ، فما إن يلحني قادماً حتى أجده قد تحامل على ساقيه ، مترائياً بالبشر ، قائلاً لى :

كل عام وأنتم بخير ...

ثم يمسك يدي يحينني تحية حفاوة وإكبار ، فأشعر ويدي فى يده برِغْشَةٍ تسرى فى أوصالى ... إن تلك اليد الهزيلة المعروفة التى يحينني بها هى التى ستوسدنى تراب القبر ، وتسوى عليه جناذله الصَّمَّ ... لَأَكَاد أراه جاثماً على فم القبر ، حارساً له ، كأنما يصدنى أن أخلُصَ من سجن التراب إلى دنيا الطلاقة والنور !

وإني لأتمثل فى مُخَيَّلَتِي هذا « التربي » وقد جمع حوله تلك الشرذمة من أقربائى ، على رأسهم عمى ، وهم يتقاسمون فى اجتماعهم مالى ، ويتوزعون ثروتى ... تلك الثروة التى ضُنِيتُ فى جمعها وادخارها ، وهم فى خمولهم يتشاءون .

هي ثروة أسهرتُ فيها جفني، وأسقّيتها جهدي، وتعهدتها بجيلتي وفطنتي .
 كم من صفقاتٍ مُربحة لبيوع جَبَرِيَّة ، ما زلتُ بها حتى اغتنتمتها !
 كم من مآزق وضوائق ، في أسواق البيع والشراء ، انتهزتُ فرصتها ،
 فكانت كسباً عظيماً !

أأترك هذه الثروة نُهبَةً لأولئك الحَقْدَة والحَسَاد من أقاربى الطامعين ؟
 ما اضطرارى إلى زيارة هذه القرافة ؟
 أما أن لنا أن نشور على هذه التقاليد البالية التي لا خير منها ولا نفع ؟
 وما لى أجشّم نفسي ما لا ترتاح إليه نفسي ؟
 بِئْسَ يومُ العيد من يوم عبُوس ، أقضيه في هذه القرافة البغيضة ،
 فتتجمع فيه على كاهلى آلام العمر ، وهموم السنين !
 وفزّعتُ إلى دفتر الحساب ، وأنا أَرْفِر .
 وشغلتُ نفسي بالأرقام وقتاً أجمع وأطرح .
 ما ألَوْتُ جهداً في القيام بما يجب علىّ لذكركى والدىّ كليهما في هذا
 الموسم الكريم .

هأنذا أوصى القراء بتلاوة القرآن ، في المواعيد المقررة ، وأجرى عليهم
 ما جرت به العادة من أرزاق .

أين الشَّخْ الذى يعزوه إلى هؤلاء الأَفَّا كون ؟
 أنا أنفق المال في وجوهه ، قياماً بالمفروض .

حسبي أنى عن نفسى راض ، ولن يكون للحقدّة والحساد من نصيب
إلا الخزى والخسار .

سيُمدُّ الله فى عمرى ، وستظل فى يدى ثروتى التى تتحلّب لها شفاه
أولئك الأقارب المتكالبين !

ووقع بصرى على المذيع ، فنظرت فى ساعتى .

فى الوقت فُسحة ، حتى يحين موعد الحفلة .

الحمد لله على ما وهبنى من عقل أضبط به أمرى ، وحزم أخكم
به تصرفى .

لقد آثرتُ القُفُول إلى دارى ، أنعمَ بجلسة رخيّة ، فأستمع إلى غناء
الحفلة فى هدوء واطمئنان .

ورحت أخلع سُترتى ، وأستبدل بمجذائى خُفَّ المنزل .

أكنتُ مستطيعاً أن أكون على هذه الحال المريحة لو ذهبتُ إلى
المسرح للسمع ؟ المسرح المكظوظ بالروّاد ، المخنوق بالأنفاس وضباب
الدُّخان !

أين يقع ذلك المسرح من جلستى الطيبة فى منزلى الآمن ، حيث أملك
التصرف فى أمرى كله على الوضع الذى أهوى ؟

وفتحتُ النافذة استجلاباً للنسمات الرقاق ، فطالعتنى تلك الأبنية
الشوامخ ، كأنما هى مرّدة عماليق تأخذ الطريق على منزلى الوداع .

وجعلتُ أمسح جينى المتفصّد عرقاً ، وأنا أحاول استنشاق الهواء ،
ثم انطلقت أرّجع البصرَ حولى .

يا له من عُشٍّ جميل أسعد بسكناه !

ولكن سرعان ما تبدّت لى على ضوء المصباح الكليل تلك الحوائط
المستهدمة ، وذلك الأثاث الرثّ .

عيبى الذى أعترف به أنى وفى ألوف ، لا أحب التغير والتبديل ...
يبد أن سنّة الكون غالبية ، وسيحين وقت يضطرنى إلى التفريط فى ذلك
العُشّ القديم ، فأقيم مكانه مَعْنَى عصرياً جديداً .

وخطوتُ الهويّنى ، وأنا أروّح وجهى بمندبلى مهمهما :
يا لَهَذَا الهدوء الجميل !

ما أروع أن ينفرد المرء بنفسه !

تَعَمّتِ الوَحْدَة ، ونعم الصمت !

وفى تلك اللحظة علا صوت ابن الطباخ يُعَوِّل ، يطلب المعونة
والغوث ، فصحت :

كررت عليكم أنى لا أريد الضوضاء ... سكوتاً !

وألفيتُ الصبى يُهرّج إلى باكى العين ، وخلفه أبوه ... وماهى إلا أن
أمسك به ، وأنحى عليه يعنّفه ، فقلت للطاهى نأثر الصوت :

ألا تسكن لكم ضوضاء ؟ أليس عندكم حياء ؟

فانبرى الطاهى يعتذر ، وهو يقول :
الولد يرغب فى حُلَّةٍ جديدة للعيد ، وهو مصرّ على ألا يلبس من قديم
ثيابه شيئاً .

فقطبتُ ما بين عينيّ ، وأنا أحييه :
وما شأنى ؟ لقد أخذتَ مِنحة العيد منى ، فدبر أمرى .
وما لبثتُ أن أشرتُ إليه أن ينصرف ، فضى يجر ابنه المتباكى .
لا مِرْيَةَ عندى فى أن المنحة التى خصصتُ بها ذلك الطاهى لا تقوم ثمنًا
لثوب جديد ، ولكنى لست المسئول عن تدبير تلك الشئون ، فما أنا لذلك
الطفل بوالد .

وانسرحتُ أفكر ، وأنا ألمح شبح الغلام متباكياً يطويه الباب فى
ذلة وانكسار .

لو كان قَدَّرَ لى أن أتزوج لأعقبْتُ مثلَ هذا الغلام ...
عجيب أن يدور هذا الخاطر برأسى !
أى زواج ؟ وأى غلام ؟ !
أ كنتُ أَرْضَى أن يكونَ لى ولد مثله ، يزغنى بيكائه ، ويقلقنى بمطالبه ؟
وحانت منى نظرة إلى المذيع ، أنعم النظر فيه .
جليلُ الفائدةِ هذا المذيع !
لقد أربحنى جنبها كاملاً كنتُ أبذله الليلةَ ثمنًا لِتَذْكِرةِ الدخول

في المسرح ، غير ما قد يَجِدُ من نفقات يحميني البقاء في المنزل أن أبذلها .

المسرح ... المسرح !

وظَلَّلتُ أنْخِل ما فيه : أنوار سواطع ، مشاهد بهيجة ، جمهور يعاوقسائه
البشر والانتناس ، وتتنقَّل بين طوائفه النكات والمداعبات .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والجمهور مقبل على الاستمتاع بحفلة من
أروع حفلات السنة في ليلة العيد ؟

لماذا أحس الساعة انقباضاً وكآبة ، على حين أن الجو كله مدعاة إلى
فرح وابتهاج ؟

لماذا أستشعر الآن وحشة وقلقاً ، على حين أني في منزلي الأمين ،
لا يشغلني شاغل ؟

وظَفِقْتُ أَذْرَع الحجرة في جيئة وذهوب ، وأخيلة المسرح تتراقص أمام
عيني مختلفة الألوان .

وأفيتني أنيجه إلى « التلفون » فأطلب بائع الدخان القائم حانوته على
رأس الشارع ، ذلك الذي أعرفه يُعْنِي بالحصول على تذاكر الحفلات
الكبرى ، ويتجر بها بين المختلفين إلى حانوته .

ولما أجابني قلت له :

لَمْ أَطْلُبْكَ إِلَّا لأحييك تحية العيد ، جرياً على سنتي مع المعارف والأصدقاء .
فردَّ الرجل تحيتي في أدب ورقة ، فتابعْتُ قولي :

كيف حال التجارة ؟ وماذا كان من شأن التذاكر الخاصة بحفلة الليلة ؟

فسرعان ما قال لى ، والسرور يتجلى فى صوته :

لقد بعث التذكرة بضعة ثمنها ، وقد نفذت التذاكر جميعاً . . .
أما شباك التذاكر فى المسرح ، فقد أغلق منذ الضحوة . . . لا تحسبن
يا سيدى أن فى استطاعتك الحصول على تذكرة الآن .

فعاجلته بقولى ، مكروب الصوت :

أجنون أنا حتى أسعى إلى شراء تذكرة ؟ أتريدنى أن أهرق راحتى
وأترك منزلى ، لأزجّ بنفسى فى ملتطم من الجمهور الصاحب ؟

ووضعت سماعة «التلفون» وعدت أذرّع الحجرة ضائق الصدر .

كيف فاتنى أن أدعو نفرأ من خلأنى يقضون هذه الأُمسية معى بجوار
الذياع ، فأجد لمشاركتهم ما ينفى الوحشة عنى ؟

ولكن هل كان يجمل بى أن أدعوهم ، دون أن أهيه لهم بعض الطعام
والشراب ، احتفاءً بمقدّمهم على ؟

بيد أن هذا الطعام والشراب أكثر نفقة من ثمن التذكرة وتمضية
العشية فى المسرح ، فأى جدوى لهذا الإجراء ؟ ألا ساء هذا التفكير !

كانت الفكرة السليمة الموقفة أن أقصر على دعوة صديق الأثير ،
رفيق منذ الطفولة : « حسنى » . . . وإن ضيافة فرد واحد لا تكلفنى

إلا القليل .

إلا أنى أعلم علم اليقين أن «حسنى» يقضى ليلته في بيته ، بجوار المذيع ،
ومن حوله زوجه وبنوه .

لقد أنشأ «حسنى» أسرة يدعى أنه ينعم معها بعيش خصيب ، فهل هو
صادق فيما يدعيه ؟

يا طالما نَعَيْتُ عليه أنه تزوج ، وعددت ذلك زكاة فرطت منه ...

الزواج ! ما الزواج ؟

أليس هو إهداراً لحرية الزوج كل الإهدار ؟

أو ليس هو تجشُّماً لألوان من التَّبَعَات تقصم الظهور ؟

أو ليس هو سلسلة من النفقات موصولة الحلقات يوماً بعد يوم ، ولا سيما

في مثل يوم العيد الذى يلقبونه اليوم المبارك السعيد ؟ .. وأى بركة وسعادة

لمن هو مطالبٌ بالإنفاق بعد الإنفاق ، فيما يسمونه الواجبات والأوضاع ؟

لا عقل لمن يُسَلِّم عنقه لِنِيرِ الزواج !

الحمد لله الذى كَمَّلَنى بعقلى ، فحمانى أن أكون زوجاً !

لست أنسى قول «حسنى» إذ يمارينى فى شأن الزواج والأبوة :

يجب ألا يكون الإنسان أنانيّاً فى الحياة ، يؤثر نفسه بكل شيء ...

الزواج تألف وتعاطف ومؤازرة ، وهو سبيل الذرية الصالحة ، تلك التى هى

قوام المجتمع الركين ، هى وَصْلُ حياة الوالدين بعد انقضاء العمر ، هى الوسيلة

الكريمة لتحقيق فكرة الخلود .

وكان «حسنى» حين يبلغ هذا المبلغ من قوله ، يأخذ بكتفى وهو يهزئنى متحمساً ، ثم يقول :

لن تَقْنَى في هذه الدنيا ما دام لك ولد !

وإن «حسنى» إذ يَقْرَعْنى بقوله هذا في فلسفة الخلود ، ليد كَرْنى بموقفه في عهدنا الغابر أمام مدرّس اللغة العربية ، إذ كان يُلقى محفوظات من الشعر والنثر ينال عليها النهاية العليا في دفتر الدرجات ، فهو إذ يردّد لى اليوم كلامه في فلسفة الخلود لا يزيد على أن يكرر على مَسْمَعى ما يعيه من المجلات والكتب التى يبعثر في شرائها ماله !

لقد كان «حسنى» في عهد المدرسة تلميذاً مثالياً يواظب على الحضور ، ويحفظ الدروس ، ويطيع الأساتذة ... فليس بِمُسْتَنَكِرٍ عليه أن يكون اليوم زوجاً مثالياً يحمل ما يُلقَى عليه من تَبِعَات وفروض ! وأحدثُ مرة زرتُ فيها دار «حسنى» كانت منذ أسبوعين ، إذ قصدته مهتاً إياه بطفله الثالث ، ولا يبرح مخيلتى مرّاه وهو مقبل علىّ فى بشر وابتهاج ، وبين يديه وليده الجديد . وما إن لحنى حتى بادرنى يقول ، وهو يُمِيط اللثام عن وجه الطفل فى احتياج :

انظر ... انظر ... ألا ترى فيه ملامحى وَصَاحَة متميزة ؟ انظر إلى أنفه ، أليس هو أنقى ؟ انظر إلى عينيه ، ألسن تراهما عَيْنَيَّ ؟ ما قولك ؟ إن هذا الطفل صورة لى ، قطعة منى .. إنى لأحس بأنى أحيا فيه حياة جديدة

أخرى... أليس هذا هو الخلود عين الخلود؟!
 وألفتني أحدق في وجه الطفل، ملاطفاً إياه وقتاً.
 ما أملح هذا الكائن الصغير الذي تتجمع فيه عناصر الإنسان كاملة!
 إنني لأعجب وأنا أنظر إلى تلك اللبيفة المختلجة، كيف تغدو بعد حين
 إنساناً متوياً له شأنه؟

وتعالت صيحات الطفل، فأخذ «حسنى» يجول به في الحجرة يهدده،
 والطفل مسترسل في صياحه لا يسكن، فلم يجد أبوه بُدّاً من أن ينطلق به
 إلى أمه.

وشيعتُ صديق في منصرفه بابتسامة إشفاق، وأنا أردد:
 هذا هو الخلود عين الخلود!... أراحنا الله أيها الصديق المخدوع من
 مثل هذا الخلود!

وبينا أنا في ملتطم هذه الأخيلة والتصورات، إذ أنبهتني دقات الساعة
 يعلنها مذياع الجيران، فأنحسر عن رأسي وافد الذكريات المتداعية،
 ومددت يدي إلى المذياع أهمُّ بأن أعرك مفاتيحه، فما لبثتُ أن سمعتُ
 ابن الطاهي مسترسل في أئينه، فأردت أن أصبح إسكاتها، ولكنني لم أفعل.
 ما أبين الحزن في بكاء هذا الطفل، فإنه يشعر بما تمتلئ به نفسه
 من كربة وتحسّر!

هذا الكساء الجديد الذي أعده أنا شيئاً تافهاً لا بال له، يعدّه ذلك

الصبي أمنيته القُصوى ، وكنزه الثمين ! ... فهو يطوى الأيام والليالي ارتقاباً
ليوم العيد ، ذلك اليوم الذى يُتيح له أن يخرج فى حُلته القشبية ، مزهواً
بها بين أترابه ولداته ... وها هو ذا الليلة يقتله الأسى ، إذ يجد نفسه محروماً
فى غده تلك المتعة ، فلن يخرج إلا فى ثوبه القديم ، وهو خزبانٌ يتوارى
عن عيون رفاقه المتفاخرين بالجديد من الثياب !

ولكن ماذا أنا مستطيع أن أعمل له ؟

ما أكثر أمثاله ممن لا يُبيلهم العيدُ ما يشتهون !

الدنيا تزخر بالمأسى وضروب الحرمان ، وما خلقى الله عائلاً للبشرية ،
كفيلاً بإسعاد الأشقياء !

وتواصل عويل الطفل ، حزين الرنين ، فأذكرنى ذلك وليد «حسنى»
وهو بين يدي أبيه لا يسكن له صياح ، وأبوه لا يملُ الطواف به فى الحجرة
يَهْدِده فى رفق وحنان .

وما برحت أذنى تحمل أصداء قول « حسنى » :

إن هذا الطفل صورة لى ، قطعة منى ... إني لأحس بأنى أحياء فيه
حياة جديدة أخرى !

ووجدتني أذرع الحجرة تطبق على الوحشة من كل جانب ، ثم وقفتُ
أمام الرسوم الخاصة بمنزلى المزمع بناؤه ، فألقيت عليها خواطف النظرات ،
ثم ارتسم فى خاطري أن هذا المنزل قد تم بناؤه على أحدث طراز ، وهو

عامر تتجلى فيه بهجة الحياة ، وتخيّل أنى مقبل على المنزل ، فإذا طيف
« فكرية » ابنة عمى ماثلة في النافذة ، تلوّح لى بمنديل فى يدها ، وعلى
ثغرها ابتسام !

لم تبقَ مَرِيّة فى أنى مُتَعَب منهوك ... وإلا لما دار فى رأسى هذا
التخليط ، ولا جرى فى مخيّلتي ذلك السُخْف من التصورات !
وقصدتُ إلى النافذة أستروّح ، وتطلعت أتفرّج ...
ثمة السابلة فى غدوّ ورواح ، وهم مستبشرون طلقة وجوههم ، يتطارحون
تحايا العيد .

ما فتىء ابن الطاهى ينتحب .
ورأيتنى أذهب إلى حجرة الأُصُونَة ، حيث تستقر الملابس والتحف ،
وظفقتُ أَلْب فىها ، حتى أخرجتُ منها صُنْدُوقاً تليداً تصان فيه بعض
الخبى والنفائس ، فوضعتّه على المنضدة مَعْنِيّاً به ، وفتحتّه أتملّى ما يحتويه ،
فبرّر لعينى خاتم لأمى ، وذكرت قولها :

هذا الخاتم تستبقيه لزوجك يا بنى ... لا تقرط فيه ، ولا تهبّه لغير من
تختارها لك زوجة !

وجعلت أتلّس الخاتم بين أناملى ... إنه خاتم طويل العمر ، تتوارثه
الأسرة خلفاً عن سلف ، كما هو شأنها فى كثير غير هذا الخاتم من نفائس
والأطاف .

تلك هي ساعة من الذهب كانت لأبي ، وقد أوصاني أن تكون مبرأاً
لابني البكر ... فغمغمت شفتاي :

ابني ؟! ... ابني ؟!

وظل بكاء ابن الطاهي يلاحقني حيثما حلتُ .

لا مندوحة لي عن إسكاته على أية حال !

وأودعتُ الحُلِيَّ صُنْدُوقَهَا التليد ، وحملتُ الصندوق إلى حِرْزِهِ
المكين ، واثبتتُ أَلْب في الأُصُونَة ، حتى عَلِقْتُ يَدِي بِحُلَّةٍ صغيرة
مزرَكْشَة كانت لي في عهد صِبَاي ، وقد صُنِعَتْ في مناسبة خاصة بي ،
فاحتفظتُ بها أُمى منذ ذلك العهد تَذْكاراً لتلك المناسبة .

وما هي إلا أن انتزعتُ تلك الحُلَّة ، وعَجَلْتُ بها إلى المَطْهَى ...

لا شك أن مصير هذه الحلة أن تكون طُعْمَةً لِلْعَثِّ ، فلا خُسران على
في أن أُسكت بها ذلك الصبي الذي لا ينقطع لبكائه طَينين !

وما إن رَأَى الصبيُّ حتى تَفَرَّعَ ، ولاذ بأبيه يلتمس عنده المأمن ،
فقلت له وأنا أُمَدُّ بالحلة يدي :

لا تخش بأساً أيها الأبله ... تلك حُلَّة العيد ، ما كنت لَتَعْلُمَ بالحصول
على مثلاً ما حَيَّيتَ ... فافرح بها ، وأقصرْ عن البكاء !

فتلقفها الصبيُّ وهو يتواثب طرباً ، وففر الطاهي فاه متعجباً ، ثم صاح
بطفله يقول :

ذهب قبَّل يَدَي سِيدِكَ الذى جاد لك بما لم يَجِدْ به لأحدٍ قبلك ...
ولنداع له بطول العمر ، ورغد العيش ، والذرية الصالحة بنين وبنات ،
يعيشون فى ثبات ونبات !

وجاءنى الطفل مهتاجاً يهُوِّى على يدي بفمه ، فوجدتني الألف
شعره ، وأتوسم وجهه ، وقد بدأت أستشعر ارتياحاً ورضا ...
وتلفت حولى ، فخيَّلَ إلىَّ أن ذلك المَطْهَى العَبُوسَ قد اكتسب
تألُقاً وبهجة !

ثم وقعت عيني على الطاهى ، فلبثتُ أتقرَّس فى وجهه الموسوم بمختلف
التجاعيد ، وهو مقوس الظهر ، كأنه شجرة عتيقة نال منها الزمن ،
وأوشكت أن تعصف بها ريح الفناء !

ثم عدلتُ ببصرى عنه إلى الصبيِّ ، وهو فى نضارة وجهٍ ، وفتوة
ملايح ، كأنه فنَّ رَطْبٍ ينبت من جذور تلك الشجرة الفانية مُورِقاً
يتفتح للحياة !

غداً يقطع البستانيُّ تلك الشجرة العتيقة ، فيخلصُ تبعده وتنميته لذلك
الفنَّ الغضِّ ، حتى يشقَّ مكانه فى الأفق !

ولكن هل تنفى تلك الشجرة العتيقة حقاً ؟
إنها أودعتْ خصائصها جميعاً ذلك الغضنَّ النابت ، فهو يستأنف
حياتها فى الكون ، ويمجدُّ عمرها على ظهر الأرض ...

وقفلتُ إلى حجرتي ، وقد تخففتُ من وحشتي ، وجعلتُ أعزُّ
مفاتيح المذياع معاً شيئاً إياها ، ثم أخرجتُ ساعتى ، وعلمتُ أن الحفلة أدتُ
بعد قليل .

وفيا أنا قبالة المذياع ، أعابته ، إذ أبدي تنسل إلى جيبى فتلامس فيه شيئاً .
ماذا ؟ يا للعجب ! . . . إنه خاتم أمى الذى أوصتنى أن أجعله لعروسى
هدية الزواج .

كيف وضعته فى جيبى ؟

كيف نسيتُهُ فيه ؟

ومكثتُ أتفحص الخاتم ، وقد طاف بخاطرى شبح « فكرية »
ابنة عمى ، وهى تحيىني تحية خفرة ، وتبتسم لى فى تلطف .

لستُ أنكر أنها فتاة أنيسة ، ولا شك أن قلبها عامر بحبى .

أما أنا فما هو شعورى لها ؟ أعترف بأنى تُجاهها لغز معقد عصى .

وجعلتُ أدفع بالخاتم عالياً ، وأتلققه باسم الثغر .

وعدتُ أطوى الحجرة ذهاباً وجيئة ، فى خطوات محتاجة .

وبغته ألفتنى أمام « التلفون » ، وأدرتُ القرص فى غير وعى ، وإذا

أنا بعد لحظة أكلم عمى قائلاً :

أردتُ أن أبادر إلى تحيتكم وتهنئتكُم بالعيد . . . كل عام وأنتم بخير .

— وأنت بخير يا بُنى . . . كيف حالك ؟

- الحمد لله ... وأنتم كيف حالكم ؟
- لا بأس ... لا جديد .
- ماذا تفعلون الآن يا عمى ؟
- نحن الآن مجتمعون تأهباً لسماع الغناء فى حفلة الليلة .
- اتفاق طريف ... وهذا شأنى أنا أيضاً !
- حالنا واحد !
- ولكن نمة فرق بيننا ، فأنتم أسرة كثيرة العدد ، وأنا واحد فرد .
- ولِمَ الوَحْدَةُ يا بُنَى ؟
- هذا ما جَرَى ... ولا أكتُم عنك أنى أشعر بوحشة !
- ... هل لى أن أقترح عليك ؟
- اقترح ما شئت .
- لم لا تكون بيننا ، فنأنس بك ، وتشرَكْنَا فيما نحن فيه من اجتماع السَّمَل ؟ .
- كيف ؟ أأنتقل إليكم الآن ، وقد تأخر الوقت ؟ !
- يا بُنَى ، لا كُلفةَ بيننا .. زيارتُك فى كل وقت موضعُ ارتياح !
- ... لست أدرى بماذا أُحييك ؟
- دعنى ألحَّ عليك فى المسارعة إلى الحضور ... ستزيد ليلتنا طيباً ومسرّة .

— أحمقاً ؟

— أنت في ذلك ترتاب ؟ لا تتكاسل ، ولا تتلمس المعاذير . . .

— سأحاولُ يا عمى .

— نحن في انتظارك .

— أرجو أن أفعل ، ولكن لا تَعْتَبُوا عَلَيَّ إن منغى عائق . أشكرك

يا عمى أجزل الشكر . . . طابَ مساؤك . . . تحياتى للأسرة جميعاً . . .
تحياتى « لفكرية » !

وَأَلْفَيْتُنِي أَهْرَعَ مِنْ فُورِي ، فَاسْتَخْرَجْتُ خُلَّتِي الْجَدِيدَةَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا
دَقَائِقُ ، حَتَّى كُنْتُ أَنْيَقُ الْبِزَّةَ ، يَنْفَحُ الْعَطَرُ مِنِّي ، وَأَنَا بِيَابِ الدَّارِ ،
جَيَّاشُ الْوَجْدَانِ ، أَنْتَظِرُ سَيَّارَةَ أَجْرَةٍ ذَهَبِ ابْنِ الطَّاهِي فِي طَلَبِهَا .

وَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ ، كُنْتُ أَضَعُ يَدِي فِي جَيْبِي ، لِأَسْتَوْثِقَ مِنْ وَجُودِ
الْعُلْبَةِ الْفَاخِرَةِ ، يَتَوَسَّطُهَا الْخَاتَمُ الَّذِي أَوْصَتَنِي أُمِّي أَنْ يَكُونَ هَدِيَّةَ الزَّوْاجِ !

صراع في الظلام

غادر الشاب حدود القرية النائية التي اتخذها لنفسه مقاما جديداً منذ سنوات قلائل... غادرها قافلاً إلى قريته الأولى مَسْقُطَ رأسه ، وموطن أبويه . هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها بلده الأصيل ، وإنه ليطرقة والليل في مُؤْتَنَفِهِ ، كما طرقة في مثل هذا الوقت منذ عامين اثنين .

قَدَمَهُ في المرة الأولى ليشهد عُرْسَ أبيه ، مجاملة له ، ورغبة منه في أن يصفوا ما بينهما من كدَرِ المنازعة والخلاف . فلقد ظل الشقاق يدب بين الابن وأبيه ، حتى اضطرَّ الشاب أن يفارق موطنه ، وأن يستقل بعيشه في قرية غير قريته .

لقد كان الخضم في هذه المنازعة أباه ، وإن للأب حُرْمَةً عليه أن يرهاها ، مهما يَلْقَ في ظلال الأبوة من عَسْف وإعنات .

ما أوقفها فرصة يقتنمها الشاب ، ليلطف أباه ويتراضاه ، وإن كانت هذه الفرصة تهنئة يقدمها الابن لأبيه في زواج جديد ... !

وأى غضاضة في أن يهنىء أباه بالزواج ؟

ليست امرأة الأب بالأمر الغريب عنده ... لقد قضت أمه وهو في كنف
الطفولة ، فهو لا يذكر من عهد الأمومة إلا مخايل هزيلة لم ترو ظمأه من
كوثر الحنان .

ولقد نشأ يرى زوج أبيه الأولى تسومه سوء العذاب ، ولا تفتأ توقع
بينه وبين أبيه ، فيلقى على يديها ألوانا من المهانة والإذلال .

ولم يُنَجِّه من ذلك العيش النكد الذي صحبه حتى مطلع الشباب ،
إلا أن يترك القرية ومن فيها ، غير آسف على الفراق .

وما هي إلا أشهر تقصت بعد رحيله ، حتى تناهى إلى سمعه أن هذه
الزوجة قد غيبت عنها المنون ، وأن أباه يستقبل زوجة أخرى ، زوجة جديدة لم
تقع عين ابنه عليها ، ولا يعرف من أمرها شيئا قلا أو كثيرا .

وماله يُعْنَى بها ، وهو اليوم يحيا حياة حرية واستقلال ، في تلك القرية
النائية ، ناجيا بنفسه من شرور زوجات الآباء ؟

ها هو ذا يأبى إلا أن يحشم نفسه مشقة السعى إلى بلده الأول ، ليشهد
عُرس أبيه ، وكأنه يعبر بذلك عن موفور ثقته بنفسه ، واعتداده بأمره ،
وحرصه على أن يظهر أمام الأب في مظهر الند للند ، لا يجد منه تهيبا ولا
خشية ، ولا يشعر معه باستكانة ولا خضوع .

حوّمت هذه الخواطر برأسه ، وهو يتخذ سبيله إلى بلده في المرة الأولى ،

ليشهد عُرْسُ أبيه ، وإنه ليدكر كيف تمت هذه الزيارة القصيرة في ذلك الوقت ... زيارة لم تستغرق إلا يوماً وبعض يوم .

لقد دخل يومئذ قاعة الدار ليلاً ، وهي حافلة بالنساء يطلقن الأغاريد ، فتُدَوَّى في الأرجاء ، لتنافس قرع الطبول وشَدُّ المزامير ...

ولقد راعته العروس في صدر القاعة ، تَتَضَوُّ بِهَاءٍ ، فتقدَّم إليها يزجي تهنئته ، وألقى نظرة على وجهها الصبيح ، فواجهته عيناان دججوان مغرقتان في السواد ، نجلاوان بالفتان في السعة ... فانتظمت هَزَّة لم يملك نفسه معها ، هزة أثارت في دخيلته غرائب الإحساس .

وانصرف عن الدار بعد قليل ، قاصداً ساحة البَيْدَر المهجور ، في أقصى القرية ، واقتعد الحجر العريض العتيق ، حليف طفولته وأليف صباه ، ذلك الذي كان يجلس إليه الساعة تَلُو الساعة ، نافضاً إليه نفسه ، شاكياً إليه بَنَّهُ وهمه ... !

لقد أعرضَ عن الدار في تلك الليلة ، زاهداً في مباهجها وزينتها ، ولاذ بذلك الركن الخَلِيّ ، مُشْرِعاً عينه إلى السماء الداجية ، كأنما يرصد مواقع النجوم ...

ما باله يتجافى عن ذلك الجوِّ المَرِح الطَّرُوب ؟
وما له لا يجد أنسا بتلك القرية التي هي مدرَج نشأته ، ومثابة أهله
وخلَّاه ؟

وَيَجْ نَفْسَهُ ، إِذْ يَحْسُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَحْشَةً كَثِيرَةً !
 إِنَّهَا وَحْشَةٌ تَحْمِلُ إِلَيْهِ فِي تَضَاعُيفِهَا سَوَافِلَ ذِكْرِيَّاتٍ مُمِصَّةً ...
 مَا أَقْسَى مَا يَتِمُّثَلُهُ الْآنَ مِنْ تِلْكَ النُّظَرَاتِ الْمَقِيَّتَةِ الَّتِي كَانَتْ تَسُدُّهَا
 إِلَيْهِ امْرَأَةٌ أَبِيهِ الْأُولَى ، تِلْكَ الَّتِي رَحَلَتْ إِلَى الْعَالَمِ الْآخِرِ ... نِظَرَاتٍ تَشْبَعُ
 مِنْ عَيْنَيْنِ دَعَاوَيْنِ مَغْرَقَتَيْنِ فِي السَّوَادِ ، نَجْلَاوَيْنِ بِالْغَتَيْنِ فِي السَّعَةِ !
 لَقَدْ وَاجَهَتْهُ اللَّيْلَةُ عَيْنَانِ كَهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ، تَتَوَهَّجَانِ فِي صَدْرِ قَاعَةِ
 الدَّارِ ... فَمَا عِلَّةُ هَذِهِ الْمِشَابَهَةِ بَيْنَ زَوْجَتَيْنِ نَفَضَتْ أَوْلَاهُمَا يَدَهَا مِنَ الدُّنْيَا ،
 وَخَلَفَتْهَا الْآخَرَى تَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ ؟
 هِيَهَاتَ أَنْ يَنْسَى عَيْنِي زَوْجَ أَبِيهِ الرَّاحِلَةَ !
 لَكُنْ كُلَّ عَيْنٍ مِنْهُمَا مَغَارَةٌ عَمِيقَةُ الْمَهْوَى ، حَالِكَةُ الطَّلْمَةِ ، تَعَشُّشُ
 فِي جَوَانِبِهَا الْأَفَاعِي وَالْحَيَاتِ فَمَا تَكَادُ نِظَرَاتُهُ تَلْتَقِي بِنِظَرَاتِهَا حَتَّى كَانَ
 يَسْتَشْعِرُ انْتِفَاضَةَ تَمَلُّكٍ عَلَيْهِ أَقْطَارَ نَفْسِهِ جَمْعَاءَ !
 وَالْيَوْمَ ، مَا كَادَتْ عَيْنُهُ تَقَعُ عَلَى عَيْنِ عُرُوسِ أَبِيهِ ، حَتَّى انْتَفَضَتْ
 أَوْصَالُهُ . . .

أَتَمَّتْ فَارِقَ بَيْنِ انْتِفَاضَةِ الْأَمْسِ ، وَمَا اسْتَشْعَرَهُ الْيَوْمَ ؟
 مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، فَإِنَّهُ السَّاعَةُ وَقَدْ عَرَّتَهُ تِلْكَ الْانْتِفَاضَةُ ، لَا يَجِدُ إِلَى
 قَرَارِ نَفْسِهِ مِنْ سَبِيلٍ .
 لَنْ يَدْعُ قَلْبُهُ نَهْبًا لِهَذَا الْإِهْتِيَاكِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَسَوِّغٌ .

لقد حضر القرية ، لينهى أباه بزواجه ، ثم لا يُعْتَمَّ أن يترك القرية
ليهاود عيشه الآمن الساكن في موطنه الجديد .
وكان يسيراً عليه أن يبلغ من ذلك ما يرُوم ، فأدّى واجب التهئة ،
وأدبر عن القرية راجعاً .

وانصرم بعد ذلك عامان ، وها هو ذا يخطو إلى بلده الأصيل مرة ثانية .
ولكنه في هذه المرة لم يكن قدومه لعُرس بهيج ، بل كان لما تمَّ
مَهْيَب . . . ما جاء لينهى أباه ، بل ليتلقى العزاء فيه !
دخل الشابّ قاعة الدار ، وهي تعجُّ بالنساء معولات يَنْدُبْنَ . . .
دخلها فارغ القامة ، عريض المنكبين ، يَخْبُّ في جلبابه الريفي من
الصفوف الأسود .

وما إن ألقى الشابُّ نظرةً حوله ، حتى أخذت عينُهُ في صدر القاعة زوجَ
أبيه في جسمها الخصبِ الرِّيَّان ، يكسوه رداؤها الأسود السابغ ، وقد
توضح وجهها الأبيض الناصع يشوبه شحوب . . . فخطا إليها يدانها ، فما
إن استبان لها شَبَحَهِ حتى اختلج مُحَيَّاها اختلاجة إجهاش ، فأسرع مقبلاً
عليها يواسيها بمألوف الكلام في مثل هذا المقام .

ولما همَّ بأن ينصرف من القاعة ، رفعت إليه مُحَيَّاها ، فواجهته بهاتين
العينين الدمجاوين النجلاوين ، فأحسَّ من فوره ما أحسَّه من قبلُ في
زورته الأولى للقرية ليلة عُرس أبيه .

لقد سَرَتْ في أوصاله تلك الانتفاضة التي تهزّ نفسه هزّاً ، فابرح
القاعة قاصداً ذلك البَيْدَر المهجور في أَقْصَى القرية ، واقتعد الحجر العريض
العتيق ، وصَوَّب نظراته إلى الأفق ، يرصدُ مواقع النجوم !

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن تباينت المظاهر ، وتناقضت الأوضاع ...
عُرسٌ يُستبدل به مأتمٌ ، وأغاريدٌ يحلُّ محلّها نَدبٌ ونُواحٌ . ولكن أليس
الأمر في جوهره على ما هو عليه ، بمنزلةٍ سواء ؟ !

هذه القرية هي هي ، وتلك الدارُ كما كانت ، وزوجُ أبيه كما رآها في
المرّة السالفة بقوامها الخِصْب الرّيان ، وعينيها النجلاوين الدعجاوين ...
إنه ليحسّ بأن كل شيء قد يدركه التغير ، ويلحقه الفناء ، إلا هاتين
العينين !

ما زالت الانتفاضةُ تنتظمُ جُسمانه ، منذ نظرتُ إليه زوجُ أبيه ...
شعورٌ كمينٌ يبعثُ على أن يفرَّ من وجه هذه المرأة !
أهو يكرهها ، لأنها كانت لأبيه زوجاً ؟
أيةُ إساءة أسلفتها إليه ؟

فيم هذه النقرة التي يصطنعها لها ؟
أليكون مردُّ ذلك إلى أنها امرأة تنطوى على أُلغاز وأسرار ، يتعذر عليه
أن يكتنه دفائنها ؟

لقد ترامى إليه من أخبارها نتف ... وإنها لعجائبُ أخبار !

قبل أن يتزوجها أبوه كانت زوجاً لشيخ البلد ، وكان بحبها متدلّها ،
يُغدّق عليها عطاياها ، حتى أتلّف بين يديها ماله ، وامتدّ زواجهما
عامين ، لم يُرزقاً فيهما بمولود . . . وما إن مات الشيخ عنها حتى شَغَقَتْ
أباه حبّاً ، فتزوجها وظل يُسْرِف في تنعيمها وتكريمها حتى رَكِبَتْهُ الديون ،
وأمضى في صحبتها عامين ، لم يرزق فيهما بمولود ، ثم قضى نَحْبَهُ بِمَرَأَى
منها وَمَسْمَع !

ما سرّ هذا التوافق بين الحالتين ؟

أَمْخَضُ مصادفةٍ هو ؟

أُتْطَوَى هذه المرأة أحناءها على طَلَسَمٍ فيه الفناء والدمار ؟
تلك هي تجتذب بظاهر فتنها قلباً بعد قلب ، وإذا هي تُورِدُ القلوب
موارد المَنُون !

ولكن فيم تفكيره في هذا كله ؟

وهل له من شأن مع تلك المرأة إلا أنها اليوم أَرْمَلَةٌ أبيه ؟
إن هي إلا أيام معدودات تنتهي فيها مراسيمُ التعزية ، ثم يفارق البلد
في غير إبطاء .

ماذا في القرية يستهويه ؟

ماذا في القرية يستبقيه ؟

لو كان لأبيه تَرِكَةٌ عامرة ، لتقاضته أن يمكث من أجلها ، حتى يستوفى

تديرها . ولكن ميراث أبيه تنتهبه الديون ، وحسبه هو أن يأمل
الإفلات من مغارم الدائنين !

إن موطنه الآخر يناديه ، وإن مستقبله فيه . . . هنالك يواصل عمله ،
ويتخذ له ربة بيت ، وينتظر أن يُرزق بالذرية الطيبة ، فيرغد عيشه ،
ويرحى باله ، ويحيا حياة الدعة والنعيم .

ونفض الشاب إلى دار لبعض أقربائه ، مؤثراً أن يأوي إليها خلال
إقامته في القرية ، كما فعل في زيارته الأولى حين قدم ليشهد عرس أبيه .
وتقضت أيام التعزية ، وتدانت ساعة الرحيل .
إنه لتارك القرية غداة غده .

ولكنه ما ينبغي له أن يرحل قبل أن يؤدّع أرملة أبيه وداعه الأخير . . .
هبط القاعة ، وكانت الدار خلواً من الناس ، وقد هدأت نوبات
النحيب ، إلا بعض أصدقاء أحس بها الشاب تتردد في ترائيل وخفوت .
كانت الدار يغشاها ليل بهيم ، لا يقاوم خلكتة إلا مصباح هزيل
تترجج ذبائله ، فتتخايل الظلال على الحوائط والأركان ، كأنها أشباح
تنبعث من عالم مجهول .

لكن هذا المصباح بما يبسط من اللهب ، وبما يثير من الظلال ، لم
يوقد إلا ليعث الخفاة والرهب ، فهو يكسب الدار من الوحشة والكآبة
أضعاف ما يهبها من النور . . . وإنه ليؤلف مع تلك الأصدقاء المتزايلة ،

أصداء العويل والانتحاب ، جَوًّا قائما عابسا يُحِيل هذه الدار كهفًا مُوحِشًا
في مجاهل الأرض ...

ولما دخل الشاب قاعة الدار ، ألقى امرأةً أبيه خاليةً بنفسها ، تجلس
على حصير ، وقد أخذتها غفوة التفكير .

وإذ شعرتُ بمقدّمه ، انتبّهت تحييه ، وما هي إلا أن فرشتُ على
الصُّفَّة سَجَّادة عتيقة ، وأشارتُ إلى الضيف تقول :

تعال اجلس هنا ... في مكان أبيك ... هذه صُفّته ، وتلك سَجَّادته !
فأحجم الشاب لحظة ، فعاجلته قائلة :

ومن أحقُّ منك بأن يُحَلَّ مكانه ؟ كان هذا مجلسه الأثيرَ عنده ،
يقضى فيه الأماسيّ ، يرتشف القهوة ، ويطارحن الحديث ...
ومسحت عينها المُخْضَلَّتَيْن .

ووجد الشاب نفسه جالسا على السَّجَّادة ، يتحسس خَمَلها ، وهو ساهم
شارد النظر ...

وتوارت المرأة فترة ، ثم رجعت تحمل صينية القهوة ، وقرّبتُ إلى الشاب
قدّحه ، وهي تقول :

إنه قدَح أبيك الذي لم يكن يطيب له سواء ... شدّ ما كان يحلّوله أن
يشرب القهوة فيه !

وتناول الشاب القدح ، وطَفِقَ يتأمله ، وأحس بالمرأة تقتعد الحصير عن

كَتَبَ مِنْهُ ، فَهَمَّ أَنْ يَدْعَوْهَا أَنْ تَجْلِسَ عَلَى الصُّفَّةِ ، فَإِذَا هِيَ تَقُولُ ،
مُشِيرَةً يَدَهَا إِلَى الْحَصِيرِ :

ذَلِكَ هُوَ مَكَانِي ... وَهَكَذَا كُنْتُ أَجْلِسُ مِنْ أَيْبِكَ !
وَحَنَّتْ رَأْسَهَا تَحْتَ لَجِّ فِي صَدْرِهَا تَهْنُذَاتٍ ، وَجَعَلَ هُوَ يَتَرَشَّفُ التَّهْوَةَ
فِي مَطَاوِلَةِ وَأَنَاةٍ .

وَأَرَادَ أَنْ يُفَضِّلَ إِلَيْهَا بِإِزْمَاعِهِ السَّفَرَ مِنْ غَدِهِ ، وَلَكِنَهَا سَبَقَتْ بِقَوْلِهَا :
كَانَ أَبُوكَ رَحْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ كَرِيمًا وَاسِعَ الْكَرَمِ ، فَأَسْرَفَ فِي الْإِنْفَاقِ ،
وَحَلَفْنَا بَعْدَهُ لَا نَدْرِي مَاذَا نَصْنَعُ ؟ لَا بَدَّ مِنْ يَدٍ مَدْبُورَةٍ حَازِمَةٍ تَنْقُذُ الدَّارَ
مِمَّا يَوْشِكُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهَا مِنْ خَرَابٍ !

وَسَمَتْ بِعَيْنَيْهَا إِلَيْهِ ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ اشْتَبَكَتِ النَّظَرَاتُ ... وَإِذَا الشَّابُّ
يَهْمُهُمْ :

سَتَدَبَّرُ الْأَمْرَ . . . كُلُّ شَيْءٍ يَنْتَهِي إِلَى خَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
وَاسْتَرَسَلَتِ الْمَرْأَةُ تَصِفُ مِنْ خَاصَّةِ شُؤْنِهَا لِجَلِيسِهَا الشَّابَّ . . . كَيْفَ
كَانَتْ تَتَعَمَّقُ بِالْحَيَاةِ فِي ظِلِّ أَيْبِهِ ؟ مَا مَبْلَغُ خَوْفِهَا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ؟ إِلَى أَىِّ
مَصِيرٍ يَسُوقُهَا الْقَدَرُ الْمُسْتَوْر ؟ ... وَكَانَ بَدِيْهَا أَنْ يَطِيبَ الشَّابُّ خَاطِرَهَا ،
وَأَنْ يُؤَمِّنَهَا مِنَ الْخَوْفِ الْقَرِيبِ أَوْ الْبَعِيدِ ! .

وَانْتَهَتْ الزِّيَارَةُ ، فَخَرَجَ الشَّابُّ تَقْوَدُهُ قَدَمَاهُ إِلَى الْبَيْدَرِ الْمَهْجُورِ ، وَاعْتَلَى ذَلِكَ
الْحَجَرِ الْعَرِيضِ ، مُصْعِدًا بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ الْحَالِكَةِ ، بِتَبَيُّنِ مَسَالِكِ النُّجُومِ ،

فكانت تتراعى له فى كل نجم عين نجلاء دعباء تتحير فيها الدموع !
 لماذا أجلسته المرأة على الضقة التى كان يؤثرها أبوه ؟
 لماذا بسطت له سجادة أبيه الخاصة به ؟
 لماذا قدّمت له القهوة فى قدح أبيه المختار ؟
 إن الشابّ ليعترف فى إخلاص بأن المرأة كانت حفيّةً به ، وأن قلبها
 كان يخفق بالمودة والصفاء !

هذا الحديث الذى ناجته به ، تصف ما هى فيه من حزن وضيق ،
 أليس دليلاً على أنها اتخذت منه موضعاً لنجواها ، ومقرّعا لشكواها ؟
 هذه النظرات التى كانت تُراسله بها بين الفينة والفينة ، تتجلى فيها
 الدمائية والرّفق ، أليست آيةً تُبين عما تنطوى عليه ضلوعها من حدب
 وإشفاق ؟

واعتجبه مما يشعر به الساعة !
 إنه ليحسُّ الظماً أبلغ الظماً إلى عاطفةٍ ترمى به عهداً ، فهو يبحث
 عنها جاهداً فى ألفاف الماضى السحيق ، ذلك الماضى الذى طوته الأيام ،
 ونسجت عليه العناكبُ خيوطَ النسيان !

إنه ليطوّح بذكرته فى أعماق عهده الغابر ، ذلك العهد الذى كان ينعم
 فيه برعاية أمه ، قبل أن تودّع الحياة الدنيا ، راحلةً إلى العالم الآخر . . .
 أمستطيعُ هو أن يتمثل ذلك الحنان الذى تذوّقه فى كنف أمه ؟

إنه ليخترق الآن ما تكاثف من حُجُب الماضي ، فتلوح له أشباح أحلام
غامضة تائهة ، فيذكر كيف كانت عيناه الدقيقتان ترنّوان إلى وجهه طلق
بسّام ، وكيف كان يحسّ ذراعين مبسوطتين تلتفان حوله ، فتضانه في
ترفق ولطف .

ولبثَ الفتى حيناً تشرّدُ به الذكريات إلى ذلك العهد القصي ، وكأنّه
في زورق ينساب على صفحة الماء ، والهواء رخاء ...
وبغته شعر بالجو يكفهر ، وبالإعصار يهبّ جارفا يثير الموج ، فإذا
بالزورق ينقلب به ، وإذا هو يتخبّط في ملتطم العُباب .

وبينا هو يتقاذفه التيار ، طالعه وجه ذو عينين سوداوين مغرقين في
السواد ، واسعتين بالغتين في السعة ، تشعّ نظراتهما فتبعث الواحشة
والفزع ... وما أسرع أن استبانته فيهما عينا زوج أبيه الأولى ، فندّت
منه صيحة مختنقة ، وألقى نفسه يغطّي وجهه بكفيه ، يحاول أن يحجب
عن عينيه تلك النظرات ...

ما بال هذه الذكريات الشاردة تساوره الليلة ؟
وما بال هذه الإحساسات الغريبة تراوده في غير هوادة ؟
ويجّه من تلك الذكريات المتناقضة ، يختلط فيها الصفاء بالكدر ،
وتشتبك فيها الرهبة بالإيناس ، ويتلاقى فيها حنان الأمومة ورهبة
زوجة الأب ؟ !

أقد كان منذ قليل في حجة زوج أبيه الأخرى ، تلك التي لم يَلْقَ على
يدها شراً قط ، بل تلك التي أنسَ معها بجلسة هدوء وصفاء . ولكنه
يحسُّ في وليجة نفسه بأن هذه المرأة على الرغم من ذلك كله أشبه ما تكون
بطلَّسَمٍ مستغلق ، تتنازع فيه الطمأنينة والقلق ، ويتقاتل فيه الموت والحياة !
أنَّراهُ يعجز عن مجابهة ذلك الطَّلَسَم ، والوقوف منه موقف الصامد
الجسور؟ أنراهُ يظل أبداً ، كما كان في عهده الأول ، ذلك الطفل المضطَّهد ،
ذلك الصبي المعضَّب ، حين كان يستنيم للضميم ، ويصبر على الأذى ، لا يدَّ له
بمكافحة ودفاع ؟

لا فرارَ اليوم من وجه المغامرات ، ولا خوف من مجالدة الصعاب ،
فإنه اليوم غيره بالأمس ، ملء إهابه الفتوة وصدق العزم ، وملء نفسه
الثقة بالنفس .

ونهض الفتى على الهامة ، بارزَ الصدر ، يستنشى نَفَحات النسيم ،
وهو يضرب بقدمه أديم الأرض ، ويشق طريقه في غمرات الظلام ...
وجرت الأيام في عَنَانِها ، وألغى الفتى نفسه يتشمَّر مهتماً بشئون زوج
أبيه ، حتى استطاع أن يؤمِّنَ حياتها فيما يستقبلها من أحداث الزمان .
وطمأنَّت نفسه بأنه قد أدَّى الواجب على خير ما يرام ... وماله
لا يرى ذلك واجباً عليه ؟ وهل هذه المرأة إلا أرملة مَهِيضة الجناح ،
ضعيقة الجانب ، رمت بها الأقدار هذا المَرَمَى ؟

أليس لزاماً عليه أن يأخذ بيدها ، رفقا بها ، ورعاية لحرمة أبيه ؟
 أمّا الآنَ وقد أنجز مهمته ، فما عليه إلا أن يبيتَ على رحيل ... وإن
 مواعده الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟

ولكن عليه ألا يُغفلَ زيارة المرأة ساعة أو بعضَ ساعة ، قبل أن يفارق
 القرية ، فليمضِ إليها من فوره يلقي عليها تحية التوديع .
 وكان الوقت عشاءً حين أقبل على القاعة ، وهى فى سكونة وهدوء ،
 لا يحسّ فيها ما كان يحسّ قبلاً من أصداء الندب والعويل ، تتردد فى
 تزايل وخفوت .

واسترعى نظره مصباح جديد صافى اللهب ، رأى فى ضوءه أثاث القاعة
 على شئ من التنسيق .

وبدت له زوجُ أبيه ، طلبة الحيّا ، وادعة الأسارى ، يستبين وجهها
 فى إطار من خمار أسود قشيب . وكانت على الرغم من رداء الحداد مهدّمة
 الزيّ . فلما تبادلّا مألوف التحية ، ألقت الفتى قدميه تسوقانه إلى الصّفّة
 ذات السجّادة ، فأخذ فيها مجلسه ، وبعد قليل قدّمت المرأة له القهوة فى
 قدح أبيه المختار ، فتناوله فى زهو واعتزاز ، وكان وهو يتشرّف ما فى القدح
 يجد له أطيب المذاق .

وقعدت المرأة على الحصير ، قريبةً من الفتى ، وشرعت تطارّحه
 أطراف الأحاديث ، فانطلق الفتى يصف لها ما صنع من أجلها ، وما دبّر

لستقبلها ، وراح يؤكد لها أنها لن تصادف في حياتها ما تخشاه ، فعقبت
المرأة تقول :

إني مطمئنة إليك ، وما دمت أنا في رعايتك فلا يصيبني مكروه ...
كان أبوك بي شقيقاً ، وأنت سرّ أبيك !
ثم حدّقت فيه قائلة :

عجيبٌ هذا التشابهُ بينك وبينه : هامتُك ، قامتُك ، عمامتُك ...
سأصاركُ بما يدهشك . إنك إذ قدّمتَ ليلةَ المأتمِّ علىّ ، ووقع بصري
عليك ، راعني أمرُك ، فقد خُيلَ إليّ أن أباك قد بُعثَ من مرقدِه حيّاً ،
وأنه قد نفّض عنه أكفانه ، وحضرَ يشهد مأتمّه .

فبههم الفتى يقول :

أ كذلكِ ترينِني مُشبّهاً أبي ؟
فأجابته :

كل الشبه ... لكأنه أنت ... حتى في مشيتك ، حتى في شارتك ،
حتى في إشارتك !

ثم نهضت وهي تقول :

انتظرني لحظات ...

وما هي إلا أن رجعت إليه تحمل مُطَرَفاً مُوشّى بين يديها ،
وقبل أن يدرك مرادها ، ألقت بالمُطَرَفِ على كتفه ، وهي تسوّي

حواشيّه على صدره ، وتقول :

هكذا كان أبوك يتلفّع بِمُطَرَفِه هذا .

ثم جعلت ترنو إليه ، وهى تردد :

يا لله ! ... كأن أباك الشيخ أمامى الآن ... ولكن شيئاً واحداً يُعَوِّزُكَ !

— أىّ شىء هو ؟

— لحيته ... فلقد كان ذا لِحْيَةٍ مشدّبة يُغْنَى بها أشدّ عناية .

فابتسم الشاب يقول :

اللى جميلة لمن يرغب فيها .

— إنها زينة الرجال ، تُسبِّغ عليهم البهاء والرّواء ، وتكسوهم

المهابة والجلال .

وأحسّ الشاب بيده تتعالى إلى ذقنه يتحسّسه ، مهمهما :

مهما يكن من أمر ، فينبى وبين أبى فرق !

— أىّ فرق تقصد ؟

— السنّ ... لقد كان أبى شيخاً !

— أما أنت فشابّ ... لقد جمعتَ بين فتوّة الشباب وحُسنِكة

الشيوخ ... إن الناس جميعاً يتحدثون بما لك من عقل وحكمة ، ويتناقلون

عناك أطيب الأخبار !

— ماذا يتناقلون عنى ؟

— لقد بنيت لنفسك في قريتك التي رحلت إليها مكانةً جعلت اسمك
يدور في المجالس .

— ما كان ذلك ليتاح لي ، لولا عونُ الله !
— طالما ذكرتُ أبوك ، وشد ما آسفهُ رحيلك ، وكانت أمنيته أن
تعود إليه لتعينه على أمره في شيخوخته .

فأطرق الشاب هنيهةً ، ثم قال :
لم يكن يسيراً على أن أعود إليه ... لقد كان بيته جحماً تنلظي !
فلما سمعت المرأة هذه الجملة ، أخذت أناملها تعبت بأطراف رداها ،
وهي تقول :

أما زلتَ ترى البيت كما كان جحماً ؟
وهنا وجد الفتى نفسه ينهض ، وقد أنهى إلى أرملة أبيه إزماعه الرحيل ،
وأعرب لها عن أطيّب تمنياته .

وتوافقاً لحظة صامتتين ، وأعينهما مشتبتكات ...
وألقي عليها الفتى تحية الوداع ، وانطلق يطلب الطريق .
وما أسرع أن اتخذ سبيله إلى البيدر المهجور ، تؤنسه سماء صاحبة ،
ويرفرف من حوله نسيم دافئ مُشبع بأريج الزروع ، وبين يديه فيض من
نور القمر الفتي .

وجاز الفتى في طريقه بغدير رقراق ، فمكث أمامه غير قليل ، ثم مال

عليه يتوسَّم وجهه في مرآة الماء ، ووجد يده تمرَّ على ذقنه ... وما عَظَّمَ أن
 نَدَّتْ منه ضحكة خفيفة أشرق لها سياه ... لقد تراءى له وجهه ، وقد اكتسى
 لحية مهيبة مهندمة كالحية أبيه الراحل ، وما كادت تلوح له صورة أبيه حتى
 تداعت المعاني في خاطره ، فسرعان ما تزايلت تلك الضحكة ، لتُفْسَحَ
 مكانها لمَسْحَةٍ من الجهامة والاكتئاب يبعثها تفكير عميق .

وفَصَلَ عن الغدير، ماضياً إلى البيدر المبحور ، يقتعد الحجر العريض ،
 ويراجع ما دار في ليلته من حديث أرملة أبيه .

وَأَنْبَهَتْهُ من تفكيره هَبَّة من النسيم الدافئ داعبت كتفه ، وإذا هو
 يتبين مُطَرَفَ أبيه الذي منَحَتْهُ المرأة إياه !

ودارت مواكبُ الذكريات أمام عينيه ، فألقى نفسه يرجع القهقري
 إلى عهود الصبا ، وبدا له طيف أبيه وهو على الصُّفَّة ذات السَّجَّادة جالس
 يرتشف القهوة من ذلك القدح الأثير ، وقد تهَدَّل على كتفيه هذا المُطَرَفُ
 المَوْشَى . فأما هو فكان في ذلك الحين يقف بِمَنْأَى من أبيه وقفة المَدَّلة
 والصَّغار ، وعلى الحصير بجانب الصُّفَّة تجلس امرأة أبيه الأولى ، كأنها
 أفعى تنفث من نظراتها إليه سُماً زُعافاً ، ولا تدع فرصة إلا تَجَنَّتْ عليه ،
 وكادت له ، فأثارت عليه أباه ، وأوغرت صدره ، ونَصَبَتْهُ هدفاً لألوان
 من الإيذاء !

ما أعجَبَ هذه المقادير !

أكان يخطر بباله أن يوماً يُمسي به ، وهو مقتعدٌ مجلساً أبيه ، يشرب
القهوة في قدحه ، ويتلفع بمطرّفه ، وعن كُثْبٍ منه ذلك الحَصِيرُ تجلس
عليه زوج أبيه في تَلَطُّفٍ وملاينة واستسلام ؟

حقاً ليست هذه زوج أبيه الأولى ، تلك التي أذاقته مرارة المهانة والإِزْراء ،
ولكنها على أية حال زوج لأبيه ، مكانها منه مكانُ تلك الزوجة الراحلة !
على رغمٍ منه يجد في طوايا صدره ثورة جامحة تبتغى التَّشْفِيَّ والانتقام ...
ولكن ممن ينتقم ويتشقى ؟

إن أرملة أبيه هذه تتألفه ، وتتودّدُ إليه ، وتحوّلُه بأقصى ما تملك من
أسباب التكريم والإِعْزاز ...

بيد أنه لا يدري : أيكون ذلك منها رياءً ومخادعة ؟

أيكون وراء هذا البريق الخلاب تبيت لمكيدة وعدوان ؟

أينسى أنها مهما يكن من أمر ، فهي « زوجة أب » ؟

أو ينسى أنها عنوان سُوءٍ ، ونذير شر وأذى ؟

ألم تقض على رجلين اثنين ، سلبتهما المال والروح ؟

حيرة بالغة تكتنفه !

كيف تسوّل له نفسه أن يظن الظنون بهذه المرأة التي تبسط له رحابها

أنسا ومصافاة ، ويجد في مجلسها من المتعة والنعيم ما لا عهد له به من قبل ؟

ونهب ضائعاً بنفسه ، تصطرع بين جوانحه شتى النزعات .

ودفع بخطاه إلى الغدير ، يَنْصَحُ وجهه بالماء .
 ... وكان أن رحل الفتى إلى القرية البعيدة التي اتخذها له وطناً آخر ،
 إلا أنه لم يمض عليه فيها شهران ، حتى استقبلته قرية أبيه عائداً .
 وسرعان ما طرق الدار ، متجهاً إلى القاعة ، ويُدّ الخطو ، يطلق سَعْلَةً
 يحاكى بها سَعْلَةُ أبيه المألوفة .

وما هي إلا لحظات ، حتى هُرِعَتْ إلى القاعة أرملة أبيه ، فما إن واجهته
 حتى انبعثت صارخة ، وهَمَّتْ أن تتراجع ، فأوشكت أن تنهوى ، فعَجَلَ
 إليها يأخذها بين يديه ، واتجه بها إلى الصَّفَّةِ يَذْهَبُ عنها الرُّوْعُ ،
 وهو يقول :

ماذا بك ؟

ورفعت المرأة عينها إليه ، وقد عاودها بعض الطمأنينة ، فهمت تقول :
 حَسِبْتُكَ الشيخَ نفسه ... أنت الآن هو لا ريب . . هذه اللحية التي
 كستَ عارضَنيك لم تدعُ بينك وبين أبيك مِنْ فارق .
 وأقبلت عليه تتوسَّمه ، كأنها تستوثق وتتثبت ، خشية أن يكون ما عاود
 حياها طيفاً من عالم الرؤى والأحلام !
 وواصلت قولها في احتياج :

إني لأشتمُّ منك رائحته ... رائحته عينيها ... رائحة السَّعوط الذي كان
 ينتشقه .

— لقد هفت إلى هذا السَّعُوطِ نفسى ، إذ وجدتُ فيه وقايةً من البرد ،
وعصمةً من المرض .

— كذلك كان يقول أبوك .

وما أسرع أن أُعِدَّتِ القهوةُ ، وما أسرع أن وجد الفتى نفسه يحتسيها
في قدح أبيه الأثير .

وتربعت المرأة على الحصير ، قريبةً من الفتى ، ترقب حركاته في
تطلع ملحوظ .

وشرع الفتى يجلو للمرأة سرَّ عودته ، إذ علم بنزاع قام بين إحدى
قريباته وزوجها ، فجاء يحسم هذا النزاع ، ويعالج إصلاح ذات البين .
فقالت المرأة رنانة الصوت :

أنت رجل لا تقصّر في واجبك . ولقد صرت للأسرة عميداً... أبقاك
الله وحماك !

فعمّق على قولها ، عطوفَ اللهجة :

وكيف حالك أنتِ ؟

فأمسكت المرأة عن الجواب ، بضع لحظات ، وهى ناكسة الرأس ، ثم
قالت فى نبرات حزينة :

الحمد لله على كل حال .

— أئمةٌ جديد ؟

فتهدج صوتها قائلة :

لا جديد .

— كأني بك تخفين عني أمرك .

— ليس من شيء أخفيه .

وتخاذلت لهجتها ، وإذا هي تنفض نفسها في نسيج محترم ، ووجهها بين يديها تحجبه .

فأنحدر الفتى إليها ، يأخذ بجوارها مكانه ، وهو يربّت كنفها ويقول :

صارحيني ... ماذا جرى ؟

فاندفعت في نسيجها تقول :

لا شيء ... لا شيء !

فصاح بها قائلاً :

قسماً لأعلمن الخبر !

وبعد لأي قالت المرأة ، وهي تغض من بصرها :

سيبيعون الدارَ بعد أيام ... دارنا هذه ... دار أهلك ... تلك التي

كانت أعزّ شيء عليه في الوجود !

— كيف ؟

— لقد وقع عليها الحبز ، وفاءً لدين قديم .

— لماذا لم تخبريني ؟

كيف أبيعُ نفسي أن أزعجك بشأني ، وقد تركتني عائداً إلى
 قريتك الجديدة ؟

— لم يكن بُدٌّ من عودتي إليها ... ولكني لا أهمل أمرك أبداً ...
 لن نُفَلِّتَ من أيدينا دارُ أبي !

فَرَنَتْ إليه ، ورنا إليها ، ووصلت بينهما تلك النظرة العميقة الجياشة ،
 وإذا المرأة تُهَوِّى عليه ، فتشبع يده تقيلاً ، وهي تقول :
 ما دام لي قلبك الكبير ، فلن يمسنى سوء .

وتلاقتْ نظراتهما ثانية .

وما هي إلا أن أحسَّ الفتى بأن المرأة تقبَّل جبينه قبلة تتقد من عطف
 وحنان . وإذا هو يطوقها بذراعيه ، فتتقاد له ، مخفيةً وجهها في صدره ،
 وهي تتشبَّث به !

ومنذ هذه الليلة استقرَّ الفتى في دار أبيه ، مع تلك المرأة ، يقاسمها
 العيش .

وكان لا يبرح الدار في يومه إلا لِمَا مَآ ، حين تلجئه مطالب الحياة .
 على أنه كان في بعض الأماسي يرتقب ساعة من هَزِيع الليل ، فيخرج
 وقد أوى الناس إلى مساكنهم ، متسللاً إلى ذلك البَيْدَر المهجور ، يقضى
 فيه طويلاً من الوقت ، وهو جالس على الحجر العريض ، يرقب السماء ،
 شاردةً اللب ، موزَّع الخاطر ...

وكثيراً ما أخذته انتفاضة زلزلت كيانه في مجلسه ، فجعل يدق صدره
بيده ، يغالب ما احتبس فيه من نزعات ومشاعر .

إنه ليحس بأن في طوايا نفسه بُرُكناً يتضرم ، ويوشك أن يقذف
بالحُمَم ، وعبثاً يحاول أن يسد فوهته ، أو يخمد جذوته !

وإنه ليفزع إلى الغدير ، ناظراً في صفحته تحت ضوء الكواكب ،
فيتجلى له وجهه أمامه ، تكسوه تلك اللحية المهندمة ، فيلمس أطرافها بأنامله ،
ثم لا يلبث أن تعاجله ثورة عارمة ، فكأنه يريد أن يقتلع تلك اللحية من
جذورها ، لا يبقى منها ولا يذر .

لقد اتخذ اليوم لنفسه حياةً طابعها عزلة الناس ، فهو يتجنب مرآهم
ما وسعه أن يتجنب ، حتى ليحاول وهو يسلك طريقه أن يتنكب عن
مواجهة أقرب ذويه ، وقد علت سحنته صلابة وجهامة ، حلت محل
ما كان قبلاً من وداعة وتطلق . فأما عيناه فكانتا ترميان بنظرات تنلظى
فيهما الشهوة والشر ، بعد أن كانت هاتان العينان تترسل منهما نظرات
الطهر والصفاء !

إلى أي طريق في حياته هو مسوق ؟

تُرى أية نهاية ترتقبه لتختم حياته تلك ؟

أصائرٌ هو في صحبة هذه المرأة حيث صار زوجها الراحلان ؟

أستطيعه أن تقضى عليه قضاءها عليهما من قبل ؟

من تكون هذه المرأة ؟

إنها زوج أبيه ، في مقام أمه !

يا سوء هذه العلاقة التي تربط بينه وبينها اليوم !

حتى متى تبقى هذه العلاقة الشنعاء ؟

أولئك هم الناس يتهمسون به ، ويجري ذكره في حديثهم مشوباً

بالأقويل !

ألا يملك إخماد هذه العاطفة الهوجاء التي شبت بين جوانحه لتلك

المرأة ؟

عَجَباً لهذه العاطفة التي تلتقي فيها المتناقضات !

لا سبيل إلى إنكار أنه يهواها ، بل إنه لا يُطيق عنها بعداً ... فما باله

على الرغم من ذلك كله ، تشور به الرغبة في أن يعصف بها ويقضى عليها ؟

وانتهى الأمر بالشاب إلى أن يلزم الدار ، حيساً لا يفارقها في ليل

أو نهار ..

وانتخذت هذه الدار صبغة مرهوبة في القرية ، فرانت عليها كآبة ووحشة

كأنها قبر أخطأ مكانه ، فاستقرَّ بين دُور الأحياء !

وكان الناس يجوزون بتلك الدار ، فينظرون إليها على أنها خربة من

الخربات ، تعمُرُها أرواح الشياطين !

وفي أُمسيةٍ من الأمسي الساجية ، تَفَزَّع أهل القرية ، فتدققوا من

أعماق الدُّور ، إذ رأوا ألسنة النار تتعالى من تلك الدار المشئومة ، فتحيط
بها من كل جانب .

وأقبل جمع من رجال القرية ، يحاولون اقتحام الدار ، وتخليص من فيها
من السكان ، فهاهم أنهم لم يسمعوا نامة استغاثة ، ولا حركة فرار . وألقوا
الباب محكم الرِّتاج ، فانطلقوا يقرعون ، فانبعث من جوف الدار صوت
ثائر ، كأنه هذيان محوم ، وهو يردد :

لا تقربوا الباب ... دعوا الدار تأكلها النار ! ...

وجعلت جحافل اللهب تزفر وتجيش ، والناس يتراجعون من خشية
ورهب ، كأنهم يهربون من نار الجحيم !

مجننون

أجننون أنا لا عقل لى ولا ائزان ؟
أم أن عقلى موفور لم أفقده ، وأن ما أعانيه ليس إلا أثراً لتهافتِ
الأعصاب من فرط الكدّ والجهد ؟
فبقى مستطاعى أن أبلغ فى هذا التساؤل فصل الخطاب ، وما يسوغ لى
وأنا طبيب مكين ، سبّرتُ أغوار العلل ، واكتنّيت أسرار الأدوية ، أن
أقف حيال نفسى قلقاً حيران ، لا أقطع برأى ، ولا أستنيم لحكم ...
ولكن فىم جزعى ، وليست حالى إلا صورةً من طابع الحياة التى
نحياها ؟

إنها حياة تضطرب فيها الخواطر ، وتصطرع الآراء ، فلا ترى الأحكام
إلا أطيافاً وأخيلة ، ولا تكاد تظمنّ فيها إلى حقيقة واحدة .
على أن اضطراب الحياة واضطراعتها أمر لا غرابة فيه ولا شذوذ .
من أين للمجتمع أن يقرر تلك « الحقيقة الواحدة » المزعومة الموهومة ؟

ما كانت الحقيقة شيئاً مجرداً قائماً بذاته يهبط علينا مهبط الغيث .

هى من صوغ أيدينا ، وصنع أنفسنا .

كلُّ منا يصوغ حقيقته ، تهديه عوامل شتى من بيئة وتجربة واستعداد
جسمانى وعقلى ، موهوب أو مكسوب .

كلُّ منا يصنع مبدأه وفق ما تاح له من حظوظ وملابسات ، وما رُكِّب
فيه من مزاج .

حتى هذه الحقيقة الخاصة بكل فرد ، ليست هى « الحقيقة الواحدة » له
على اختلاف عهوده وأحواله .

شأن أمسٍ غيرُ شأنِ اليوم ، وإنْ لغدٍ شأنًا غيرَ ما كان وما هو كائن !
بل إن اللحظة تلو اللحظة لقمينة أن تستقبل طارئاً من الأمر تتغير
به الحقيقة من وجه إلى وجه ، فإذا الذى أصبح صدقاً أمسى من الكذب
الصُّراح ، وإذا الذى كان مطوياً فى جُرح الليل صار واضحاً كضوء الصبح
المُسفر .

مهما يكن من أمر ، فقصارى ما أستطيع الحكم فيه — حين أُخبرَ هذه
الأسطر — أنى رجل مريض . . .

منذ أشهر ، وأنا أسيرُ العقاقير .

ألستُ بلا ريبٍ فى عدادِ المرضى ؟

الواقع أن هذه العقاقير لا تزيد على أن تكون سُكولا من المنومات

والمخدرات ، أحاول بها أن أهرب من ألم الشعور بالأوجاع والآلام .
 هذه الأوقات التي يسيطر فيها المخدر على أعصابي هي وحدها فترات
 راحتي وسكيني . وطالما فزعتُ إليه حين يشتدّ كربى ، وأعيا بأمرى ،
 ولكنى أشعر على الرغم من كل شيء بمقت وزرابة لذلك المخدر الذى يخدعنى
 عن نفسى ، ويسرلى الفرار إلى طمأنينة مكذوبة ، وراحة زائفة ...
 إنى لأؤثر العذاب فى يقظتى ووعى ، على أن أكون ألوبة تعبثُ بها
 الأوهام والأخاديع .

عذاب اليقظة والوعى أستطيع أن أدرك شأنى ، فأفكر وأقدر ، وأخص
 وأحس ، لا يفوتني مما أنا فيه قليل ولا كثير ، ومن ثمّ ألتمس السبيل إلى
 مخاض أطمئن به ، وقرار أسكن إليه .

عذاب اليقظة والوعى أشعر بأنى كائن حى ، توافرت له عناصر
 الحيوية من شعور وإحساس ، فأما تحت سلطان هذا المخدر فأنا جثة
 هامدة ، لا يُعوزها إلا الكفن ، لتكون كفنًا لغيبابة الرّمس !
 إن طلبت السبب ، فيما أعانيه ، عرفت أنه امرأة . . .

أفى ذلك تترىب ؟ أم منه تتعجب ؟

امرأة هى السبب كل السبب !

شخص آدمى تافه كهذه الألوف المؤلفة من الخلائق التى تزدحم بها
 الأرض ازدحام الشقوق بمجافل النمل .

ولكن أتافهتُ هذه المرأة حقاً ، وقد صيرتني إلى هذه الحال التي
أكابدها بين مَضِّ الآلام ووطأة القيود ؟
قد تكون امرأة غامضة معقّدة ، تَزَخَّر بقوى عارمة .
وقد تكون ضَحْلَة لا استعصاء فيها ولا غُمق ، ولكنها تصبر راتى
وأخيلتى هي التي حاكّت حولها تلك الأنفاس من ذلك التعقد
والغموض .

أأكون قاسياً عليها ، عنيفاً بها ، مسرفاً في الظلم والتجني ؟
يا طالما رثيتُ لها ، يا طالما أنحيتُ باللائمة على نفسى من أجلها
أما اليوم ، فما أشوقنى إلى أن أعتقد بأنى كنت لها ظالماً ظلماً بيننا
لا ريب فيه .

ما أحبّ إلى أن يكون ذلك !
إذن لتخلتْ عنى آلامى ، ولأزاحتْ عن نفسى عُقَّتى .
حقاً هي التي أسلمتني إلى ذلك السجن الخانق الذي أفتى فيه .
ولكن أليس لها أن تقول إنى أنا الذي حرمتها متعتها في الحياة ؟
كلانا علةُ عذاب الآخر ، ومصدر بلائه !
وكل ذلك من جرّاء ما يسمونه « الحب » ... ذلك الطائش الأخرق
الذي يخبط خبط العشواء ، ويَصُبُّ الغارة الشعواء !
كلانا يفنى وجداً بصاحبه ، وكلانا يذوب جهداً في التكيل به .

أما حبي إياها فحق لا يشوبه خلاف .
 وأما حبها إياي فإنه على مثل ذلك يقيناً وقوة .
 أشهى ما تشبیهه نفسى أن تلتحم شفاهنا فى قبلة متضرمة ، تحتنق بها
 أنفاسنا معاً . . . قبلة نشفُ بها زبدۃ النعيم ، فتسلمنا إلى راحة الأبد .
 أجل ، قبلة الموت ... هى غاية ما أصبو إليه . . . وأكبر اعتقادی أن
 صاحبتي تشركنى فى هذه الأمنية الغالية !

قبلة الموت ...

أمنطقُ عاقل هذا ؟ أم هذيان مأفون ؟
 إليك قصتى ... ولك مقطعُ الرأى ، وفصلُ الخطاب .
 كنتُ طبيباً نابهاً فى مهنتى ، تَدَّ على أفواج المرضى ، مختلفة الطبقات
 والأنواع ، من رجال ونساء .

وكانت النساءُ ضروباً وأفانين ، بينهن الملاح اللواتى يَتَضَوَّنَ وسامة
 وَيَتَضَوَّغْنَ فتنة ، ولكن عيني لم تعلق بإحداهن يوماً ، وقلبي لم يخفق
 لواحدة منهن لحظة .

ومن بين هؤلاء من بثَّنى لى شباك الحب ، بَيَدَ أنى رددتُ هذه
 الشباك فى غير عناء ، ولم تظفر منى إلا بنظرة إشفاق .

وليلةً دُعيت إلى عيادة مريض ذَرَفَ على الستين ، قيّد الشلل أوصاله .
 فى تلك الليلة وُلِدَتِ المأساة !

لهذا المريض زوج ما إن رأيته حتى بدت لي كأنها الصورة الجامعة
لنفتن الجمال ، الصورة التي كنت أشدّها دون وعي وقصد في مخيلاتي وفي
وليجة نفسي ، الصورة التي تؤلف عندي المثل الكامل لجاذبية الأشياء .
أستطيع أن أوكد — دون تهيّب — أن هذه الإنسانية وحدها الخليقة
بالحبّ دون سائر النساء ، بل إن الحبّ نفسه ما كان إلّا لها ، وبها خلق
إلا من أجلها .

لا تنتظر مني أن أواتيك من وصفها بما يصور لك فتنها ، وما يقوم
برهانا على صدق تقديرى لها .

فإن ألححت في أن أصفها لك ، فلست بقادر على أن أنيلك
بُغيّتك إلا بشيء واحد ، هو أن تشقّ صدرى ، وتفرّق بين ضلوعي ،
فتنتزع من مكانه قلبي ، لتبين فيه من فورك صورة من أحببت
مائلةً كاملة .

آنست من صاحبتى رُوحَ استجابة لعاطفتي . . . فكثيراً ما أخذت
بيدى ، بعد عيادة زوجها المريض ، إلى حجرة مجاورة ، تطارحنى الحديث
في تल्प ، وتناقلني النظرات في عذوبة وصفاء .

لا أدري على وجه الدقة : كيف توضّح بيننا هذا الحب ، واستبانة
لكل منا لواعيه ؟

ثمّة مقدمات . . . ليس من ذلك بدّ !

وَتَمَّةٌ تَطَوُّرات . . . ليس في ذلك ريب !
 هنالك نقطة بدء ، وهناك سلسلة مشاهد . . . هذا كله لا مَعْدَى
 عنه ، ولا نزاع فيه !
 إن أَلْحَدَاتِ الحُبِّ بين العشاق في ترتيب فصولها ، وتساوُقِ مشاهداتها ،
 والخلوص إلى النتائج من المقدمات ، شأنها شأنُ الروايات والمسرحيات
 سواء بسواء .

هذا قول منطقيّ أصيل ، وهذا ما كان في مأساتي . . .
 ولكنني أقف عاجزاً عن أن أكون راوية لقصة حي .
 الروائيُّ الفطن هو الذي في مقدوره أن يصوغ هذه القصة في أسلوبها
 الطبيعيّ وجبكتها الفنية ، مسبوكة الأطراف ، مُسَلِّمة الأوصال .
 ذلك شأنُ الروائيّ الناجح ، فأما أنا فَمِنْ أين لي أن أكونه ؟
 أحبُّ ناجح أنا حتى أتطاولَ إلى هذا المقام ؟
 أبقيتُ لي بقية من فطنة وتدبر ، حتى أصوغ قصتي موفورة الخط من
 التساوُق والتناسق ؟

ألم أقلُ إني مجنون ؟ أو على الأقل مغلوب على أعصابه ؟
 أينما كان أسبقَ بالحب لصاحبه ؟
 أحببتها أنا بادئاً ، فشعرت هي ، فاستجابت ؟
 أم أحببتني ، كحبي لها ، فتلاقينا على هوى ؟

وأى شأن لهذا البحث والتمييز؟

الجدير بالذكر في هذا الصدد أنى لم تكذّر زوراقى لذلك البيت تتعاقب ،
حتى كنت أنا وصاحبى فى حبائل غرام عنيف . . .

أيسوغ لى أن أعترف بأن هذا الحب كان وصمةً آثمةً فى جبين المهنة
التي شَرَفَتْنِي بالانتساب إليها ؟
ليكن الأمر كما يكون .

فهما يختلف الرأى والتقدير ، فإن هذا لا يغير شيئاً من « الحقيقة
الواقعة » .

تَسْبِغُ فى المجتمع ألفاظ يتشدّق بها الناس ، ويحطّونها بهالات من
الإكبار والتقدّيس .

وإن المجتمع ليتخذ فى هذا الصدد لبؤس طاغية حاكم بأمره ، يشرّع
الحلال والحرام وفق هواه .

فليفعل المجتمع ما يشاء ، وليقرر ما يريد ، وليكن مثله كمثل الأقطاب
الدينيين فى العصور الوسطى ، هؤلاء الذين ادّعوا لأنفسهم القدرة على
الإباحة والخطر ، والمنح والحرمان . هؤلاء الذين حَسَبُوا أنفسهم قُوَّاماً على
أبواب الجنّة ، يبيعونها لمن يهْوُونَ بالشَّبَرِ والذَّرَاعِ !

هل أفلح أولئك الحاكمون المسيطرون فى أن يغيروا مَجْرَى الحياة ،
ويُحيلوا طبائع الناس ؟

إن الدنيا لتسير وتمضي في سيرها ، لا تعباً بشيء ، ولا يتعاصى
عليها شيء !

إن كان ثمة من حاكم يأمر فيطاع ، وينهى فيردع ، فما ذلك
إلا القدر... ذلك هو المسيطر الغلاب ، تعنو له الجباه ، وتخضع له الجبابر !

لماذا أحسبُ جانياً فيما كان مني ؟

ألسنُ مسيراً مُجبراً ، تزجني يدُ القدر ؟

ومن ذا الذي يردُّ القدر المُتاح ؟

ربما كنتُ في أعين الناس موصوفاً بالندالة والخسّة ، على حين أني
أراني لم أتعذّ حداً ، ولم أستجب إلا لنوازعٍ طبيعيةٍ لا طغيانَ فيها
ولاشذوذ ، نوازع الاستمتاع بما وهبني إياه الحياة من قوَى وحرّيات .

يخيّلُ إليّ أني أسمع همسات سخرية وازدراء ، وهمهمات تعجب
وإشفاق ، وكأني أثبتن فيما أسمع قول قائل :

وَيْحَهُ مِنْ مَجْهُول !

إن المجهول ليتابع حديثه غير لاولٍ على لَوَم ، فيفيضُ في هذيانه
ما وسعه أن يفيض . . .

كانت ساعاتُ الصفاء التي أختلسها مع صاحبتى ، نقضيها دائماً في
الحجرة المجاورة لحجرة الزوج العليل .

كنا نجلس تغشانا رُوحٌ غريبة من الحذر : قلب واجف ، نظرة قلقة ،

سمع مرهف لأقل نبأ ؛ على حين تتشابك أيدينا ، وتتواصل أعيننا ،
وتتراسل شفاهنا حيناً بالحديث همساً ، وحيناً باللَّهم حَظفاً .

وكانت صاحبتى هى التى تُوحى بأن تكون اللقمة على هذه الحال ، بل
إنها لتُصرُّ على أن تكون عن كَثَب من زوجها ، لا تفصلهما إلا خطوات ،
مع أن الدار كثيرة الحجرات ، تتوافر فيها الخلوات التى لا تبعث قلقاً
ولا تثير ريباً .

ولشدَّما ضِقتُ ذرعاً باللقاء على هذا النحو . . .

فيم هذا الحِجْر على العاطفة ، والإجراج للنفس ؟
لِمَ تتلاقى ، على رأسينا سيفٌ مُصَلَّت ، ينهانا أن نتحرك إلا بمقدار ،
وأن ننس إلا بحساب ؟

أرأيتَ إلى أناس تُظِلُّهم حربُ شِعاء ، ولا يطيَّبُ لهم أن يقيموا
ولائمهم إلا فى العراء ، والطائراتُ من فوق رءوسهم محلقةٌ منذرةٌ بالشر ،
فهم يتناولون طعامهم على ترقبٍ وتخوُّف ، وكان فى مكنتهم أن يهزَعوا إلى
المخابئ الكَمِينَةِ ، والمعازل الحصينة ، يستمرئون فيها طعامهم آمنين ؟

ذلك مَثَلُنَا نحن فى ولائنا الغرامية التى تحلُّق فى سماءها الخفيفةُ
والتوجُّس ، لغير ضرورة قاضية !

حَسْبُ الزوج أن يَسْئَلَ سَعْلَةً ، أو يبعث من فراشه نائمة ، لكى
تحتبسَ منا الأنفاس ، ويشملنا انتفاض .

ولقد كنتُ في هذه الساعات المشوبة أنظر إلى صاحبتى ، فأتين في
محيّاها إشراقاً وهاجاً يشفّ عما تحيش به نفسها من نشوة ليس
وراءها نشوة .

أما أنا فقد كنتُ في بعض الأوقات يشتدُّ بى الضيق ، فأتياً للنهوض ،
هامساً في أذن صاحبتى :
فلأرحل ... فلأرحل ...

فتحدّجنى ببصرها وهى تتغيّظ ، كأنما تقول :

لقد عكرت على صفو نشوتى !

فلا أرى مناصاً من الإذعان لرغبتها في إطالة الجلسة معها ، على ذلك
النحو المقيت .

ومن عجيب أمر هذه الإنسانية المعقّدة ، أنها على الرغم من هيامها بى ،
وإعزازها لى ، كانت بادية العطف على زوجها العليل ، وكان عطفها محضاً
لأرياء فيه ولا تصنع ، تسهر على راحته ، وتوافيه بأسباب العناية والتعهد ،
وتبدّل في ذلك منتهى الوسع ، لا تألّو جهداً في تمريض وعلاج ، وإعداد
للطعام والشراب ، حتى إنها لم تكن تبارح الدار إلا قليلاً ... كل ههما
مصروف إلى تدبير شئونها المنزلية على خير وجه وأهدى طريق .

وكثيراً ما رأيتها وهى بجانب زوجها ، على حافة السرير ، توسّده
صدرها ، وتلاطفه في حنوٍّ وولاء ، وتدله كأنه طفلها الأعز . فأراني قد

ثارت بنفسى غضبة وحنق ، فتلحظ ذلك فى نظرات عيني ، فما إن تختلى
بى فى الحجرة المجاورة ، حتى تبادر إلى سمعى ، تُسرُّ إلى قولها :
أراهنُ على أنك غيور !

— أبعد ما رأيته تطليين منى ألا أغار ؟

— أتخشى على مكانك من قلبى ؟

— إن القلب لا يتسع إلا لحبيب واحد .

— كنت أحسب أنك أحكم وأحزم من التأثير بهذه الأمثال الشائعة !

— تريدن أن تسفهى قولى ، وتزيفى رأيى ؟

— وأنت ؟ ... إنك دائماً تريد بتلك المقاييس التافهة أن تُسَفِّهَ

حبنى ، وتزيفى عاطفتى ! ... لقد صدقَ حدسى فى مبلغ حُبِّك إياى !

— أتجرئين على التهوين من شأن حبنى ؟

— إنك تحبُّ كما يحب سائر الناس .

— وكيف تريدننى أن أحب ؟

— كما أحبك أنا !

— ناشدتك الله أن تخبرينى : كيف تحبيننى ؟

— تسألنى كيف أحبك ؟ تسألنى كيف ؟ أليس لك طاقةٌ بالمشفاف

حبنى على أى نحو يكون ؟ إنك لا تفهمينى ، ولن تفهمى ما حَيِّت !

وأقفُ قبالتها ، وهى تلفظ هذه الجملة ، ووجهها الفاتن تنطقُ قسماته

بالإخلاص في القول ، والجِدِّ فيه . . .
 وإني لَأَقِرُّ بِنِي وبَيْنِ نَفْسِي بَأَنِّي لَمْ أُوتَ قُدْرَةً عَلَى تَقَهُمِ كُنْهَ هَذِهِ
 الْمَرْأَةِ ، وَالسَّيِّطَانِ مَا فِي نَفْسِهَا مِنْ تَعَقُّدٍ وَاسْتَعْصَاءٍ !
 وَأَسْمَعُهَا تَقُولُ :

حَسْبُكَ فَاتْرَكْنِي . . .
 فَأَشْعُرُ كَأَنَّ نِيَّاطَ قَلْبِي تَتَمَرَّقُ ، وَأَهْوَى عَلَى يَدَيْهَا أَسْتَغْفِرُ .
 وَعَلِمْتُ يَوْمًا أَنَّهَا سَافَرَتْ إِلَى « الْإِسْكَندَرِيَّةِ » فِي مَهْمَةٍ مِنْ خَاصَّةِ
 شَأْنِهَا ، عَجِبْتُ لَهَا :

لِمَا لَمْ تَنْبَشْنِي بِأَمْرِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ؟
 وَلَكِنِّي قَدَّرْتُ أَنَّهَا فُوجِئَتْ بِبَاعِثِ السَّفَرِ ، فَلَمْ تَمْلِكْ إِبْلَاغِي .
 وَقَفَّوْتُ أَثَرَهَا إِلَى « الْإِسْكَندَرِيَّةِ » وَأَنَا أُمْنِيَّ النَّفْسِ بِخَلْوَةِ صَافِيَةِ
 هَانِثَةٍ ، فِي نَجْوَةٍ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا الْمَرِيضِ .
 إِنَّهَا الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَنْعَمَ فِيهَا بِجَوْ هَادِيٍّ ، لَا تَغِيْمُ سَمَاوُهُ بِرَعْبٍ
 وَلَا حَذَرٍ .

وَقَصِدْتُ مِنْ فَوْرِي فَنَدَقُ « وَنْدَسُورَ » إِذْ كَانَ فِيهَا عَلِمْتُ مَثْوَاهَا
 الْمَفْضَلَّ ، كَلَّمَا سَافَرْتُ إِلَى الثَّغْرِ .
 وَلَمْ أَكْذِبْ بَنِي ظَنِّي . . . فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ .
 وَطَرَفْتُ بَابَ حَجَرَتِهَا ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَأَلْفَيْتُهَا عَلَى وَشْكِ الْخُرُوجِ ، فَلَمَّا

وقع بصرها علىّ ، بدا على مُحيّاها دهش وتجهّم ، وقالت :
أنتَ ؟

— أساءكِ قدومي ؟

— ماذا جاء بك ؟

— عجيب أن تسأليني ...

— لم أطلب منك أن تتقدّم ، فلمَ فعلت ؟

— وهل تحسبيني أنقل خطايَ وفقَّ أمرُك ونهْيُك ؟

— كان عليك أن تحترم رغبتى !

— ورغبتى ... ألا احترامَ لها ؟

— لو تبصرتَ فى الأمر ، لعلمتَ أن رغبتى ورغبتك تلتقيان !

— بل إنك لتفرق بينهما جهد مستطاعك ...

— ما أشدَّ مضايقتك لى بهذا الجدل !

— لقد باغتتني منكِ هذا الاستنكارُ لقدومي ... أىُّ جريرةٍ فيما

صنعتُ ؟ إنها لفرصةٌ فريدةٌ طيبةٌ أُتيحتْ لنا ، فما بالكِ تأبئُها ؟

— ما زلتَ تلوّكُ منطقَ عامة الناس !

فثار غيظى ، وقلت :

لم يهينى الله إلا ما وهب الناسَ من منطق ، فإذا تطليبن أنتِ ؟

— إني ليؤسفى أن أسمع منكِ ما سمعتُ !

— وإني ليؤسفي أن أقر لك بعجزى عن الرقى إلى أبراج أفقك
الرفيع !

— إنك تتوخى طريق المشكلات بسوء تصرفك ... تقوِّضُ صرْحَ
الحلم الجميل الذى نعيش فيه !

فصمتُ برهةً أهدق فيها ، تتنازعنى مشاعر حنق وألم وتخيير .
ثم صحتُ :

أَتَأْبِينُ قضاء وقت معى فى هذا البلد ؟ أَوْجِزِى الجواب !
فرفعتُ رأسها فى عزة ، وقالت :

أرفض ذلك !

— أَلَيْ أَن أَسْأَلَ لماذا ؟

— وتَسْأَلْنِى لماذا ؟

— أَلَا يَحِقُّ لهذا الغبى المتشرف بالثول أمامك أن يستوضحكِ أمراً
عَزَبَ عن فهمه الكليل ؟

— لستُ ممن يُعْنَيْنَ بتفطين الأغبياء !

فصرختُ ، وقد جاوزنى الغضب حَدَّ التَّمَالُكُ :

كفى منك هذا الغرور ... اسمعى ! .. هذه آخرُ مرة أَلْقَاكِ فيها ... إنها
فراق بينى وبينك !

ورأيتها صامتةً كالتمثال ، ويدها معقودتان على صدرها .

فاستأنفتُ أقول ، وأنا أضرب المنضدة بِجُمُعِ يدي :

هل عندك من جواب ؟

فندتُ عن التمثال حركة واحدة : اليدُ مشيرةً إلى الباب !

ووجدتني أمرقُ مروق السهم ، وأنا أتنفض انتفاضةً محموم ، وأقسمتُ
أن أفصِّمَ العلاقة بيني وبين هذه الإنسانية التي لم أجن من ورائها إلا فنون
العذاب ...

واستبان لي في هذا الوقت عَظْمُ الوِزْرِ الذي اقترفته في حق مريضى
الشيخ الذى أعوده ... كيف طوَّعت لي نفسى أن أستنيم لهذه اللَّائِيَّةِ ؟
وما وصلتُ إلى « القاهرة » حتى كلفتُ الممرِّضَ أن يتصل بمنزل
الزوج المريض ، وَيُنْهِىَ إليه أُنَى موعوك ، وأنى أنبتُ أحدَ زملائى
الأطباء في مواصلة العلاج والإشراف .

وكنت أقطع وقتى في استقبال زُوَّارى من المرضى ، وأنا أستسلم للعجزِ ،
محاوِلاً أن أستغرق فيه ، متناسياً جهدى ذلك الحبَّ الأثيم ، ولكن كلما
صلصل « التلفون » هُرَّعتُ إلى المِسمَعةِ بنفسى ، لا أدع الممرِّضَ يسبقنى ،
وفي نفسى تعتلج هِزَّةُ الارتقاب لصوت معين ... بيد أن هذا الصوت
نبأ عَنى ، وعَزَّ على !

وتوالت الأيام ، وأنا على تلك الحال ، أشعر وئيداً بأنى قد هدأتُ شيئاً ،
وأنى فى الطريق إلى الخلاص من أعقاب تلك العاطفة الجُمُوح

ولقيتُ يوماً في طريق الطيب الذي أنبته عني في علاج الزوج الأشلّ ،
فأخبرني بسير العلاج ، وحالة المريض ، ثم ما لبث أن أشاد بتلك الزوجة
السّمحة العطف ، وبما وهبت من فتنه ووسامة .

وافترقنا وأنا أحسُّ ضيقةً يتنزّى بها صدرى ، وقضيتُ يومى مهتماً
مكتئباً ، لا تجدى الوسائل في الترفيه عن نفسى .

وَبُكْرَةً طلبتُ صديق الطيب فى « التلفون » فشكرتُ له عنايته
بالمريض ، وأخبرته بأنى قد تخلصتُ من شواغلى ، وأنى مستأنفٌ إشرافى
على مريضى ، وما أسرع أن جذبتُ حقيقتى ، وقصدتُ تلك الدار المنشودة !
لماذا أقدمتُ على ذلك ؟ .. لستُ أدرى !

وما إن بلغتُ الدار ، حتى شعرتُ بأن أوصالى يعرفونها انتفاض ،
لا أعرفُ مَنْ أَلَمْ هو أم من ابتهاج ؟

وَيَمَّمْتُ حجرة المريض ، فألقيتُ الزوجة فى مكانها المختار من السرير تدلّل
زوجها ، وتحوطه بعطف وإيناس . وما إن رآنى المريض حتى تهلل وجهه ،
ترحيباً بى . وأما الزوجة فقد حيّتنى تحية مألوفة فى أدب . وسرعان ما أتممتُ
الفحص ، وأوصيتُ بالعلاج ، وخرجتُ أنا والزوجة إلى الحجرة المجاورة .
يا لله من هذه الحجرة البغيضة الحبيبة !

يُخَيِّلُ إلى أنى أقرأ على حوائطها تاريخ ذلك الغرام العجيب ،
مسطراً بأحرف بارزة !

كأثما لهذه الأحرف أبواق تنطق ، فتُسْمَعُ ذلك التاريخ ، مجلجلة

الصوت ، قوية الرنين !

ووجدتني أَسْتَأْنِي في سيري ، وسمعتها تقول :

أهنتك على سلامتك من وعكتك .

فقلت لها ونظراتي تنحرف عنها :

أتهزئين بي ؟

— وفيم الهزؤ ؟

— تعلمين أني لم أكن بموعوك ...

فربت كتفي ، وقالت مبتسمة :

بل كنت موعوكا .. هذا ما تتفق عليه . وإنما الخلاف بيننا على وصف

الوعكة ، وتسمية المرض !

— أ كنت تحسبن أن وعكتي تُزْمِن ، أم كنت تقدِّرين لها قريب زوال ؟

— الذي أَسْتَيْقِنُهُ أنك لا بدَّ عائد !

— أما كان في حسابك أن تنتهي بي الوَعْكَةُ إلى انقطاع ؟

— ما كنت لتتقطع ، ولك نائبٌ عنك يطرق الدار ...

— أيُّ أثر لذلك ؟

— ثَمَّةُ شيء يسمونه الغيرة يا صاحبي ... الغيرة الكاوية . . وقانا

الله لَفَحَهَا !

وأخذتُ يدي تلافيني ، فقلت :
 تخطئين الحُدُسَ والتقدير... لقد أصبحتُ اليومَ سيدَ قلبي ، وما جئتُ
 إلا لأثبتَ لك هذه الحقيقة ... لن يعنُو قلبي لذل الهوى !
 وخطتُ بي إلى ركننا المعهود ، وهي تقول :
 أنتَ على حق !

— وسأضع لهذه العلاقة حَدًّا .
 — لا تعجلْ ، فالأيام رَهْنُ مشيئتكَ ، أما الآن ...
 — الآن ؟

— سأحتفل بِمَقْدَمِكَ !
 — ماذا تقصدين ؟
 — أتأبى أن أحتفى بحضورك بعد غيبة ؟ إن هذا لا تأثير له فيما تعترزم من أمر .
 ورأيتهَا تُخرج من صِوَانٍ في الحجرة صينيةً عليها قارورة أنيقة
 وكأسان ...

فقلت متعجباً :
 شهبانیا ؟
 — شراب لذيد ، فيه خفة وصفاء !
 وطرقتُ سمعى سَعلة الزوج ، فأمسكتُ بيدها أرذها عن صَبِّ الشراب ،
 وأنا أقول :

لا ... لا ... لن يكون ذلك !

فَنَحَّتْ يَدِي فِي لُطْفٍ ، وَأَتْرَعَتِ الْكَأْسِينَ ، وَقَدِمْتُ لِي كَأْسِي ،
فَكَدْتُ أَقْدِفُ بِهَا ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ صَاحِبَتِي تَشْتَفُ كَأْسَهَا دَفْعَةً
وَاحِدَةً ، وَقَدْ التَمَعْتُ عَيْنَاهَا ، وَتَوَرَدَتْ وَجَنَتَاهَا ، فَإِذَا أَنَا أَتَوَسَّعُهَا مُتَمَلِّيًا
مِفَاتِهَا الْحِسَانَ .

وَأَحْسَسْتُ كَأَنِّي أَنَهَلْتُ بِعَيْنِي كَأْسًا أُخْرَى أَعْلَى وَأَمْتَعَ مِنْ تِلْكَ
الْكَأْسِ الْمَتْرَعَةِ فِي يَدِي ... ثُمَّ هَمَمْتُ :
أَيَّةُ إِنْسَانَةٍ أَنْتَ ؟

وَكُنْتُ عَيْنَاهَا مَعْقُودَتَيْنِ بِعَيْنِي ، فَأُجَابَتْ فِي صَوْتِ الْحَالِمِ :
حَقًّا لَا عِلْمَ لِي ... لَكَ أَنْ تَقُولَ مَا فِي نَفْسِكَ ، وَإِنِّي لَشَيْقَةٍ إِلَى
أَنْ أَسْمَعَ !

وَتَدَانَتْ مِنِّي ، حَتَّى أَحْسَسْتُ بِأَنْفَاسِهَا تَتَلَاقَى بِأَنْفَاسِي ، وَقُلْتُ
فِي هَمْسٍ :

أَشْعُرُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَنَّكَ لَسْتَ آدَمِيَّةً مِنْ طِينَةِ الْبَشَرِ ... لَكَ أَنْكَ
حِينَ قَبَسَتْهُ مِنْ نَارِ الْجَنِّ ، وَتَارَةً نَهَلَتْهُ مِنْ طُهُرِ الْمَلَائِكَةِ !
وَرَأَيْتُنِي أَعْبُ الْكَأْسَ عَبًّا بِلا وَعْيٍ ، وَسَمِعْتُهَا تَهْنِئُ :
هَبْنِي مَلَكًا أَوْ هَبْنِي شَيْطَانًا ، أَلَا تُقَبِّلُنِي ؟
وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ اسْتَوْعَبْتُهَا بَيْنَ ذِرَاعِي ، وَغَيَّبْتُهَا قَبْلَةَ عَارِمَةٍ .

وَنَدَّتْ مِنَّا حَرَكَةُ أَطَاحَتْ بِالْمُنْضِدَةِ وَمَا عَلَيْهَا ، فَانْصَدَعَ السُّكُونُ الشَّامِلُ
بِصَوْتِ مَفْرُوعٍ ، وَانْتَهَى إِلَى أَسْمَاعِنَا قَوْلُ الزَّوْجِ الْمَرِيضِ :

مَنْ ؟ مَنْ ؟

فَأَنْصَتْنَا وَقَدْ بَلَغَ مِنَّا الرَّوْعُ غَايَتَهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْمَرِيضُ يَقُولُ مُتَمَلِّمٌ
الزَّبَرَاتِ ، مُتَلَحِّقَ الْأَنْفَاسِ :

مَنْ ؟ مَنْ فِي الْحَجَرَةِ ؟

وَحَرَسَتْ الْحَجَرَةُ لَا تُجِيبُ !

كُنَّا لَا نُذِينَ بِصَمْتٍ لِادْفَعِ جَيَّاشٍ .

وَتَابَعَ الْمَرِيضُ صِيحَاتِهِ الْعِجَافَ ، وَأَحْسَسْنَا بِهِ يَتَحَرَّكُ ، كَأَنَّمَا يُحَاوِلُ
أَنْ يَنْهَضَ ، وَإِذَا بِالزَّوْجَةِ تَنَفَّلَتْ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْ ، وَتَدْفَعُ بِصَيْنِيَّةِ
الشَّرَابِ ، بَعِيداً عَنْ مَوَاقِعِ النَّظَرِ ...

وَاسْتَبَانَ سَمْعِي حَرَكَةَ جِسْمٍ فِي الْحَجَرَةِ الْأُخْرَى يَتَقَلْقَلُ ، وَقَدَّمَ
تَدَبُّرَ مُتَخَاذِلَةٍ ، وَعَصَا تَدَقُّ الْأَرْضَ وَاهِيَةً ، وَأَنْفَاسٍ مَكْرُوبَةٍ
تَغَالِبُ الْإِجْهَادَ .

وَوَجَدْتُ الزَّوْجَةَ تُمْسِكُ بِيَدِي ، وَتَدْفَعُ بِي تَحْتَ الْمُتَكِّ ، قَائِلَةً :

هنا ... هنا ...

فَانْتَابَتْنِي أَخْلَاطُ مِنَ الْخَزْيِ وَالرَّعْبِ وَالْارْتِبَاكِ ، تَنْتَهَبُ نَفْسِي ،
وَتَتَقَسَّمُ تَفْكِيرِي .

وازداد خَفَقَ القدم ، ودقَّ العصا ، مِنْ وضوح ... ووجدتني تحت
 المُتَكِّ أتكش وأتجمّع ، لا أملك من إحساسى إلا أذناً تصغى .
 فأما الزوجة ، فما أسرع أن تمددت على المتكِّ في سكون .
 ودلّف الزوج إلى الحجرة ، وهو يقول :

ماذا ؟ أنتِ هنا ؟ لقد ناديتُ فلم يلبّ ندائى أحد .
 — معذرة ، مَلَكْتَنِي إغفَاءة .

ونَهَضَتْ إليه ، تُعِينُهُ في خطوه ، واستأنف الزوج يقول :
 لقد فرّغنى صوت انبعت من الحجرة .

— ربما كانت قدمى دفعتُ بالمنضدة ، وأنا فى سِنَةٍ نومي .

وسكنت لحظة ، ثم وأصليت قولها حانيةً عليه ، تقول :
 لماذا حملت على نفسك وتركت الفراش ؟ شدَّ مَا تشغل بالك بأتفه
 الشئون ! ...

وما زالت به حتى أدنته من المتكِّ ، حيث كنتُ أجلس ، فأحسستُ
 المريض يتداعى بجسمه الأثقل ، وأقبلت عليه زوجه تلاففه وتضاحكه ...
 وسمعتُه يقول :

أخزى الله الشيطان الوسواس الخناس !

— ماذا ؟

— لا شيء ... لا شيء .

— صرّح لي بما في نفسك .

— إن أعصابي متهافئة ، فلا عليك .

وتناول يدها ، يقبلها وهو يردد :

لولا وجودك معي لما حلا لي طعم الحياة ... ولولا أنت لما صبرتُ
على ما أنا فيه ... ولكن أكبر ما يؤلّني ما تقاسينه من عناء معي ! ...
ما ذنبك في هذا كله ؟

— أى عناء ؟ ألم أحرّم عليك أن تُخطِرَ ببالك شيئاً من هذه

المواجس ؟

— كلما وقع بصرى عليك ، وتجلت لي وسامتك وشبابك ، أراى
مهموماً من أجلك ... إنك لتبذّلين في سبيلى أعزّ ما يبذله إنسان !

— أقسم لك إني راضيةٌ بعيشى معك ... لا ضيق ولا ضجر ...
وإني لا أمنيةٌ لي إلا أن أراك مطمئن النفس ، خالى البال .

وأطبق الصمت على الحجرة ، ثقيل الوطأة ، فأحسستُ في محبّسى
أن شيئاً يجثمُ على صدرى ، فيُخمد أنفاسى .

وسمعتُ المريض يقول ، مهزول الصوت ، راعش النبرات :

والطبيب ؟

فأجابته الزوجة ، فى لهجة تذوب رقة :

الطبيب ؟ ألك به حاجة الآن ؟

— أقصد ... أقصد ... لا شيء ! لست بحاجة إليه .
 وشعرتُ بأن المريض يُلْمُ شَعْنَهُ ، ويتأهب للنهوض ، فقالت الزوجة :
 ألا تستوفى قِسْطَكَ من الراحة ؟ .. ابقَ جالساً ... لن أدعَكَ
 تمضى الآن .

— لماذا ؟

— أنت الساعةَ ضيفي ، وقد سَعِدَتْ بِمَقْدَمِكَ حجرتي ... فقد
 امتدت عنها غيبتُك ، وطال شوقُها إلى زورتك .
 فتنهَّد قائلاً :

حقاً ، غبتُ عنها طويلاً ... منذ أمد بعيد لم أجتلِ هذه المناظر ...
 إنها لتبعث في نفسي ذِكرياتٍ أُوَيقات هائلة ، قضيناها معاً في هذا الركن
 الأنيس ، ركننا المختار .

— من أجل هذا رغبتُ إليك في أن تطيل جلستك .

ثم نهضتْ ، وهي تقول :

لك عندي مفاجأة .

— أية مفاجأة ؟

ولمحتُ قدميها الدقيقتين تتحركان نحو الصَّوَّان ، وماهى إلا أن أخرجتْ
 أشياء ، قصدتُ بها إلى المنضدة ، فرتبتها عليها . . . وصاح الزوج :
 ماذا ؟ شمانيا ؟

— احتفالا بزورتك نحتسى كأسين .

— وهل كنت تتوقعين قدومي ؟

— إنى أنتظر هذه الزورة وأعدُّ لها العُدَّة منذ وقت مديد ، فلشرب على صحتك ... ولكن لن أصبَّ لك إلَّا مِلءَ ربع الكأس ... لا يُجيز لك الطيب إلا هذا القدر .

وسمعه يهمهم :

الطيب ؟ ... متى ترك الدار ؟

— بعد أن ذهب إلى المَطَهى كعادته ، وتقَدَّ طعامك . إنه دقيق في إشرافه وتعهُده .

— إنى أتبع نصائحهُ ، لا أُحيد عنها .

وجعلتُ تصبُّ الشرابَ فى الكأسين ، ثم ما لبث الزوجان أن أخذَا يترشَّقان ، وهما فى مصافاة ومؤانسة ، على حين أنى كنتُ فى محبسى أكاد لا أستطيع إمساك الرَّمق ...

أعفنى من أن أصور لك : على أىَّ نحو انتهى بى هذا المشهد .

كيف عاد المريض إلى مرَّقه ؟

كيف انطلقتُ من محبسى أواجه الزوجة ؟

كيف زائلتُ الدار ؟

ذلك حلم مُهَوَّش أليم ، تشابكت أحداثه ، ومشى بعضُها فى بعض ،

فلم أملك لها تفصيلاً .

مُجَمَّلُ أَمْرِي أَنِّي تَرَكْتُ الدَّارَ مَحْمُومًا ، أَحْسَنُ كَانَ شَرِيَانًا فِي رَأْسِي
عَلَى وَشْكِ الْإِنْفِجَارِ .

وَمَا بَلَغْتُ بَيْتِي ، حَتَّى اسْتَعْنَتْ بِمَخْذَرٍ قَوِيٍّ يُسَلِّمُنِي إِلَى تَبَلَدِ سُبُتَاتِ .
وَفِي صَبِيحَةِ غَدَى ، عَقَدْتُ نَيْتِي عَلَى أَلَا أَعُودُ إِلَى هَذِهِ الْإِنْسَانَةِ
الْعَنِيفَةِ ، مَهْمَا تَكُنَ الْبَوَاعِثُ .

اتَّهَى كُلُّ شَيْءٍ ... اتَّهَى كُلُّ شَيْءٍ !

كَنتُ أُرَدِّدُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي عَزَمٍ وَحَزَمٍ ، وَصَلُّصٍ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ
جَرَسِ « التَّلْفُونِ » ، وَإِذَا صَوْتُهَا ، صَوْتُ هَذِهِ الْإِنْسَانَةِ يَقُولُ فِي لَهْجَةٍ
فَرِيعَةٍ يَقْطَعُهَا النَّشِيجُ :

اتَّهَى كُلُّ شَيْءٍ ... مَاتَ زَوْجِي !

مَاتَ زَوْجُهَا ... كَانَ لِهَذَا النِّبَا وَقَعٌ فِي نَفْسِي شَدِيدٌ ... حَتَّى إِنِّي لَمْ
أَسْتَطِعْ مُوَاصَلَةَ الْحَدِيثِ ، وَهَرِغْتُ مِنْ فَوْرِي إِلَى دَارِهَا .
بِهَذَا يَبْدَأُ فُصْلٌ جَدِيدٌ فِي قِصَّتِي الْعَجِيبَةِ ...

دَارَتْ بِي الْأَفْكَارُ كُلُّ مَدَارٍ ، وَرَحْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي طَوِيلًا : كَيْفَ
تَكُونُ صِلَاتِي الْيَوْمَ بِهَذِهِ الْإِنْسَانَةِ ؟ أَقْطِيعُهَا وَنَسِيَانٍ ؟ أَمْ مُوَاصَلَةً وَتَلَاقٍ !
كَيْفَ يَكُونُ شَعُورِي نَحْوَهَا ؟ أَشَوْقٌ وَشَغَفٌ ؟ أَمْ فِتْرَةٌ وَسُكُونٌ ؟
بَدَأْتُ لِقَائِي إِيَّاهَا ، غِيبٌ وَفَاةُ الزَّوْجِ ، لِقَاءٌ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَأْلُوفُ الْمَجَالِسِ

والأحاديث ، ولشدَّ ما راعى أنها على زوجها والهة جدُّ محزونة ، حتى لقد أثار ذلك بين جوانحي إحساس ضيقٍ بذكري ذلك الزوج ... ولكن أضيّق بشخص لم يصبح له وجود ؟ بل لقد أخلى لي السبيل ، لكي أنفذ من أمرى ما أريد ... أليس هو اليوم جديراً بالرَّثاء والإشفاق ؟ حقاً إنه كذلك ، ولكن الزوجة بحزنها من أجله ، وحِدادها عليه ، تجعلني حائراً بين النقائض من المشاعر والأحاسيس !

على أنى لم أكن أدري أية عاطفة تلك التى توحى إلى الزوجة أن تحزن على زوجها الراحل ؟ أهى عاطفة ندم و يقظة ضمير ؟ أم هو الوفاء لمن كان رجلها وشريكها فى الحياة ؟

لم تطل بي الأيام ، حتى انتهت بي الحيرة إلى طمأنينة ورضا بما صنعت الأقدار .

وانصرفْتُ أُنَجِّبُ إلى تلك الإنسانية ، أحاول أن أخترق حجاب التحفظ الذى فرضته ملابسات الأحران ، وأعالج أن أثير كوامن حبِّها إياى ، فلم أجد منها أى استجابة .

كانتْ فى لبؤسها الأسود ، لا زينة ولا زُخرف ، غارقة فى سهوم ، ضئيلة بالحديث ، لا تقابل محاولتى إلا بملاطفة عابرة .

وتواردت الأيام ، تحقّف من وطأة الحزن ، وشعرتُ بتلك الإنسانية تُراجع ما انقطع من شئون حياتها المألوفة .

وشرعتُ تستجيب شيئاً لعاطفتي ، فتطارحنى الملاحظات في ابتسام
ساحر خلاب .

وكانت تقضى معى بعض الوقت فى مُستَشْرِفِ الدار ، نحتسى الشاى ،
أو تترشف القهوة ، فى رقة وإيناس . وقد اختارت هذا المستَشْرِفِ مكاناً
للقاء ، وهجرتُ ذلك الركن المعهود فى الحجرة المجاورة لحجرة الزوج الراحل
إِبَّانَ مرضه الأخير .

ليس من شك فى أن حبي إياها كان حينئذ يتضاعف ويتضاعف ، وقد
انسدل الستار على كل ما كنتُ آخذُهُ عليها ، وأنكره منها .
لم أعد أفكر فى شيء من أحداث الغابر .

كانت نفسى مفعمة بأمال ورجاب عذاب ، لا تدعُ لغيرها أن تجد مَفِيضاً
أماهى فكانت فى ظَرْفِها وموانستها آيةً بَيِّنَةً ، وكنتُ أحسُّ أنها
تكنّ لى أعمق الحب وأصدقه ، ومن ثم تتضوّأُ آمالى ، وتطمئن إلى مستقبلها
المنشود !

يَبْدُ أن هذا الاطمئنان والصفاء كان يعكّره تحفظُ بالغ ، تحَقُّظُ عذراء
ليس لها بخاطبها عهد .

على أنى لم أملك إلا أن أحترم إرادتها ، ملتمساً لها ألوان التعلّلات
والمعاذير . . .

وكنا أصيلاً فى مُستَشْرِفِ الدار ، تنهادى إلينا نفحات من نسيم

الغروب ، وكانت صاحبتى تتخذ مجلسها قبالتى ، وقد أذكى فنتها ما أحاط
بنا من صفاء وسكون . . . وفى الفينة بعد الفينة يحوم حولها النسيم عابثاً
بشعرها الموّاج ، فتترسّل منه غلالةٌ تنبسط على جانب مُحَيّاها ، فتبدو كأنها
لثام هفهاف يتراءى خلف ظلمته الشفافة حُلْم رائع كَمّاح !

وتدائنتُ من مقعدها ، ولاطفتُ راحتها ، وأنا أقول :
ألا ترينَ الوقت قد حان لأن نؤلف بين قلوبنا برباط أوثق وأبقى
على الأيام ؟

فنظرتُ إلىّ فى دهشة ، تقول :

أتحسّ أننا فى حاجة إلى مثل هذا الرباط ، لتقوى به ما بيننا من عاطفة ؟
— أحسّ أن حياتنا تقتقر إلى ذلك النهج المألوف من أوضاع المجتمع
ونظام الحياة . . . كنا فى عهدنا الأول لا حيلة لنا إلا فى أن نحيا على ذلك
النحو ، فأما اليوم فقيم هذا التباعد والانفصال ؟
— ثق أننى لم أشعر ساعةً ، منذ تعارفنا وربط الحب بين قلوبنا ،
أننا منفصلان . . .

فجعلتُ أتوسّم يدها رخصة بضّة ، وأصابعها قانية الأطراف كأنها
حبّات « الكرز » ... وقلت :

الحقّ ما تقولين ، ولكنك تعنين جانب الخيال والعاطفة والروح ،
فأما الحقيقة الواقعة . . .

فقاطعتني تقول :

أنت تفرق بين ما تسميه عاطفة وخيالا وروحا ، وما تسميه حقيقة واقعة .
ولكن ألا تؤمن معي بأن العاطفة والخيال والروح جوهر الحقيقة ولُبَاب
الواقع ؟ .. أنت تتحدث في شأن الحب ، أتشك في أن حبنا حقيقة من
أعظم حقائق الحياة ؟

وكانت ترسل قولها ، وهي تبعث في الأفق نظرات حاملة ، فرَبَّتْ يدها
في رفق ، وأنا أقول :

انظري إليّ ، حدّقي في وجهي ... استيقظي يا صديقتي ... تحدّثي إليّ
حديث اثنين لهما في الوجود - كيان .

فالتفتت إليّ باسمّة في إشفاق ، وتلاقت نظراتنا برهة في نشوة ،
وأحسستُ أني سابع في فيض من نور مُحَيَّيَاها الأَلَّاق ... ثم أَلْفَيْتَنِي أدنى
وجهي من وجهها ، وكادت شفاهنا تتلامس ، ولكنني وجدتها بغتةً
تراجع قائلة :

لا ... لا ...

فنهضتُ على الأثر ، وقد أصممتني كلمتها ... وقلتُ غاضب اللهجة :

لم يبق لي في قلبك حب !

فردت هادئة الصوت :

أهذا قولك ؟

— منذ تُؤَوِّفِي زوجك ، وأنا أشعر بأن عاطفتك نحوى لا تعدو جانب المجاملة .

— إنك لتثير بقولك عجبى .

— بل إن موقفك مني لهو العجب العجيب !

— ماذا تنكر منى ؟

— إنك لتأبى على كل شيء ، حتى القبله !

— القبله يا صديقي أئمن وأعلى من أن نبتذلها ... إنها كالزهرة

الناضرة على فننها الرطيب ، تبتُّ الأريج ، فتفنى النظر ، وتُنْشِش
الروح ... أفلا ندعها على فننها تتألق وتتنصّر ، فتلهبُ في نفوسنا الشوق
والشغف ؟ أفلا ترى أننا بذلك نستمتع بنشوة جياشة ؟

فابتسمت ابتسامة استخفاف ، وقلت :

على رسلك .. أفندع الزهرة على غصنها دانية دون مَسَاس ؟ أفنظّل
كذلك إلى الأبد ؟

— بل إن لكل شيء إبانة الموعود !

— ومتى يحين في زعمك قطف هذه الزهرة العصية المنال ؟

— إن المحب الأصيل يجب أن يعرف متى يحين القطف ... أمّا أن

تعبث الأيدي بالزهر في كل نزوة ، فذلك امتهان لمتعة الاقتطاف أى امتهان !

— إني أعرف شيئاً واحداً ... ما دام المحب يتلهب وجداً إلى القبله

فقد وجب اقتطافها على أية حال .. إن الظمآن لا تدبير له إلا أن يرتوى
بالنَّهْلَاتِ العِذاب !

— أفى حِسْبَانِكَ أن الظمآن ينقع غُلَّتَه على الوجه الأمثل إذا تيسر له
الماء دون عَناء ؟

— هذا هو الوضع الطبيعي للظمأ والرى !

— ماذا ترى في عطشان بلغ منه العطش كل مبلغ ، ووجد الماء حياله
صعب المنال ، فما زال يجاهد ويكابد ، حتى أصاب منه ما استطاع ، بعد
لأى وإعياء ؟

— لا ريب أنه يشرب ماءه مشوباً بالضيق والعنت .

فقامت إلى حاجز المُسْتَشْرِف تهيم بأنظارها في الفضاء ، وهي تههم :
بل إن ذلك هو الذى يُفِيضُ على الرِّى كل متعة وانتشاء !
فتركت مقعدى ، وخطوت إليها أدانيها ، وأنا أقول :

دَعِينَا بربك من هذه الفلسفة الشعرية الشُّرود ... لومضيها تتطرح
مثل هذه الخواطر لما اتبهينا إلى قصد ... أشقى على نفسك وعلى ...
لنختصر الطريق ... كلمة أريد أن أقولها قبل أن أنصرف ، ولا أطلب
منك إلا رداً موجزاً صريحاً .

فالتفتت إلى فى ابتسامة سانحة ، وهممت :

قل ما بدا لك .

— إني أَعْرِضُ عَلَيْكَ نَفْسِي زَوْجًا ... فهل تَقْبَلِينَ ؟
 فظلت صامئة تحدِّقُ في وجهي ، كأنما تريد أن تستجلي ما وراء عيني
 من دخيلة نفسي ، واستأنفتُ أقول :

ما جوابك ؟

— إن أردتَ المصارحة ، فإني لم أدِرْ هذا الأمر بفكري من قبل !

— ومتى تفكرين فيه ؟

— لا أدري !

— معنى هذا أنك ترفضين ...

— أَسَمِعْتَ مِنِّي كلمة الرفض ؟

— إذن أنتِ تَقْبَلِينَ

— أَسَمِعْتَ مِنِّي كلمة القبول ؟

ووقفتُ حائرةً مَغِيظًا ، أَرْنُو إِلَى حَدِّقَتِهَا ، كأنِّي أَسْبُرُ غُورَ بَرٍّ تَاهَةٍ
 الأعماق . ثم وجدْتُني أقول :

لماذا تعذِبنني ؟

فأقبلتُ على مشغوفة تمسك بيدي وتلاطفها في ترفُّق وإخلاص ،
 وهي تقول :

قَسَمًا بما بيننا من حب إني لم أُرِدْ لَكَ عَذَابًا .

— أَيْ حُبْ ذَلِكَ الَّذِي تُقْسِمِينَ بِهِ ؟ إِنَّكَ لَتَهْدِمِينَهُ هَدْمًا !

— بل إني لأعمل جاهدة على الاحتفاظ به صافياً نقياً ، لا تتطرق
إليه شوائب الانحلال .

وتقضت أيام دون أن يطرأ على صلتنا جديد .
وظللت أروضُ نفسي على الصبر ، قانعاً من صديقتي بودّها المحض ،
يحدوني أمل في مستقبل سعيد .

وترامى إلى نأ فزعتُ له ، ولم تكد تصدّقه أذنى ، فبكرتُ إلى
دارها ، وصادقتها في المستشرف ، تلهو بالتطريز ... فما لمحتني حتى ضاء
وجهها ، وتجلّى فيه إشراق ، وابتدرتني بتحيةٍ شقيقة ، وهى تقول :
الساعة كنتُ أفكر فيك ، وأحسُّ الشوق إلى رؤيتك ... فهل كان
هذا الإحساس هو الذى اجتذبك إلى ؟

فقلتُ ، وأنا أحدّق فيها بمجامع عيني :
أحقاً كنتِ تفكرين في ؟

— أفى قولى تشكُّ؟ أليس فى مستطاعك أن تستمع إلى نجوى قلبى ،
وتتعرف سريرتى ، دون استعانة بما يلفظه لسانى ؟ ... أأكون قد أخفقتُ
فى إشعارك بحبى إياك ؟

أصغيتُ إليها واجف القلب ، جيّاش الأعصاب ، فوجدتني أنخازل
وأستكين . ولكن عاودنى الاهتمام بما جئتُ من أجله ، فاستنقذتُ شجاعتي ،
وتمالكتُ قائلاً :

كيف تزعمين أنك تحبينني وأنت تزعمين اتخاذ غيري شريكاً لحياتك !
فقلت في ثقة و يقين :

أنتَ شريكُ رُوحى الأول والأخير .

— أزعمةٌ أنتِ أن نبأ زواجك إشاعة لا صحة لها ؟

فأجابتُ في تمكن و رباطة جأش :

للاشاعة من الصحة نصيب !

فقلتُ لها مشدوها :

إذن أنتِ مقبلةٌ على الزواج بغيري...

— وماذا يريُّبك من هذا الصنيع ؟

فصحتُ بها :

يجب أن يركب الله في نفسى طبعاً غير طبعى ، وخلقاً غير خلقى ، حتى

أستطيع أن أجيبك عن هذا السؤال !

فأخذتُ تعبتُ بمنديلها لحظة ، وهى ترمى بنظرها إليه . ثم قالت :

يوسفنى أن هناك تفاوتاً كبيراً بيننا فى النظر إلى الأمور ، واعتبار

الحقائق .

— أوكد لك أنى فى لبسٍ وحيرة من شأنك ، فبرِّبكِ أوصحى

وأيننى .

فسمتُ إلى بعينيهما ، فبهرنى من حدقتيهما صفاء الألق ينكشف أمام

سواده أسطع الأضواء . وقالت في صوت كَيْن المكاسر :

إني في حاجة إلى رجل يقاسمني عبء هذه الحياة الراتبة . أقصد رجلاً من أولئك الأزواج الذين تقوم عليهم دعائم البيوت ، رجلاً عريضاً أركن إليه ، وأطمئن به ... وقد اخترتُ شخصاً توافرت له تلك الصفات التي أرجوها ... ألسنت موافقي على رأيي !

فانبثقت من بين شفتيّ ضحكة ساخرة شوهاء ، وقلت :

أرجو ألا تحرميني أن أكون شاهداً في عقد زواجك ...

— إنك دائماً تنتزع من حديثي مثيراً للسخرية واستهزاء .

— أيُّها الساخر المستهزئ ؟ إنك تتحدثين عن خاطب اليوم وزوج

الغد ، فتُسبِغين عليه أكرم خِصال الرجال !

— ما قلته أنا حق .

— وأنا ؟ ماذا أكون في دنياك العجيبة ؟

— أنت ؟ أنت شيء آخر .

— حقاً ... شيء آخر ... على الهامش ... لست أهلاً أن أملاً

حياتك !

— أنت ملء حياتي كلها ، لا تدع لغيرك فيها ناحية .

فصرخت :

هذا هراء كل هراء ...

- خفف من حِدَّتِكَ .
- هذا فوق ما أحتمل .
- أفنُكَ هذه الغيرة الحمقاء .
- وأنتِ يا سيدتى .. ألا تغارين ؟
- أئمةً شىء يثير غيرتى ؟
- إذا قلتُ لكِ إني متزوج غيركِ ، فماذا ترين ؟
- فأجابت ، وقد برقت عينيها :
- أحقّاً تقول ؟
- أقسمتُ لأفعلن .
- ليتكِ تَبَرُّ بِقَسَمِكَ .
- فنظرتُ إليها كالمحبول ، أقول :
- لا بأس .. تتزوجين غيرى وأتزوج غيركِ ، ثم نطوى حبنا ، وننفصل إلى الأبد !
- بل إننا نستقبل عهداً من الحب يبلغ فيه الأوج ، ويستكمل النضج والإيناع .
- أما التفاهم معك فلم يُعدْ إليه سبيل ... أحدنا مجنون وحقّ السماء !
- وركضتُ مغادراً الدار ، يغلى رأسى كالإمرّ جل .
-

ما كان أعظم انتصارى فيما بعد .

لقد نجحتْ خُطى فى صرف صاحبتى عن زواجها الذى أزمعته . ولم أقف عند هذا الحد ، وإنما أقنعتها بأن تكون لى زوجا .

مجهود جبار بذلته ، ووسائل شتى لجأتُ إليها غير مَولود ... مرة أقاطع ، وحيناً أهْدِد ، ويوماً أَلَاين ، وساعة أَسْتَرَحِم ، حتى أُوْفِيَتْ على الغاية ، وملكت القياد .

الآن وقد مضت أشهر على زواجى إياها ، لا أدرى أكان ذلك فوزاً بلغته ، وكسباً أصبته ؟

أخشى أن أقول إن أحلامى كلها قد ذابت .

لقد جنيتُ على نفسى وعلى هذه الإنسانية ، بما سعتُ إليه جاهداً من زواجى إياها .

إنى اليوم لأُتَبِّين سلامة رأيها حين كانت تؤثر ألا يكون بيننا هذا الزواج .

لقد هدمتُ أنا سعادتنا هدماً .

لقد أحلتُ هذه المرأةً بذلك الزواج من إنسانة تضطرم حيويتها ، وتتوهج عاطفتها ، إلى تمثال من الرُخام ، لا حيوية فيه ولا عاطفة . تمثال جميل ، ولكنه جمال صامت تشيع فيه البرودة والجود .

كأنى أعاشر ميتاً ، لا رُوحَ فيه !

طالما هفا بي الشوق إلى أن أقبلها ، فلا أكاد ألامس شفتها ، حتى أحسّ كأنني ألامس قطعة من جليد ، وسرعان ما يشملني هود وحمود .
 وحقيق بي أن أعترف بأن هذه الزوجة على ما طرأ عليها من جمود عاطفة وركود إحساس ، كانت ربة بيت يزدان بها البيت ، وكانت زينة المحافل في الكياسة والظرف ، حتى إنني لأدهش إذ أراها في هذه المحافل وقد انسلخت من جمودها الرخامي ، وتوهجت أنوثة ورقة . . . وكان ذلك يهيج بين جوانحي ألماً دفيناً أجاهد في كبتّه ، فيسلمني التفكير إلى ظنون وأوهام أعجب كيف تخنّط لي ببال .

وكثيراً ما برمتُ بهذه المحافل ، إذ كنتُ أحسّ بأنني فيها واغل غريب ، وأن شمائي قد اتسمت بطابع الخشونة والاستيحاش ، على حين أني كنتُ فيما مضى معروفاً بدمائة الطبع ، ورقة الحاشية ، والبراعة في مطارحة الأحاديث ، ومؤانسة الجلّاس .

وأخصي على بعض إخواني بوادٍ من سوء المعاملة ، لم يعرفوا لها من تعليل ، فاستبانّت على وجوههم مخايل الاستياء والنفور ، وأخذت تبدو على أفواههم بسمات إشفاق ورثاء !

وحقا كنتُ في هذه المحافل لا أملك لأعصابي زماماً ، أتلفت لأقل نائمة مباغتة ، فإذا انقلبت مائدة أو هوى كرسي ، هزّ التفزع أقطار نفسي جميعاً .

أما زجاجات الشبانيا فكان منظرها يثيرني ، ويملائي اشمئزازاً ،
فصدفتُ عنها ، ولم أعدُ أمدُّ إلى أقداحها يدًا .

وكانت هذه التصرفات تزعج زوجتي ، فَتَقْبِلُ عليَّ بعد السهرة معاتبة
مسائلة ، ولم أكن أجد عوناً من لساني إلا كلمات الاستعطاف والاستغفار ،
ولا ألبثُ أن أثبتَّ آيات حبي وشغفي ، ثم إذا بي أطوقها بذراعي كأني
أحاول أن أستبقِّيها في حوزتي ، خاشعاً أن تصفِّرَ منها يدي !

وما زال ضيقى بهذه المحافل والسهرات يشتدُّ ، حتى انتهى بنا الأمر إلى
أن عَزَفْنَا عنها كل العزوف ، فأصبحنا لا نزور ولا نُزار .

ولاحظتُ أن زوجتي تُكثِّرُ من الاختلاف إليَّ ، في عيادتي ، حيث
أستقبل مرضاى ، وتجعل زوراتها في مواعيد متباينة . وما أدري أكانت
تزورني حقاً لأمر ذى بال ؟ أم كانت تصطنع الأسباب والتعلّلات متخذةً
منها أستاراً وأقنعة ؟

ومما كان يثير عجبى أنها تطيل انتظارها إياي في حجرة الزوّار ، فأجدني
قد اعترانى قلق واضطراب ، وراودتني ألوان من الشكوك ، حتى إنى لم
أكن أستنكف أن أسأل الممرض في الفينة بعد الفينة :

ماذا تصنع زوجتى ؟ وهل يتحدث معها أحد ؟
وشرعتُ أتجسس عليها ، وما كان في طوقى ألا أفعل ، فقد دَفَعَتْنِي
إلى ذلك دوافع نفسية ليس عنها مَحِيص .

وكنتُ أحياناً ، بينا أنا أتفحص مريضاً ، أرانى قد تركت حجرى ،
وانطلقت إلى حجرات الزوّار ، أتبين زوجى : كيف هى ؟ وإلى
من تجلس ؟

وفى أغلب هذه الأحوال ، كنت أجدها متكئة على الكرسيّ ، منهمكة
فى نسج وتطريز .

وربما عاجلتنى نوبة هياج ، واندفعتُ فى أرجاء العيادة أتصفّح الناس
وأفحص الأشياء ، وما أزال أدقق فى البحث والتفتيش ، تحت الممتلكاتِ
ووراء الأبواب ، مدّعياً أنى فقدتُ شيئاً ، وأنى أنشده .

وكان هذا التصرف يبعث دهشة الزوار والخدم ، فيسرى بينهم
التساؤل والهمس .

وكثيراً ما يمتّ المرأة ، أتطلع إلى مُحَيَّاي ، وأتبيّن عينيّ : هل فى
نظراتى علامة جنون ؟ !

كنت أشعر بأنى مكتمل العقل ، صحيح الإرادة ...

ولكن أئمة مجنون يعترف بأنه فقد من عقله مُسَكَّة ؟

ويوماً ثارت ثائرتى ، فتقدمتُ إلى خدام المنزل بأن يُخلّوا الحجرات من
المناضد ، ولكنى لم أعم أن رجعتُ إليهم فى غدى أمرهم بأن يعيدوا تلك
المناضد حيث كانت ...

وماربنى من أمرى أنى كنت لا أطعم الهدوء إلا إن كانت زوجتى

خارج الدار ، فثمة أجد الراحة سابعة ، وأحسُّ بأنى أحيا حياة مألوفة
يشيع فيها السكون والصفاء ، فإذا احتوى البيت زوجتى ، وتناهى إلى
من جانبها حركة أو صوت ، جُنَّ جنونى ، وهاجت أعصابى ، وكأن
أفاعى تتناهب فؤادى !

وقد تُقبِلُ علىّ ، وأنا فى هذه الحال ، فأخذُ بيدها محدِّقاً فى وجهها ،
أتقرس وأستشفّ ، محاولاً أن تتجلى لى الحقيقة المستورة خلف ما يبدو
من مظاهر . . .

وجاء يوم أصبحت فيه عيادتى قليلة الزوّار ، بعد أن كانت تضيق بهم
من كل صوب وحدب ، فاتسع وقت فراغى ، فكنت أقطعه بتفكير عميق
فى أمرى ، وتحليل دقيق لنفسى ، وعرض لما يكتفى من ملاسبات
وأحوال . . . ثم ينتقل بى فكرى إلى زوجتى ، وما هى عليه من غرابة
طبع ، وتعتيد نفس .

ووضح لى أن صحتى تتهاوى . . . رأس يصخب بالآلامه وأوجاعه ، وجسم
تتنابه لفحات الحمى ، وأعصاب مستوفزة يقظلى ، ينتهى بها التوتر إلى
خَوَر وتهافت .

واضطربتُ أخيراً أن أنقطع حيناً بعد حين عن عيادتى ، ملازماً بيتى ،
ونصح لى رفاق الأطباء بأن أقضى وقتى فى راحة شاملة ، وأكّدوا لى أن
ما بى يرجع إلى إجهاد وإعياء .

ولكن أئني لي أن أذوق الراحة ، وهذه زوجتي تقاسمني حياة البيت ؟
إني لأقرّ بأنها لا تألّو جهداً في العطف عليّ ، والبرّ بي ، والعناية بما أنا
في حاجة إليه من علاج وتمرّيز . . . ولكن هذا كله كان يزيد في قلقي ،
ويضاعف من اضطرابي !

لقد أمسى البيت أمام عيني جحياً لا تطاق .
لكأنّ كل ركن فيه مغارة نكراء ، تتدسّس فيها عناصر أذّيّة وشر ،
متربّصة بي ، راصدةً فرصةً الإيقضاض عليّ ، والانتقام مني !
بل إن البيت كله لكانّه ملْتَقَى أحجار تزدحم فيها الثعابين ماكرة
غادرة ، ولكأنني بها تطلق فحيجها فأسمعه عَجيجاً في الأرجاء ، وتنفثُ
سمومها فأستنشقها ساريةً في الهواء !

وأدت بي الحال إلى أن أستوطن الفراش ، لا أبرّحه إلا قليلاً ، وكان
أكبر ما راعني أن أكون لهذا الفراش عبداً ذليلاً .

أما من وسيلة إلى تحطيم هذه القيود ؟ ألا سبيل إلى فرار ونجاء ؟
فإن لم يكن بدٌّ من بقائي رهناً وسادى ، فهل من ذريعة إلى أن أبقى
زوجتي مشدودة إلى جانبي بأغلالٍ ثقال ، لا تملك معها الانتقال ؟
ولكن ليس ثمة قوة في الأرض ولا في السماء تستطيع التغلب على
هذه الشيطانة الشّغوب !

رَبَّاه ! . . .

كيف سولت لى نفسى أن ألقبها هذا اللقب الذميم ؟ وهى التى تغدق
على من حنانها وعطفها ما لا عهد لى به من قبل . وحقاً إنه لحنان وعطف
لم آنسه من أحد غير هذه الزوجة الرائعة !

لست أنسى يوماً استغرقنى فيه نوم ثقيل الوطأة ، وجسمى كأنه سندان
تتعاقب عليه المطارق ، وأكاد لشدة وقعها تبين مساقط الضربات من أوصالى .
وبينا أنا كذلك إذ أنبهنى صوت ... أكان هذا الصوت منسرباً من
وليجة نفسى ؟ أهو صوت من أصوات تلك المطارق التى تدق جسدى ؟
أم هو صوت منبعث من الحجرة الملاصقة لحجرتى ؟ !

وكانت زوجتى ، ساعة نومي ، على مقربة منى ، فلم يكد الصوت يصك
سمى ، حتى ألفتنى أدير حولى نظرات متفرعة ملهوفة ، فلم أجد لزوجتى
من أثر .

ووجدتني على الفور أجاهد لأنهض ، وانطلقت من فى صيحة :

ما هذا ؟ من هناك ؟

ثم أرهفتُ السمع ...

لماذا صحتُ هذه الصيحة ؟ إنه لخطأ جسيم ، وفلتنة خرقاء !

كان أخزَم أن أعاجل الحجرة مفاجئاً .

وتحاملتُ على نفسى قائماً ، وأنا ألتخذ من الجدران عوناً على أن أخطو ،

إذ كانت ساقاى لا تقويان على حمل ذلك الجسد المهدود .

وأشرفتُ على الحجرة المجاورة ، وأنا أحدّ من بصرى ، فلمحتُ زوجتى
مدّدة على المتكأ ، وما إن شعرتُ بمقدّمى ، حتى أمرعتُ إلىّ تأخذ بيدي .
وكنتُ مُستترِقَ الأنفاس ، راجفَ الأعصاب . . . وسمعتها تقول :
لماذا أجهدتَ نفسك ؟

فقلتُ :

لقد ناديتُ ، فلم يلبّ ندائى أحد .
وما كدتُ أُلْفِظُ هذه الجملة ، حتى شملتنى ارتعاشة عارمة .
يا لتعسى !... ما زلتُ مندفعاً فى حماقتى ، أتعثر فى الكلام .
لماذا أخبرها بأنى ناديتها ؟
إنها سلسلة من الأخطاء ، أضيف حلقة منها إلى حلقة .
وسمعتُ زوجتى تقول :

معذرة . . . أخذتني إغفاءة !

ثم واصلتُ قولها فى حُنىٍّ بالغ :

تعال هنا . . . تعال نجلس على المتكأ معاً .

وَحَدَجْتُ المتكأ بعين تضطرم ، وأنا أبتاطأ فى خطاى إليه .
إنه المتكأ العظيم ، ذلك العرشُ الآثمُ الخدّاع الذى تكمنُ فيه الخناجر
المسمومة ، فلا أكاد أجلس عليه حتى تنغرز نصاله فى جسدى . . .
ورأيتنى على الرغم منى أتدانى منه ، وفى لحظة تهالكَتُ عليه .

وطوّفتُ ببيصرى ، أبحث عن المنضدة ، فصدمتُ عيني قائمة في ركن
منزو تحدّجني كأنها بؤمة مشئومة تلتهم في نظراتها السخرية والفناء !
والزجاجات ؟ ... أين هي ؟

إنها هنالك بلاريب ، في مكانها المهود عينه !
وندّت من فمي ضحكة أفرعتني ... أهي ضحكتي حقاً ؟ أم ضحكته هو ؟ .
هو ... إني لأحس أنفاسه الحبيسة تجيش تحت المتكأ ، فكأنني جالس
على برّ كانٍ تحتدم فيه الحُمم !

وقالت لي زوجتي ، وهي تنظر إليّ في دُعر :
أنتَ شديد الإضطراب ... ألا أحضر لك جرعةً من دواء ؟
فصحت :

بل شربة ماء !
فقد كنتُ أحسّ بجلتي قد جفّت حتى تشقق ، ولساني قد جمّد فلم أعد
أستطيع له تحريكاً بين شدّق !
وما أسرع أن عادت إليّ زوجتي بكوب ماء ، فقرّبته إليّ ، ولكني
جعلت أحدّق فيه برهة ، لا أمدُّ إليه يدي .
أكوب ماء هو ؟ أم قدح شبنانيا ؟ !

ويلي ! ... إن زوجتي مصرّة على أن تعيد الرواية كاملة الفصول .
يا لله ...! من النّزق أن أغالط نفسي ، فلا أُلقي بالا لتلك الحركة التي

أحسُّ بها تحت المُتَكِّ... .

ودفعتُ بالكوب جانباً ، وصرخت ، وأنا أحاول النهوض :

سأ كشف السر ، مهما يكن الأمر !

في تلك اللحظة ، غامت الدنيا أمامي ، وكأن ضباباً كثيفاً غَشِيَتْ

عيني ، ففقدتُ وعي على الأثر .

ولما تاب إلى رشادي ، ألفتني في حجرة غير حجرتي ، بل في دار غير

داري .

وكنْتُ كَأَنِّي قد أُجريتُ لي منذ قليل عملية جراحية ، فشرعتُ أصحو

من تأثير مخدِّر . بل لكأَنِّي قد مِتَّ حقاً ، أو توهموني مِتَّ ، فأُنزلوني

رمسى ، وهالوا على التراب ؛ فلما تَبَيَّنُوا أَنِّي مازلت حيّاً أخرجوني من

مَحْبِسِ الموت ، ووحشة القبر ، إلى حيث النور والهواء .

النور ... النور اللألاء الذي أُمْتِعُ به عينيَّ بهيجاً .

والهواء ... الهواء النقي الذي أَمْلَأُ منه رِئَتَيَّ مِنْعِشاً .

وهممتُ :

أين أنا ؟

وإذا صوتُها الحَنُونُ العذب يَحِينِي ، وقد أخذتُ بيدي تَلَاظِفُنِي :

أنتَ في المستشفى ... هي أيام قلائل تقضيها هنا للراحة والجَمَام !

إذن أنا في مستشفى ...

ولكن أى مستشفى هو ؟
 الأمراض الجُسْمانية هو ، أم لأمراض العقول ؟
 وتلك الأيام القلائل ...
 أتمضى سراعاً ، أم تمتد شهوراً وسنين ؟
 مجنون ! ...

ما ضرّنى أن أكون مجنوناً ؟ ...
 إنها تجربة جديدة أمارسها فى هذه الحياة ...
 يلوح لى أنها تجربة طريفة لطيفة !
 متاعبى تترايل ...

نور بهيج ... وهواء منعش .

وهى بجانبى ... هى ... دائماً هى !

واحتويتُ يدها الرّخصة بين يديّ ، أتوسّمُ مليّاً تلك الأصابع القانية
 الأطراف ، كأنها حبات « الكرز » اليناع ، ثم أدنيتها من فى ، وأودعتها
 قبلة جيّاشة زاهرة !

الحكمة لله

كان جالسا القرُفُصَاءَ في حجرته الفردية من السجن ، معتمداً ذقنه
بيديه ، رانياً إلى الحائط المعتم أمامه . ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر ،
فحجرتُه ليست كلها إلاَّ حوائط متشابهة .

وذلك الظلام الحميم على كل شيء ، كان يراه شائعاً حوله ، ويحسُّه يغمر
دخيلة نفسه . إنه الظلام الدائم العابس ، ذلك الزميل الوحيد الذي يلزمه
ولا يريد له فراقاً .

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصى لها عدداً ، ولم يكن يستطيع
أن يميز بين ليلها ونهارها ، فقد كانت الحجرة متغلغلة في مَبْنَى السجن ،
كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق ، تستخفي فيه عن الأنظار !

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس ، وإن كان يذكر
أن بصيصاً يَدْلِفُ إليه حيناً بعد حين ، فلا يعرف : أبقيةً هي من أشعة
الشمس استطاعت أن تُفِلَّتْ من بين الجدران والسدود ؟ أم فضلة هي
من فضلات أضواء المصاييح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمت الثقيل ... كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من
الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضيق الذى يحتويه ... صمت
متواصل يقطعه رنين أجراس السجن فى فترات متباعدة ، فيترامى هذا
الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً مزّق بعد الشقة أشلاء ، فلا يبلغه
إلا أصداء غامضة لا يدرك لها كُنْهاً ، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس
نفسه الموحشة .

وقد اتخذت هاته الحجرة فى ظلامها وصمتها وحوائلها المتشابهة الدائرة
حوله شكل بئر بعيدة المهوى ، كأنما انطبق فيها فلا منفذ لها ، وهو ملقى
فى قرارها كأنه إحدى الهوام التى تأوى إلى جحورها فى بطون
الغاوير والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ،
فراح يتلمس الهواء جاهداً .

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شقاً ... وسينفذ الحكم
يوماً ما ، إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه .

إنه ليدكر تلك اللحظة التى نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى
هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصلب المكتنز ،
ووجهه المستدير المظهم ذى العينين المتألفتين .

كان فى قفص الاتهام ، والحراس حوالينه ، وعيون الناس فى قاعة

المحكمة تنتهيه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواطق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قوياً ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنه كائن موجود لم يُمسَّ بسوء ، ويرى الناس حياله أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالى الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رجة ترخُّ بالنور والهواء والضجة .

لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حياً يتحرك ويتنفس ، ويستطيع أن يتكلم وأن يتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يهقه إذا أراد .

لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منه ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه ... وتهياً وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلئ قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحسَّ رِعْشَةً تَمْشِي في أوصاله فتوهن ساقيه . وهمَّ بأن يتسم ، فأحس بعضلات وجهه تنقلص كمن أجهد بالبكاء . أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتد إلى حلقة متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجَهْوَرِيّ الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وجوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة ، قائلاً : ما قَتَلْتُ إِلَّا مُنْتَقِمًا لَشَرِّ ... ربنا عادل ... الأمر لله !

وعَجِبَ لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ « عبد المتجلى » عزيز قومه وعמיד بلده في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب

من علم الشريعة قدرا ومن السلطان والتحكم نصيبا ، مَنْ استطاع أن يوفق في نظره بين روح التدين وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له . الرجل الذي أقام نفسه ، بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه ، حاكما مهيب الرأي مَخْشَى الجانب ، يفصل في المنازعات ، ويُنزل العقوبات بأصحابها دون أن يُرَدَّ له أمر أو نهى .

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقرّون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والمحامي والقاضي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيم في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جان فهو جانٍ ما من ذلك بُدَّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطئ ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفى أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع . بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضاائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لما أسرَّ إليه أحدُ أعوانه « سعداوى » أن « ستيتة » حَقَّ عليها العقاب ، إذ فرَّطت في شرفها ، وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبرا من الحب

والإعزاز... وبعد أن استيقن من «سعداوى» أن الأمر جد لا يحتمل التأويل، أحسَّ على الفور حَمِيَّةَ الشرف تَهْبُّ أعاصيرها بين جوانحه، فأقسم أن يثأر للشرف المثلوم، وأن يغسل ما لحقه من عار. وما عَمَّ أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه الفاصل على شقيقته وعلى شريكها في الإثم، ولم يَبْحُ بما تمَّ في محكمة نفسه لأحد.

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل، ترصد لغريمه المتهم بهتك عرض أخته وراء أكمة في منطقة غير مأهولة، وما إن رآه في الطريق آيًّا إلى البلدة قُبِيلَ الغروب، حتى رماه بطلق نارى، وهو يغمغم:

هذا جزاء الفاسق الأثيم!

وفي منتصف الليل دلف إلى مخدع أخته «ستيتة» وهى مغرقة فى سبات، فلم يزعمجها بإيقاظ، بل أخذ برأسها فوراً وأعمل السكين المسنونة فى رقبتها، فغارت فى أوداجها، حتى كاد يهوى الرأس عن الجسد، وهوىهمهم: الله أكبر! ... فلتموتى أيتها الفاسقة الأثيمة!

وترك الجثة تحتلج اختلاجاتها الأخيرة، والدم يشخب منها دَفَاقًا. ومضى يمسح السكين فى قبائنه، ثم ذهب فاغتسل، وأوى إلى فراشه، ونام ملء جفنيه.

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث؟ تَجَمُّرُ الأهلين، هَرْج ومرَج، شرطة ورجال تحقيق... ثم ألقى نفسه نزيل

السجن ... وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو ينتقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يُقسِم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكفتا يديه ، وحُجَّاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهناك : يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ، ويقفون بأسلحتهم المرهوبة .

تشابكت في رأسه المشاهد واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشَّى ذلك كله ضبابٌ متراكم . ولكن صورةً واحدةً بينَ آلاف هذه الصور الغامضة ظلت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوى » الذى سعى إليه بِتَهْمَةِ أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذى لم يكن فى الحسبان ... إن اعتراف هذا « السعداوى » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صَخَّابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهمه القتيلىين فى شرفهما لم يكن إلاّ تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنه إنما عمَد إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيلى لضغائن كمينه ، ومن « ستيتة » لأنها حرَمَتْهُ ما كانت تُجْزِلُهُ له من عطاء .

إذن لقد وضع للشيخ « عبد المتجلى » أن جانيته المزدوجة لم تكن فى موضعها . لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفيّاً أميناً ، قتلها بلا جريرة كأنه يلهو ويعبث ...

وَعَضَّ مِنْ بَصْرِهِ ، وَجَعَلَ يَقْرِضُ أَظْفَارَهُ بَعْفَ ، حَتَّى أَدْحَى أَنْامِلَهُ ،
وَصَعَّدَ زَفْرَاتِ حَرَرَى ... وَسِرْعَانَ مَا لَاحَقَهُ الرَّيْبُ : لَيْسَ بِمَعْقُولٍ أَنْ يَقْتُلَ
نَفْسَيْنِ بِغَيْرِ حَقٍّ . إِنْ فِرَاسْتَهُ لَمْ تَخْطِءْ مَرَّةً ، وَبَصِيرَتُهُ لَمْ تَكْذِبْهُ يَوْمًا ...
وَلَكِنْ مَاذَا يَصْنَعُ أَمَامَ اعْتِرَافِ ذَلِكَ « السَّعْدَاوَى » بِأَنَّهُ وَاشٍ
كَذُوبٌ ؟! ... وَمَاذَا يَصْنَعُ بِمَا أَقْنَعَهُ بِهِ مُحَامِيهِ مِنْ أَنَّهُ قَتَلَ بِلَا مُوجِبٍ ،
وَأَنْ شَهَادَةَ الشُّهُودِ وَقِرَائِنَ الْحَادِثِ كَشَفَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ سَاطِعَةً نَاصِعَةً ؟!
وَوَغِمَتْ الدُّنْيَا أَمَامَ عَيْنِيهِ ، وَازْدَادَ الْمَكَانَ تَجْهِمًا وَحُلُوكَةً .

وَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَاصْطَدَمَ بِبَصْرِهِ بِهِذِهِ الْجُدْرَانَ السَّالِخَةَ الْبَغِيضَةَ ، جُدْرَانَ
الْبُرِّ الْمَظْلَمَةِ الَّتِي لَا مَنَفَذَ لَهَا ... وَفَتَحَ عَيْنِيهِ جَهْدًا إِمْكَانَهُ ، وَرَاحَ يَحْمَلِقُ تَائِهَ
النَّظَرِ ... وَتَمَثَّلَتْ لَهُ اللَّحْظَةُ الَّتِي نَطَقَ فِيهَا كَبِيرُ الْقَضَاةِ بِحُكْمِ الْإِعْدَامِ : إِنَّهُ
لَيَرَاهُ الْآنَ أَمَامَهُ جِلِّيَّ الصُّورَةِ ، وَاضِحَ الْقَسَمَاتِ ، مُنْكَبًّا عَلَى أَوْرَاقِهِ ، فَإِذَا
رَفَعَ رَأْسَهُ تَرَأَتْ عَيْنَاهُ الصَّغِيرَتَانِ خَلْفَ نَظَارَتِهِ وَهُوَ يَرَكُزُ بِبَصْرِهِ دَائِمًا
فِي مَوْضِعٍ ثَابِتٍ لَا يَبْدُوهُ إِلَى مَنَصَّةِ الْمُحَامِينَ وَلَا إِلَى صَفُوفِ الْجُمْهُورِ وَلَا إِلَى
قِصَصِ الْإِتْهَامِ ، كَأَنَّهُ لَا يَعْنِيهِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ شَيْءٌ ... وَكَانَ ذَلِكَ الْقَاضِي
لَا يَفْتَأُ يَتَابِعُ حَرَكَةَ يَدِهِ إِلَى رَأْسِهِ ، يَخْلَعُ طَرَبُوشَهُ ثُمَّ يَعِيدُهُ مَكَانَهُ ، فَتُظْهِرُ
صَلْعَتَهُ مَلْتَمَعَةً وَتَسْتَخْفِي سَرِيعًا ... وَقَدْ نَطَقَ بِحُكْمِهِ فِي صَوْتٍ أَخْنَّ ، وَلَهْجَةٍ
فَاتِرَةٍ ، كَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ إِلَى جَارٍ لَهُ حَدِيثًا تَافَهًُا لَا يَثِيرُ الْإِتْبَاهَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ « عَبْدُ الْمُتَجَلَّى » مُنْسَرِحَ الْفِكْرِ فِي هَذِهِ الْأَخِيلَةِ ،

إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغته ... كلا لن يُشَنَّقَ ، ولن يمسه أحد
بضرٍ ... لقد قتل مَنْ قتل ثأراً للشرف ... إن أخته وصمت اسمه بل اسم
الأسرة بالعار ، فحقّ عليها القتل ... ولكن أ يكون قتل من قتل بلا أناة
ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السعداوى » والتحقيق آخذ مجراه ،
وانكبَّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردّد بصوت متحشرج :
لقد خدعتك يا « عبد المتجلى » ... لقد أثرت حفيظتك على بريئين .
أختك طاهرة طهرَ الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك
سترًا ولا أن يلحق بك عارًا ... عفوك ، عفوك !

وكان يصغى إلى استغفار هذا « السعداوى » ولا يلفظ من قول . إنه
يسأل نفسه الآن : لماذا لم يجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟
لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً
كالمتعوه لم يحرك ساكنًا ؟ إنه يذكر أن كل ما فعله ساعتئذ أنه ازورّ
بيصره عن « السعداوى » وهمهم :

إن الله لا يظلم من عباده أحداً ...

ثم طفرت من عينه دمعة ، فلم يمسه ، بل تركها تتهاوى على خده .
إنه ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك ، وجعل يتحدث إليه حديثاً
مسهباً مستفيض الحواشى ، لم ترسخ منه في ذهنه إلا هذه الجملة التى ختم بها
قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر

يا شيخ « عبد المتجلى » . الحاكم هو الله ! » ...

وانصرف عنه المحامى ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها
المرهوب ، وظلت هذه الجملة ترنّ أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه ... لقد
أحسن بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه ، وتسرى في أوصاله ،
تَحْزُهُ وخز الإبر !

وألقي لسانه يردّد ، وهو مطأطئ الرأس :

ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله !
واعترته بغتة نوبة بكاء حادّ ، وتمادى في نشيجه وهو يشعر أن ليس
لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يَجْمَلُ به أن يبكي ... قد يمر
على مقربة منه أحد الحراس فيسمعه ، فليكف كفّ دمعته ، وليكبح
ثائرة نفسه .

ورفع بصره وجمجم : إنما الحاكم هو الله !

أَيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذى
وقع فيه ؟ وإذا فُرضَ أنه كان عادلاً في أقضيته لم يَحِدْ عن جادة الحق
مرة ، فمن الذى نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم
من أهل بلده ، على فرض أنهم قد اقترفوا حقاً جرائمهم التى اتهموا بها
وتصدّى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملاسبات حياتهم ودوافع عيشتهم
وحدود تفكيرهم ما يَرُجُّ بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا الهارداً ؟

أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنه تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من الذرة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يُقدِّم على فعلته إلا لِيُطْعِمَ بنيه الجياع ؟

ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ؟ ها هو ذا قد قتلَ متوهماً أنه يؤدي واجباً لا قِبَلَ له بالتغاضى عنه ، فهو في حساب نفسه برىء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب ...

إن أىَّ رجل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحمية ، لما تردّد في أن يفعل ما فعل ، ويقتل من قتل : المأمور الذى قبض عليه ، ووكل النيابة الذى حقق معه وأدانه ، والقاضى الذى أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة ، لما تردّدوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان . إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذى يُقدِّرُ على الإنسان ما كسبت يده من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون . هى إرادة علوية تتصرّف فينا منذ الأزل ، فلْيَدْعِ البشرُ حُكْمَ السماء للسماء !

واعتمد الشيخ « عبد التجلى » رأسه بيديه ، وما لبث أن راح في سُبَات لا يدرى أطلال به أم قصر ... ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطعماً حوله ،

وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أى وقت هو ؟ أفى مَهْبط الغروب
 أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شىء حوله إلا الصمت والظلام !
 وأحسَّ بالوقت يمرُّ به الهوينى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد
 تعطلت حركته وجمد ...

لقد أضحي لا يفكر في شىء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجئ غريب ، شعور غامض لم يعرف كنهه يتوثب
 من أعماق قلبه متمسكاً له منفذاً . . . وتكاثف هذا الشعور ، وازدحت
 طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق .

وأُلقيَ في رُوعه أن الوقت الذى هو فيه إنما هو طلائع الصباح ،
 وتأكد له هذا الحدس . أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هى التى
 أَلقت في رُوعه هذا الشعور ، أم بصيرته هى التى أوحى بذلك إليه ؟

الشمسُ الآن في طفولتها تهادى على بساط الأفق بَسَامَة تنشر الضياء
 وتُشيع النشاط والحركة في رِحاب الكون . وهل نَسى تلك الساعة الرائعة
 في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في مُنْصَرَفِه من المسجد وهو
 يُنْقَل حَبَّات الشُبْحَة بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التى أَلِفَ أن
 يخْتِمَ بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حيَّاه نسيم السَّحَر وهو على المصطبة
 الفسيحة أمام داره ، وقد بُسِطَ عليها مفارشٌ صوفية زاهية الألوان ،
 وهو جالس يقرأ بعض كتب الشريعة والسَّير ، متذوقاً مستمتعاً بما

تَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ غِذَاءِ رُوحِي وَرِضَا نَفْسِي !

على هذه المصطبة نَعِمَ حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسةً وصفاءً ، وبإدله أحاديثَ كلها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سَدَّدَ إِلَيْهِ طَلْقاً نارياً أَرْدَاهُ قَتِيلاً . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تَزَخَّرُ بطلاب الحاجات ومن يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ يطلبون قضاءه في المنازعات . كان يقضى في هذا المكان شَطْرَ نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تُعِدُّهُ أخته له بارع الطهوِ مختلفَ الألوان شهياً .

أخته ! . . . وتراءت له السكين المُخَضَّبَةُ ، وهو يمسحها في قبائه ، ورأس القتيلة يتسائل منه الدم غزيراً .

أبريئة هي حقاً ؟ لقد اعترف « السعداوى » بأنه كان أفأكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار . . . وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ . . . إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها . . . الله هو العالم بالنيَّات والسرائر ، فله وحده الحكم ، وإليه يرجع الأمر كله !

وخَيْلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ شَيْئاً : أحرَكةٌ هي أم صوت ؟ أرهَفَ أذنيه ، وأَحَدَّ مِنْ بصره . إن الوقت صباح حتماً . . . وفجأته رِعْشة . لقد حدث أنه سَمِعَ قَبْلَ ذَلِكَ أصواتاً وحركات في مختلفِ الأوقات ، ولكن

جسمه لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، فقيم هذه الرعشة الطارئة ؟
إنه يُصغى في اهتمام . . .

لا ريب أن هناك حركة وهممة . أمِن الدّهليز صادرة ؟ أم من
تلك الكوّة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ .
إنها أصوات . . . إنه وقع أقدام . . .

وأحس بشعيرة تسرى في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحول كله
آذاناً صاغية .

أخرّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم . . . أم . . .
وتسمّرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فُتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن
والطبيب وشِرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل .
وخُيّل إليه أن حديثاً يُوجّه إليه ، وفطن إلى أن صدره يعلو ويهبط
متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحدُ الحُرّاس فطوره . إنه أجود فطور
وقعت عليه عيناه منذ حلّ في السجن . . . ووجد يده تمتدّ في تباطؤ
وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحسّ بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ،
ولكنه استطاع أن يضبط أنامله ، وأن يُيلقي بالقيمة بين شذقيه . لقيمة
واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجُرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض
متقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح قمه بظهر يده ، وردد في صوت أجهر من ذى قبل :

الحمد لله على نعمتك يا رب !

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألقى الجمع يتأهبون للخروج .
وقد عقدت ثلثة الحراس حوله نطاقاً ، وساروا جميعاً .

كان مُمتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء .

وشاعت على مُحبيّاه بسمة غامضة : أْبْسَمَةُ أَسَى هِيَ أَمْ بِسْمَةِ تَهْكُمْ ؟

وكان لا ينفك يردد : الحمد لله على نعمتك يا رب !

وسار في الدهليز تغمره لُجَّة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مُبْهِمَة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تَوَّاب . . . من هو الشيخ « عبد المُتَجَلَّى » بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تُجَازِي الناسَ سُوءاً بِسُوءٍ وإحساناً بِإِحْسَانٍ ، أما اللهُ جلَّ شأنه فإنه لن يقابل الذنبَ إلا بالعفو والرضوان . وسيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حُجَرِ السِجْنِ إلا بهذه المِنْصَّة الصغيرة التي تدلّت عليها من السقف أُخْبُولَة مفتولة . . .

أَتَكُونُ الْمِشْتَقَّة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفرّعة ، ليس فيها

ما يبعث على العَجَب ، إنها لأشبه بأَرْجُوحة الصَّبِيَّانِ في القرية !

وتجمّع إحساسه حول نفسه ، وتعمّق في دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما

حوْلَه ولا بمن معه . لقد أصبح نائياً عن المحيط الذى هو فيه بجُسمانه .
وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة .

وخُيِّل إلى الشيخ «عبد المُتَجَلَّى» أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسبابَ
الحكم عليه .

وأبصر خلف الضباب الذى كان يَغْشَى عينيه شبحاً يدنو منه ويأخذ
بكتفيه ، فألقى نفسه يدفعه عنه .

ووجد قدميه تخطوَانِ نحو المِنْصَةِ .

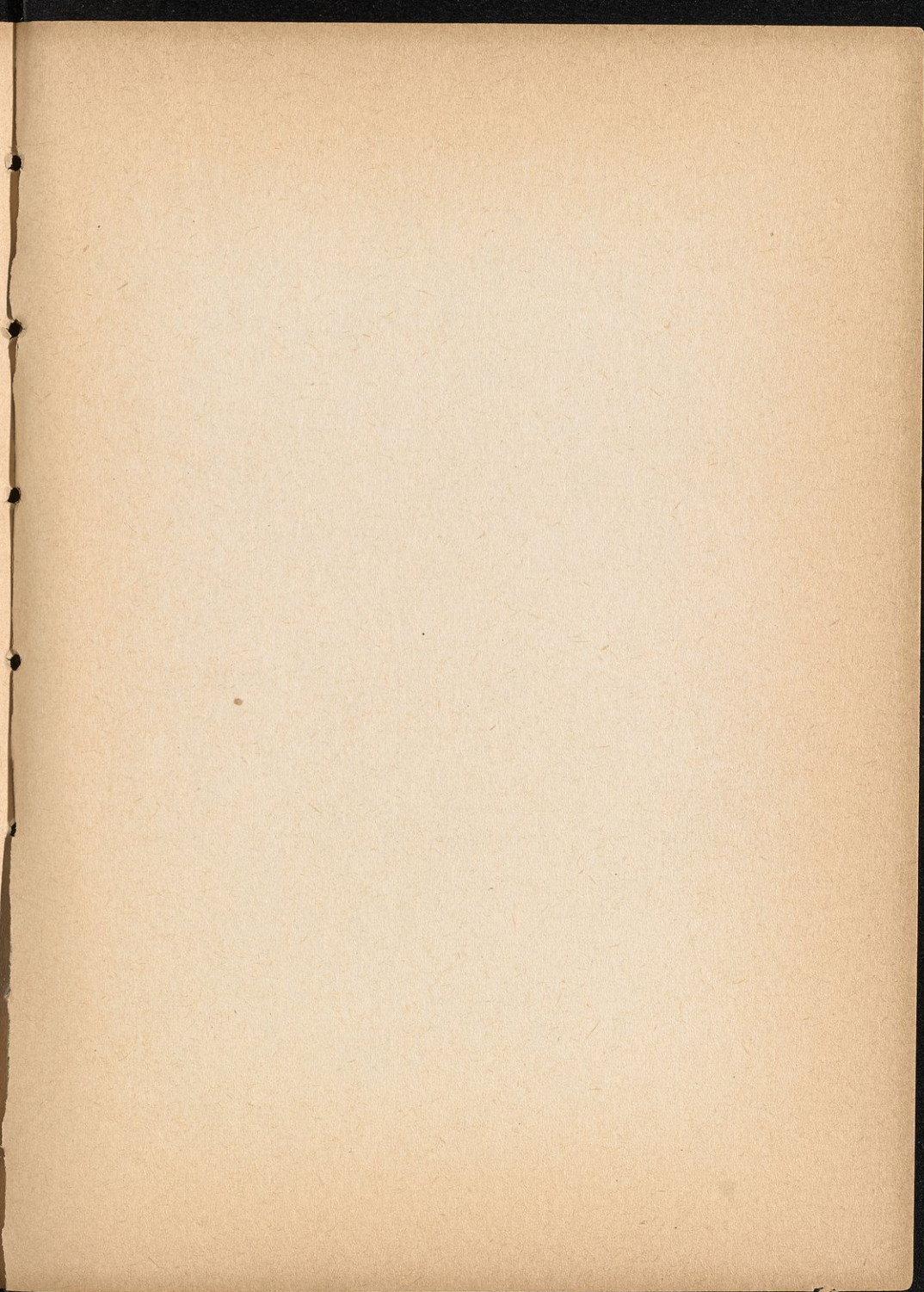
وفى هذه اللحظة طرق سمعه صوتٌ قائل :

ألا تشتهى شيئاً ؟ بماذا تُوصى ؟

وأحسَّ يداً تُدِيرُ الأُخْبُولَةَ حول عنقه ، فأجاب بصوت يَبِينُ :

إني برىء . . . كلنا أبرياء . . . الله وحده هو الذى يملك الحكم

على عباده !



قَبْلَةُ مَرْهُونَةٍ

هي ابنة عمِّه .

كلاهما في زهرة العمر ، وبَسْمَةِ الصَّبَا ، ولكنها تَكْبُرُهُ بأعوام
قِلَال . وقد جمَعَتْهُمَا نشأة واحدة ، فتلازما منذ الطفولة الباكرة .
وكان أصْفَى وقت يغتنمه وقت لقائه إياها ، يرتقبه على شوق متجدِّد ،
ويُعِدُّ له العُدَّة كأنما هو يستقبل العيد .

أنا يساجلها الحديث ، وحيناً يجلسان معاً إلى المذِيع يُنْقِلَان سَمْعِيهما
بين مَهَابِّ الأنعام ، وطوراً يتناوبان كرسى « البَيَانِ » متباريين في
العزف والغناء .

وكثيراً ما جعل يُخَالِسُهَا النظرات ، مجتلياً مَفَاتِيحَها في نشوة واستمتاع .
فإن فطنتُ إلى ذلك منه سَنَحَ على ثغرها ابتسام ، وأسرعت تجاذبه
الحديث في شأن يشغله .

إنها لتعلم ما يتناجى في صدره من شَعَفٍ بها وهيام ، بيد أنها لم تبادلْه
إحساساً بإحساس ، دون أن تدركَ لذلك من سبب ، فما يزيد شعورها
نحوه على صداقة رفيق ، ومودَّة ذى قُرْبَى .

وإذا خلتُ إلى نفسها نازعها إشفاق عليه ، وربما انقلب هذا الإشفاق ضيقاً به ، ضيق الأخت الكبرى أمضها أخوها الصغير بلجأته وإتقاله .
وكما خطر ببالها ذلك تراءى حيالها طيف آخر ، طيف الطبيب الذى تولى شأنها فى المستشفى ، فاستأصل لها الزائدة الدودية منذ أشهر .

قائمة باسقة ، وعَيْنُ فَوَّارة ، وشباب يانع !
فأين منه ذلك الغلام العزير الذى أحاله الغرام شمعاً تذوب ؟ فهو بادى الضراعة ، سليب الإرادة ، ينحني عند أية إشارة . . . على حين أن الطبيب يعلوبها متهمة ، ويستعزُّ بمهانته ، فتحسُّ الفتاة انطواءها فى ظلِّه ، وفناءها فيه .

لا عجب فى أن تؤثره بالمكنون من قُوَّةِ العاطفة وجوهر الشعور .
لا يكون لها أن تستكثر ذلك عليه ، فإنها لتجدَّه يطارحها رقيق الحديث ، ويؤليها حُسْنَ الرعاية ، ويخصُّها بمزيدٍ من اللطف والإيناس .

ظل الطبيبُ يختلفُ إلى دار الفتاة بين القَيِّنة والفينة ، يشرف عليها فى فترة استكمال العلاج ، فيطيبُ لها أن يطول معها مُكُونُهُ ، وتتحيلُ لذلك جُهْدَ ما تستطيع .

ولا يفوتها أنه مغتبط بزوراتها لها ، راضٍ عن الوقت الذى يقضيه فى مجلسها وإن طال ، إذ يستمرُّ حديثها فى طمأنينة وارتياح .

وقد تتلاقى عيناها ، وتتلامس يداها ، ويتراخى بهما الوقت على تلك الحال ، ثم يستدركان أمرهما ، تعروهما اختلاجة المأخوذ !

و ذات يوم غدا إليها ابنُ عمها على مألوف عادته ، ففسيحت مجلسهما غاشية من الغموض والقلق .

كلاهما بين جنبيه خبيثةٌ يضيق بها الصدر ، وكلاهما يرصد فرصةً تتيح له أن يخفف عن نفسه .

أمشاج من الحديث مبتورة ، ووقفات من الصمت مُتجهمة .
ودلفت يداها إلى صحيفة مصورة ، فانطلقا معا يعبان بتصفحها عبثاً مغلوبٍ على أعصابه .

وعلى حين فجأة ، استقرت يداها على صورة أخذت بلبيها ، فجعلا يرنوان إليها في إمعان . ولبثا كذلك فترة لا يحيدان عنها ، ولا يرويان منها على طول النظر .

كانت الصورة تُمثلُ قبلة من القبلات السينمائية الحافلة .
ورفعت الفتاة بصرها الهويني ، خف بها الفكر إلى أفق رأت فيه نفسها بين ذراعى طيبيها الشاب ، وقد التحما في قبلة ريانة نائرة .

أما ابنُ عمها الفتى فقد اتجه بعينه إلى مُحَيَّا الفتاة يتوسمها ، ثم سدّد نظرتَه إلى ثغرها في تشوّف ، وبين حناياه تتقد أمنية جامحة . . . هي أن

تتأخَّر له يوماً نهلةً فيأخذه من ذلك النبع المعسول !
 ونَدَّت من صدر الفتاة تَنَهَّدَةً حياشة ، فإذا الفتى يتتدَّرها مسائلًا :
 ما بِكَ ؟

فأجابته الفتاة ، وهي تسرَّحُ البصر في الفضاء ساهمة :
 هي أمنية تلوح في خاطري ، وإني في سبيل تحقيقها لراضية أن أبذل
 كل شيء .

— أيسوغ لي أن أسألك : ما هي تلك الرغبة ؟

فلاطفت كتفه ، حانيةً عليه ، وقالت :

ما زلتُ أعرف فيك هذا الفضول !

— أتَضيقين بسؤالي ؟

فأرسلت ضحكة عابثة ، وأجابته :

حسبكَ علماً أنها أعزُّ أمنية لي في الوجود !

وما أسرع أن اكتسى وجهها برونق البشر ، وسبَّحت على قسماتها
 أطياف الأحلام .

ثم وقفت كأنها تتأهب لاستقبال أمنيته الغالية ، تلك القبلية المشتهاة !

وألقى الفتى نفسه يقترب منها ، وهو يهمهم :

هَيَّيْ أَنْ أَمْنِيَّتِكَ قد دانتْ لك ، فهل لي أن أتمنى عليك شيئاً طالما
 صَبَتْ إليه نفسي ، وتعلق به هواي ؟

فواجهته لحظةً تُصعد فيه البصر وتُصوبه ، ثم قالت :

وماذا تتمنى على ؟

— مَطْلَبًا لَا يُعْنِيكَ أَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُ ، وَهُوَ عِنْدِي لَا يَعْدِلُهُ مَطْلَبُ
أَيَّ كَانَ .

— أَيْ مَطْلَبٌ هُوَ ؟

— عِدْنِي أَوَّلًا ، وَأَنَا أَجَاهِرُكَ بِهِ .

فتضاحكت وهي تتراجع عنه بخطوات خفاف ، وما عَتَمَتْ أَنْ قَالَتْ :

يَا لَكَ مِنْ طِفْلِ غَرِيرٍ !

فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَقُولُ فِي اهْتِياج :

أَتَعْدِينَنِي ؟

فَكُنْتُ عَنْهُ عَظِيمِيهَا فِي تَدَلُّلٍ ، وَمَا لَبِثْتُ أَنْ عَادَتْ تُولِيهِ وَجْهَهَا بِاسْمَةِ

التغر ، وهي تقول :

حَسَنًا يَا رَفِيقَ الصَّغِيرِ . . . لَكَ مِنِّي مَا تَشَاءُ إِنْ تَحَقَّقْتُ أُمْنِيَّتِي . . .

أَفْصَحْ عَمَّا تَتَمَنَّى !

وَمَدَّتْ إِلَيْهِ بَصَرَهَا مَلِيًّا ، تَتَأَمَّلُهُ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ تَضَرَّجَ وَجْهَهُ دَفْعَةً

وَاحِدَةً ، وَتَتَابَعَتْ أَنْفَاسَهُ ، وَاخْتَلَجَتْ أَوْصَالُهُ ، وَنَبَسَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ

مَتَعَثِّرَةً عَلَى شَفْتَيْهِ :

أَنْ تَهَبِّنِي قَبْلَةَ مِنْ تُغْرِكَ الْحُلُوفَ .

فوقفت تحَدِّجُه في صمت ، وقد تَلَأَلَّت على فمها ابتسامة وضاحية ،

ثم قالت :

قبلة ؟ !

فنداني منها ، شاخص البصر إليها ، تفيض عيناه بالأحلام ، وغمغم :

أجل ، قبلة . . . قبلة فوارة تشفى الغليل !

فصلصلت ضحكاتها عالية الرنين ، وقالت :

أجأذ أنت فيما تقول ؟

فأجابها راعش الصوت ، مسحور النظرات :

الجِدِّ كُلُّ الجِدِّ فيما أقول !

فاستدارت على عقبيها ، وهي تقول له :

حقا لقد برهنتَ على أنك لما تَزَلْ طفلا .

وأرسلت ضحكات عابثة ، ثم تقدمت إلى المرأة تتوسَّمُ مثالها مزهوة

بما ترى من حسن وإشراق .

وما هي إلا أن انسحرت تفكر . . . إنه حقاً طفل غريب . . .

ولكن لماذا تعُدُّه طفلا ؟ أَلَا نَهْ استوهبها قبلة ؟ !

وهي ؟ أليس لها مثل هذه الأمنية عند طيبها الشاب ؟ !

وشملتْ مُحِبَّيَّهَا اختلاجة . . . قبلة رَهْنِ قبلة . . . لن ينال فتاها

ما تهفو إليه نفسه ، إلا إن نالتْ هي من قبْلِهِ ما تهوَى ... لن تعطى
قبل أن تأخذ !

يا له من مسكين ! ... بل يالها من مسكينة !

وترادفت الأيام ...

وساعةً أمّ الفتى دارَ ابنةِ عمه ، كما هو شأنه ، وصعد الدَّرَج ، وقلْبُهُ
مُنْتَشٍ بما هو مُقْبِل عليه من لقاء .

وأنهى إليه الخادم أن الطيبَ الشابَّ مع الفتاة في حجرتها .
فكث في البهْو ينتظر انصرافه ، وسرى فيه اضطراب لا يدري ما تأتاه ،
فهض يذرْعُ البهْو بخطى متشنّجة .

وساقته قدماه إلى باب الحجرة على غير عمد . إن بالباب فرجة قليلة ،
وإنه لمستطيع أن يتحرّفَ حتى يرى من في الحجرة دون أن يراه أحد .
وسرعان ما أنكر على نفسه هذا الصنيع ...

كيف يستبيح التطلع والتعرّف بغير وجهٍ حق ؟
وأدبرَ عن الباب يقطع خطاه ، ثم ألقيَ قدميه تعودان به حيثما إلى
الباب ، وإذا هو يقف مرتقبا يسترق السَّمْع ... إن أصداءً من الهمسات
الرّقاق تتوارد على أذنيه ، وإنها لتثير فيه الفضول ... فازداد إصغاه ،
ثم وجد نفسه يخالس الحجرة النظر ، وقلبه دائبٌ الخفوق .

وَيَلَاهُ . . . هما يتعانقان ، هما يَذُوبَانِ في قبلة حامية متقدة ، لا يُسْمَعُ
لهما إلا أنفاس مصعّدة . . . يا لله من هذه القبلة التي لا يهدأ لها أوار ،
وكأنها في امتدادها دهر موصول !

وتراخت أوصاله ، والتمس أقرب مقعد ، قتهاوى عليه ، لا يدري أطل
به الوقت في جلسته أم قصر ، ولكنه يحس كأنما التقيته برُختنقة الجو ،
بعيدة القاع !

وأخيراً شعر الفتى بالطيب تتأب عنه الحجرة ، والفتاة بذراعه متعلقة .
وجاز كلاهما به ، لم ينتبها لوجوده .

وتابعت الفتاة سيرها تودّع طيبها الشاب !
وفيا هي عائدة إلى حجرتها وقع بصرها على الفتى ، وقد همّ أن يهزّب
من الدار ، ناجيا بنفسه من هذا الموقف العصيب .

فصاحت به الفتاة مرحبة بمقدّمه ، ووَجَّنتها تضطربان من بهجة
ومراح ، وعيناها ترَفَّانَ رَفِيفَ النشوة والاهتياج .

ومثلت أمامه مُنْبَرِيَةً تقول :

أَبْشِرْ يا رفيق . . . لقد تحققت لي الأمنية . . . وحان أن تطالبَ
أنت بما تتمنى !

فارتسمت على فم الفتى ابتسامة نكراء ، يتجمّع فيها التقرّز والاشمئزاز .
وغنم قائلا :

هنيئاً لكِ ما بلغتِ من المُنَى !

فأخذتُ بيده تلاففها ، وهى فى غفوتها لم تكد تصحو .

وقالت له :

إنى عند وعدى إياك !

وتدفقتُ فى حديثهما تقول :

ما أسعدنى اللحظة ! . . اطلبْ ما شئتُ . . . فإنى واهبتُكَ

ما استطعتُ . . . إنى . . .

فقاطعها ، وقد سلَّ يده من يدها ، قائلاً فى صوت متحشرج :

تستطيعين أن تهَبِ كل شىء ، ولكننى أنا لا أستطيع أن أقبلَ

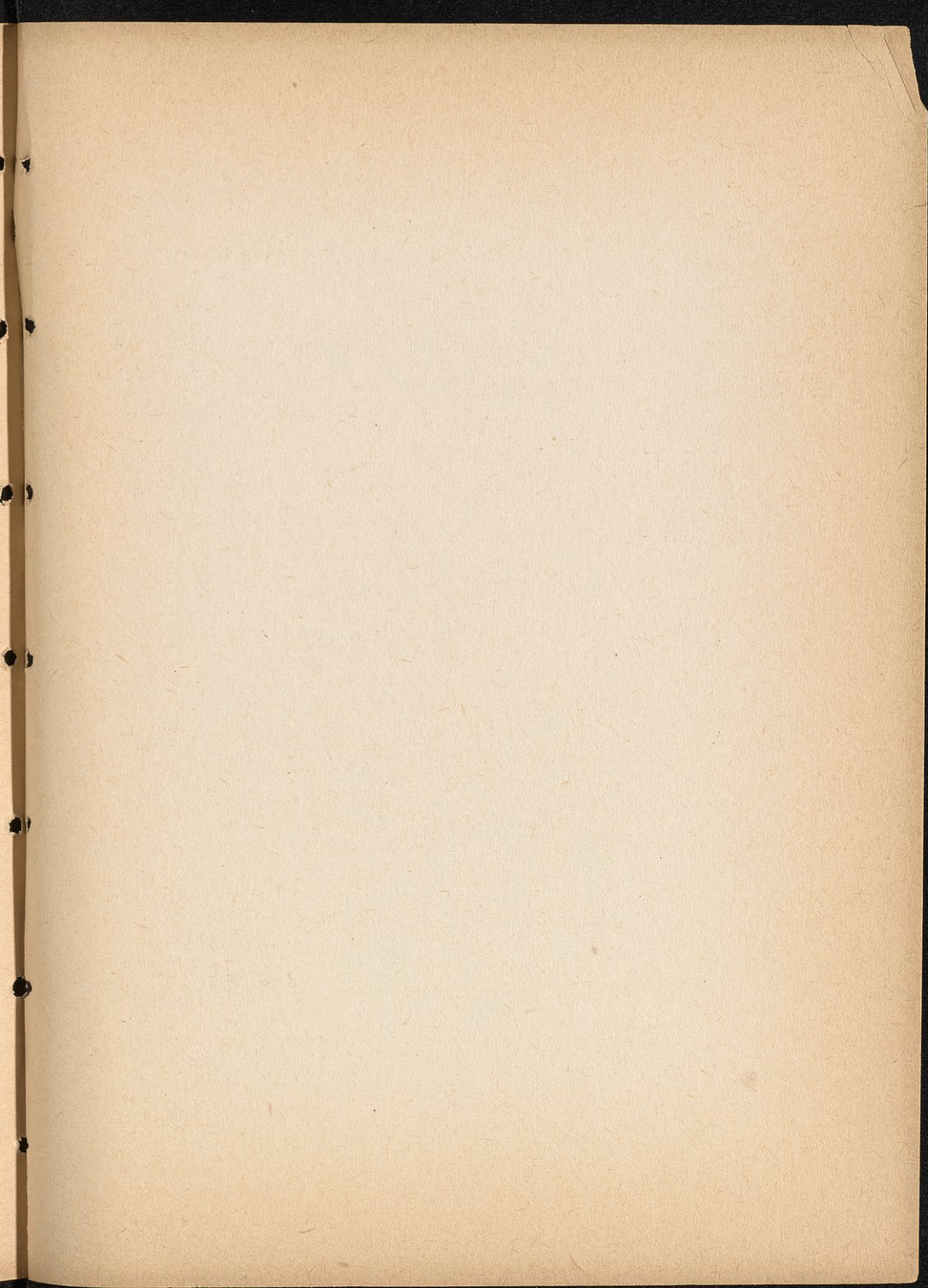
منكِ شيئاً !

ونكصَ عنها خُطوات ، وهو يَقْدِفُها من عينيه بنظرات يتجلى فيها

البغض والحنق .

وانطلق يغادر الدار ، وقد صاح قائلاً :

وداعاً ... وداعاً إلى الأبد !



في ظِلِّ اللَّيْلِ

أسطورة فرعونية

في أوَّل يوم من الأيام كان الشيخ « حابي » في بستانه الصغير أمام داره المتواضعة يتعهد نُحَيْلاته ويتنزه . فاسترعى انتباهه خَفَقُ أَقْدَام ، فالتفت نحوَ مصدرِ الصوت ، فإذا بفتى يسير صَوْبَهُ وهو يدفع — في جَهد — قدميه المُتَعَبَتَيْنِ ، وقد علاه الغبار ، فاخترقت ملامحه . بَيَدَ أَنْ الناظر إليه يستطيع أَنْ يَلْمَحَ في عينيه على الفور حيرة الغريب .
وكان الفتى يحمل في يده صُرَّة . فحَفَّ الشيخ للقائه ، وما إن اقترب منه ، حتى سمعه يقول في صوت الهامس :

الشيخ « حابي » .

— هَؤُلاَءِ ... ما مطلبك يا بُنَيَّ ؟

ووجد « حابي » الفتى يتخاذل أمامه ، فأسرع إليه ، وأسنده إلى صدره محيطاً إِيَّاهُ بذراعيه ، وقال له :
أمريض أنت ؟

— بل جائع !

وسار به « حابى » إلى داره فى رِفَق ، وأجلسه بجوار الباب على مصطبة عارية . وتركه برهة ، ثم عاد إليه بإبريق مملوء باللبن ، فأخذ يَعْْبُ منه الغريب حتى شَبِعَ ... وبعد أن تنفَّس طويلا تتم بكلمات الشكر لِضَيْفِهِ ، ثم أطرق وقتاً ... وأخيراً رفع رأسه وسَرَّحَ بصره فى الشيخ ، والكلمات تتراءى حَيْرَى على شفثيه .

وابتسم الشيخ ابتسامة تنطوى على عطف وطِيبَةٍ ، وقال :
تكلم يا بنى ، لا تخشَ بأساً ... ما حاجتك ؟ إن « حابى » لا يريد
حاجة الغريب !

فأمسك الفتى بيد الشيخ ، وضغطها فى انفعال ، وقال :
لقد حَدَّثُونى أنك تأتى بالمعجزات ، فسعيتُ إليك أطلب معجزة !
فتأمل الشيخ وجه فتاه طويلا ، يحاول أن يَسْتَكِنَه ما خلف تلك
الصفحة المُرَبَّة التَّعْبَةِ من خَفِيَّة نفسه ، وقال :
معجزة ... لستُ كاهناً يا بنى !

— أنت أعظم من كاهن ..

— أفصَحْ عن غرضك !

— إن قوة تعاويذك وعقاقيرك يا أبتِ مستمدَّة من روح الآلهة .

— أنا حكيم زاهد ، قد أنجح فى مداواة النفوس وتطبيب الأجسام .

وحدّق الفتى فى الشيخ بعين جاحظة ، ثم هَبَطَ أمامه ، وقال وقد
تَشَبَّثَ بثوبه :

وَحَقٌّ « إيزيس » لتَنزَعَنَّ نفسى من بين جوانحى ، وَلَتُلْقِينَ بها
بعيداً عن جسدى !

— هَدَّيْ من رَوْعِكَ .

— إني أَمَقْتُ هذه النفس الخاملة المَيِّتة ... لَتَخْلُقَنِي خَلْقاً جديداً ،
ولتَجْعَلَنِي منى رجلاً ذا بَأْسٍ واقتدار !
وجعل الشيخ يلاطف رأس الفتى ، ثم أَنهَضَهُ فى وداعة ، وأَجْلَسَهُ
بجواره . وبعد حين قال له فى هدوء ورزانة :

ارو لي قصتك يا بُنَيَّ ... إني مصغٍ إليك فى انتباه !

ودعّم الفتى وجهه براحتيه ، وراح يرسل الطرف أمامه فى ذلك الفضاء
العظيم ، حيث يبسط الغسق على الكون غِلالته السوداء .

وانصت برهة إلى ما يحيط به من صمت شامل . ثم تكلم فإذا به يقول :
أنا « راموسى » . . ولكن ماذا يَهْمُكَ من اسمي ؟ إن « راموسى »
نَكِيرَةٌ لَا يُحِسُّ وجوده أحد !

— تكلم ...

— إني أَسْكُن على مَسِيرَةِ شهر من هنا .

— فى بلدة « رنسى » ؟

— نعم !

— ذات المعابد الأربعة والمسَلَّات الخمس !

فواصل « راموسى » حديثه ، وقد رقَّ صوته وضعف :

وحيث تسكن الأميرة « أشمس » !

وطأ طأ رأسه حيناً ، ثم رفع عينه بقتة ، وسدَّدها فى وجه « حابى » ،

وقال فى صوت غير متساوٍ النبرات :

أريد أن أكون عظيماً ... أريد أن أكون مثرياً ... تزخر خزائنى

بالأموال .. أريد ...

فابتسم الشيخ فى هدوء ، وقاطعه قائلاً :

إنه ليس بالطلب المستحيل .

فاستنار وجه الشاب بلعة متلاثلة ، وقال :

إذا ستأتى لى بمعجزة !

— إن ما تسميه أنتَ معجزة يا بنىَّ أسمىه أنا أمراً قد يستعصى على

بعض الناس ، ولكنه فى مقدور آخرين !

فَهَوَى « راموسى » على يدى الشيخ ، وانهمال عليهما تقييلاً

وهو يقول :

شكراً ، شكراً ! سأذكر لك ذلك الجميل ما حييتُ ، وسأعوّضك

عنه أضعافاً مضاعفة .

ثم رفع رأسه ، وقال :

أما الآنَ فليس لى ما أقدمه لك سوى ...

وتعثرَ لسانه بالكلمات ، فسكت ، وأشار إلى الصرة التي بجواره ،
وفتحها بيدٍ راعشةٍ أمام « حانى » ، فنظر فيها الشيخ ، فإذا بخليط
من قطع المعادن ، بينها شىء قليل من الفضة والذهب .
وتابع « راموسى » كلامه وقد غَضَّ من بصره :

هى كل ما تَبَقَّى لى مما أملك !

— أبقِها لك .

— إنها قليلة ... أعرف ذلك !

— كلا ، فهى كثيرة إذا كانت منك . وهذا يكفى ... ولكننى

لستُ فى حاجة إلى عطاء الناس .

— أبت !

ونفض « حانى » فى هدوء ، وهو يقول :

ألا ترى يا بنى أن المساء قد أقبل يحمل فى أعطافه برد الليل ، وأنا كما

ترى شيخ ... ؟ !

— هَيَّا .

وتركا المصطبة ، ودخلا قاعة غير رحبية ، بسقف منخفض ، تكاد

تكون عارية إلّا من حصير وغطاء .

وأشعل « حابي » مصباحه الزيتي ، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار
وقد طوى يديه إلى صدره .

وجلس « راموسى » قبالة الشيخ متربعا ، لا يفصله عنه إلا المصباح .

وانقضت برهة لم يتكلم فيها أحد منهما .

ثم سُمِعَ « حابي » يُردّد في صوته الرزين :

إني مُضغٍ إليك !

فلم يحوّل الفتى عينيه عن المصباح ، وقال :

كيف أبداً لك قصتي .. حقاً إنه لجنون ما فكرتُ فيه ... غير أنى

لستُ نادماً على شيء ... لقد كنتُ أحيأ يا أبتِ مُتَبَطِّلاً أخرج من

دارى المهدمة إلى النهر أنزله على شاطئه حيث بساتين الأمراء ، أقضى اليوم

كله منتقلاً بينها أستمع بمراى الرياحين ، وأستنشق عرْفَهَا الذِّكْرَى . فإذا

تعبتُ استرحتُ بجوار الماء ، وأخرجتُ نايي أناجيه ويناجينى !

— أموسيقى أنت ؟

— لَمْ أَجْرِبْ أَنْ أَصْفِرَ إِلَّا لِنَفْسِي .

وأخرج « راموسى » من ثنايا ثيابه نايًا من غاب ، ساذج المظهر ،

وأراه الشيخ قائلاً :

إنه زميلى الذى لا يفارقنى أبداً ... زميلى المطلع على سِرِّى ، العالم بما

يحيش فى قلبى من أمان وأطماع !

- أمان وأطاع قد تبدو لك بعيدة التحقيق ...
- إننى أضعها بين يديك ، فافعل بها ما أنت صانع !
- ألم تكن راضياً عن حياتك الهادئة ؟
- كل الرضا !
- إذاً « هي » التي غيّرتْ حالك .
- من هي ؟
- تلك التي ذكرت اسمها مُشرِّفاً بذكره مدينة « رنسى » !
- نعم ، هي « أشمس » أميرة الأميرات ، وأقربهنَّ صلةً بفرعون الأعلى !
- أتمِّم حديثك . .
- رأيتهُ يوماً تتنزه في بستانها ، فسَحَرَنِي من أول نظرةٍ جمالها . رأيتهُ ترتاد الخمائل في حاشيتها ، فجعلتُ أرقبها خلف دَغَلٍ من الأشجار ، وأضاءت نفسي على الفور شمس وهَّاجة كَسَفَتْ لِي دُنْيَا عَظِيمَةً كانت محتفية عني ، وإذا بي أقطع على نفسي عهداً بأنها لن تكون لسواي ... ولما عدتُ إلى داري ، وراجعتُ هَجَسَات ضميري ، هَزِنْتُ بنفسي وكلِّي سخط وألم ، ولكن عهدي ما زال ثابتاً على الرغم من كل شيء لا يتقهقر ولا يتزائل ، بل يتقدم في جُرْأة وإقدام ... ولكن كيف أنفذ ذلك العهد ؟ هذا ما كان يَحِيرُنِي وَيَحْزُنُ في قلبي . منذ ذلك اليوم جعلت

طريق إلى بستانها لا أعرف سواه ، أفضى على مقربة منه يومى أراها
ولا ترانى ؛ فإذا ما صعدتُ فى قصرها انتحيتُ نحو الشاطئ وتخيرتُ مكاناً
ظليلاً ، وبثتُ شكواى للنأى ، فكنت أسمعُه أحياناً يهمس لى :

« لماذا لا تحاول التقرب إليها ؟ ... لماذا لا تكشف لها عن
كوامن صدرك ؟ »

— ولماذا لم تدعن لما أوحى لك به صَفِيكَ النَّأى ؟

— أتريد منى أن أستمع لذلك الساذجِ الغرير ؟ ألم أقل لك من هى ؟
إن فيها من دَمِ الآلهة يا أبتِ ! ... كلنا نعلم أن عظاماً تقدموا إليها
بقلوبهم فردَّتْهم خائبين ... لقد أمضيتُ يا أبتِ الليالى الطوال أفكر
فى مصيرى معها ... لا بدّ أن تقع مُعْجَزةٌ تُحوِّلُنِي من صعلوكٍ بائسٍ إلى أميرٍ
يفوق جميع الأمراء ، يرضاه فرعون وترعاه « إيزيس » ... وكان أن
اشتدّ بى الضيق يوماً ، فجريت صَوْبَ النهر ، وهممتُ أن ألقى بنفسى
إلى التماسيح ... فى تلك الساعة الفاصلة سمعتُ هاتفاً يقول لى :

« اذهبْ إلى « حابى » الحكيم ، فعنده تتمّ المعجزة ! » .

فتمت الشيخ « حابى » :

أقال لك الهاتف ذلك ؟

— قَسَمًا « بإيزيس » ربة الأرباب لقد سمعتُ صوته واضحاً يرنّ فى

أذنى ، وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها تنظر إلى مُتَمَنِّرة ، فوجدتُنِي

في لحظة أقفز متراجعا عن النهر ، وانطلقتُ أعدو ... أ كنتُ أعدو حقاً ؟
لا أدري ! كنتُ أحس أني محمول بقوة خارقة غير منظورة ... وفي الغد
بعتُ ما أملك ، واستصفيتُ مالي ، وحملتُ زادي ، وسرتُ ووجهتي
دارك .

فأمسك « حابي » بيدي « راموسى » وضغطهما وهو يقول :
ستم المعجزة يا ولدى ... فعولُ على .
— إذاً ستجعلنى أمير الأمراء ، وإذاً ستجعل من « أشمس »
زوجة لى .

— إن علمى لا يتناول إلى مثل هذه الأمور .

— كيف ؟

— كل ما أقدر عليه أن أعمل على تغيير نفسيته .

— أوضّح يا أبت !

— سيتغير فيك كل شيء ... شمالك الأصلة ستقلب إلى ضدها :
الحمول سيفقدو نشاطاً متأجباً ، والقناعة ستكون طمعاً صاخباً ، والرحمة
ستفسح مكانها للقسوة والعنف ... ستكون حياتك يا « راموسى »
كالبركان الفوار ، لا يجبو له لهب ، ولا يسكن له زئير !
فطأطأ « راموسى » رأسه ، وقال :
أبت !

— ليس تَمَّةَ طريق ينيلك ما تطلب من ثروة وجاه ومجد إلا هذا الطريق !

وصَمَّت « راموسى » فترة ، ورأسه منحني على صدره ، وبغثة رفع وجهه إلى « حابى » وقال :

ولكن حَبِّى ، حَبِّى . . . أيعتريه تغير ؟

— حُبُّكَ باقى بقاء الرُّوح الخالدة . . . ولكن !

— ماذا ؟

— أوافق أنك ستكون سعيداً بنفسك الجديدة بعد أن تَتِمَّ المعجزة ،
وأنه لن يطول بك الحَيْنُ إلى نفسك الأولى ؟

— . . . افعلْ بى ما تريد !

ودارت مَحْجَلَة الحياة : الأيام تَلَوَّ الأيام ، والأشهر إثرَ الأشهر . . .
وكان مَلِكُ الغرب قد دفعه الطمع إلى امتلاك « مصر » ، فسير إليها
الجيوش الكثيفة ، فغزت المناطق الشمالية فى غير عُسْر ، ثم اندفعت فى
طريقها تكتسح أمامها جند الوطن . ولم يُجَدِّ تعيين القائد الكبير « رودا »
أميراً على الجيش الذى أرسله فرعون لإنقاذ البلاد . . . إذ أصيب « رودا »
بهزيمة نكراء ، وقتل فى المعركة ، وكاد الجيش يتفكك ويندثر ، لولا أن
قَيَّضَ الله له شاباً من بين المحاربين زَعَمَ عليه ، فأخذ يجمع شمله وَيُثِّثُ

فيه رُوحاً جديداً ، فلم ينتقض وقت طويل حتى انقلبت الهزيمة إلى هجوم ، ثم انتهت المهجوم إلى مطاردة العدو فاكنتساح كامل له . وأصبح هذا الشاب قائداً للجيش ، ولقّب نفسه بالأمير الأسود ، إذ كان يرتدى السواد دائماً . . . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدو ، بل تابع زحفه في جزيرة غريبة ، ففتح « مملكة الغرب » بأسرها ، وأخضعها لفرعون ، فصارت تابعة « لمصر » .

كانت « رَنْسِي » المدينة ذات أربعة المعابد وخمس المسلات حاضرة « مصر » الثانية ، تحتفل احتفالاً شائعاً بقدوم الجيش المنتصر ، وعلى رأسه أميره الأسود ، فقد عاد محملاً بأسلاب وغنائم لم يأت بها قائد منتصر من قبل . وكان موكبه حافلاً بالأسرى العظام من الأمراء والحكام وسرّة الدولة المغلوبة . أما بقية الأسرى من الدّهاء فقد اكتفى بقطع أيديهم وأطلق سراحهم ، حتى لا يعطلوا سير الموكب بكثرة عددهم . ولكنه احتفظ بتلك الأيدي ، فحملها معه ليقدمها إلى فرعون ، رمزاً للخضوع والطاعة !

وتمت مراسم الاستقبال في عظمة وغمامة جديرتين بالقائد العظيم والفتاح الكبير ! . . . ولكن الأميرة « أشمس » أولى أميرات البيت الفرعوني تخلفت عن حضور الاحتفال ، وأرسلت تعتذر لفرعون . وكان فرعون

يعرف شذوذَ طباعها واعتزالها العالمَ ، فقَبِلَ عذرَها على مضض . ولكن رسول الأمير الأسود جاءها يحمل من الأمير نفسه رغبته في زيارتها قبل الغروب لأمر ذي بال ، فلم تجد مَخْلَصاً من استقباله ، وأمرت أن يُعِدُّوا القصر لهذا القدوم .

وأخذ الأتباع يعملون بجدّ واهتمام في تزيين القصر ، فما كادت الشمس تُؤْذِنُ بِالْمَغِيبِ حتى برز القصر خلال الظلام كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق . وانتشر الطيب الذي في شَتَّى أرجائه ، فكانه روضة فوّاحة من الأزاهر النَّضرة !

وجاء الأمير في الموعد في حقل من قُوداده ، ودخل القصر وهو يضرب بقدميه الصُّلْبَتَيْنِ الأرض ضربات شديدة تَرَدَّد صداها في جوانب المكان ، وجعل يتلفَّت يَمَنَةً وَيَسْرَةً بوجهه الرائع الذي تَنُمُّ كلُّ لمحة من لمحاته على رجولة قوية قاسية . وكانت لعينه الواسعة إشعاعات قوية باهرة لا تقوى عين أخرى على تَحَدِّيها .

وما إن دخل البهو الكبير ، ورأى الأميرة واقفة في صدره تَحْفُّ بها وصيفاتها ، حتى تَوَقَّف بغتة ، واتسعت حَدَقَتَا عينيهِ ، وفتَحَ وجهه في لحظة بنور متألق تشيع فيه الأحلام . وأمسك بيد رفيق له بجانبه وشَدَّ عليها ، وطالت وقفته على هذه الحال ، والناس من حوله صامتون .

وأخيراً همس رفيقه في أذنه :

مولاي ! إن الأميرة تنتظرك ... تقدّم !
وتقدم الأمير الأسود بخطوات لم تردّد صداها جوانب المكان هذه
المرة ، وركع أمامها ركعة المُتَبَتِّل أمام ربّه ، فأنهضته وهى تقول :
نحن الذين يجب أن نركع أمام المنقذ العظيم !
ورفع وجهه إليها ، وقال فى صوت متخافت :
عفواً مولاتى ! ... أمام هذا الجلال الإلهى الذى هو قِبَسَةٌ من «رع»
ونفحة من «إيزيس» يستشعر القائد العظيم ضآلة نفسه وتفاهة مجده !
— سيدى !

— ليس ثمة عظيم أمامك يا مولاتى ! ... كلنا من أتباعك المخلصين !
وتهامس الناس فيما بينهم دَهْشِينَ حَيَارَى ...
لَمْ يُشَاهِدِ الأميرُ على هذه الصورة حتى فى حضرة فرعون الأعلى !
وبدأت الجموع تتفرق ، والمكان يخلو للضيف وربة القصر ، وأخذ
القائد يَرَوِي وقائعهُ ، ويعدّد أسلابه ، ويذكر ما ناله من مال وضياع
تتعادل معها أموال فرعون العظيم ... وختم حديثه قائلاً :
إن الأميرة لتعلم أن فرعون بلا عَقِب ، وهو الآن شيخ مثقل بالمرض ،
وقد طالبتة الكهنة بتبني أمير يجعله ولياً للعهد ، أميراً أهلياً لهذا المنصب الخطير .
— وهل وقع اختيار الملك على هذا المحظوظ ؟
فابتسم الأمير ابتسامة ذات معنى ، وقال :

لقد أتم اختياره سرًّا ، وسيعلنه غدًّا في الهيكل الكبير !
وصمت « أشمس » وهى تنفحص الأمير طويلا . . .

ثم انحنت فى خشوع ، وهى تقول :
يُسعدنى أن أكون أول من يقدم طاعته لصاحب التاجين ، ورِث
مُلكِ الفراعنة العظيم !

فأمسك الأمير بيدها ، وقال :

هذا المُلك العظيم ، وهذا النصر الباهر ، وهذه الأموال التى لا يستطيع
أن يحصيها أحد ، كل ما كسبته وما سأ كسبه أضعه تحت قدميك أنتِ
يا أميرتى ويا مولاتى ! . . . أقدم لك كل هذا مقابل شيء واحد منك .

فأسبلت الأميرة جفניה ، وتابع الأمير حديثه فى لهجة مشبوبة :
كلمة منك يا « أشمس » تجعل هذا الوادى الفسيح بسكانه وكنوزه ،
هذا المُلك الضخم ، طوعَ يدك . . قولى كلمة الرضا ، ثم مرى فلن يعصى
لك أحد أمرا !

ونفضت الأميرة ، وهى تقول فى صوت حيس :
ألا نذهب إلى المُستَشرف ، فنلقى نظرة على البستان ؟
فأجابها الأمير ، وهو حائر :

كما تريدن !

وذهبا إلى المُستَشرف ، وأطالت الأميرة النظر إلى الحديقة ، وهى تُصعد

بصرها في أشجارها وأزاهيرها . ثم قالت :
 أيسمح لي الأمير أن أقصَّ عليه قصة صغيرة ؟
 فأجابها ، وهو يزداد عجباً :
 إني مُضغٍ إليك يا أميرة !

— كان في الزمان الغابر فتاة من الأثرياء ، من أسرة رفيعة النسب ،
 تحيا ناعمة البال ، في قصرها ذي البستان الكبير ، حياة ترف ورغد . ولم
 يكن لها مطمَع تصبو إليه إلا العنور على أليف تنعم معه بحب ووفاء ، شأنها
 في ذلك شأن كل فتاة . وحجَّ إلى قصرها أعلى الأمراء شأنا ، وأعظمهم
 جمالاً وثراء ، يطلبونها للزواج ، فردتهم بلا أمل .

— ولم ذلك ؟

— لأنها كانت مخدوعة بنفسها ، مغرورة بجمالها ، فلم يرقها واحد
 من هؤلاء الأمراء !

— ومن كانت تنتظر أن يتقدم لها ، بعد هؤلاء ، وهم صفوة البلد ؟
 وترثت الأميرة في إجابتها ، وهي تُسرح طرفها في الأفق ، حيث
 الظلام مقبلٌ في وحشته وصمته وأسراره . . . وقالت :
 هي نفسها لم تكن تدرى ، ولكنها على الرغم من ذلك كانت تنتظر
 وتؤمل !

— وهل طال انتظارها ؟

— كلا !

— إِذَا عَثَرْتُ عَلَى ضَالَّتِهَا !

— نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ . . .

— أَمَا كَانَ قَائِدًا غَازِيًا ؟

— كلا !

— أَوْزِيرٌ خَطِيرٌ هُوَ ؟

— كلا !

— إِذَا هُوَ مَلِكٌ مِنْ نَسْلِ الْأَلْهَةِ !

— وَلَا هَذَا أَيْضًا . . .

— مَنْ يَكُونُ ؟ !

وَأَرْسَلَتِ الْأَمِيرَةُ تَهْنِئَةً خَفِيفَةً ، وَقَالَتْ فِي صَوْتِ الْهَامِسِ :

شَابٌّ رَقِيقُ الْحَالِ ، مُرْهَفُ الشُّعُورِ !

— وَمَا مِهْنَتُهُ ؟

— لَيْسَتْ لَهُ مِهْنَةٌ . كَانَ يَقْضِي أَيَّامَهُ يَجُوبُ الْبَسَاتِينَ ، وَيَتَنَزَّهَ عَلَى

ضِيفَاتِ الْأَنْهَارِ ، يَسْتَمْتِعُ بِمَحَاسِنِ الطَّبِيعَةِ !

— إِنَّهَا حَيَاةٌ أَقْرَبُ إِلَى التَّبَطُّلِ وَالصَّعْلَكَةِ . . .

فَتَمَتَّتِ الْأَمِيرَةُ بِلَهْجَةِ الْحَالِمِ ، وَهِيَ تَسْتَقْبِلُ بِعَيْنَيْهَا كِتَابَ الظَّلَامِ

الْمَكْدُسِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ :

قد يكون ذلك ، ولكنه الوحيد الذى استطاع أن يصهر كبرياءها ،
ويحطم تاج غرورها !

فندت عن الأمير صرخة :

هو ! ... أمكن ذلك ؟

— أجل لقد أحبته الفتاة ... أحبت فيه ذلك الشاعر المُرَهَفَ
الحِسَّ ، يُنشدُها أعذب ألحانه وأرقها !

— أ كان شاعراً ينظم لها القصائد ، ويُنشدُها إياها ؟

— كان ينظم قصائده بلا كلام ، ويُنشدُها إياها من مزماره

الرخيم ! ...

فأصابت الأمير هزة شديدة ، وقال فى صوت جيتاش :

وهل تلاقينا ؟

— كلا ، فهى لم تره ، بل أغرمت به على البعد ! ... ولا تدرى

أراها أم لا ؟ !

— لا ريب فى أنه رآها ...

— ليس ذلك مؤكّداً ، فأنظارُ هذا الشاعر الجوّال كانت أقصر من

أن تخترق خمائل البستان أو جدران القصر ، لتكشف عن الفتاة وتلتقى
بأنظارها !

— ياللقى البائس ! ... لو علم أنها تُضمرُ له هذا الحب لطار إليها ،

وارتمى تحت قدميها يَلْتَمِسُهُمَا في عبادة !

— من يَذْرى أيها الأمير؟ ... إنه فتى غريب الأطوار ، يعيش
وَفَقْ هواه ... قد يرفض حبها لو تقدمت به إليه !

— مُحَال !

— لو كان يعلم كيف أحبتَه هذه الفتاة ، وكيف أنها تَرْضَى
أن تعيش معه ، تُقاسِمُهُ حياته الطليقة في دنياه الرَّحْبَةِ الوضَاءَةِ ، لَقَبِلَ
منها هذا الحب !

وتتم الأمير بكلمات متقطعة ، وقد شدَّ ييده على حاجز المُسْتَشْرِفِ ،
حتى كادت أصابعه تَدْمَى . وتابعت الأميرة حديثها :

لقد بَرِمَتْ الفتاة بحياة الثروة والجاه التي تحياها ، وتوضّحت أمامها
بشاعتها ، وأحست ثِقَلَهَا المرهق يَحْبِسُ أنفاسها ... فرغبت أن تَفِرَّ
من بيتها تستبدل الكوخَ الساذجَ الهادئ بالقصر المنيف الصاخب ،
والرداء الخفيف المزين بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئ ...
لقد بَرِمَتْ بكلّ شيء يحوطها ، واشتدت بها الرغبة أن تَهْرُبَ ، فتَلْحَقَ
بشاعرها تقضى حياتها في حِمَى مزماره !

— ولكنها لم تفعل !

— لقد كادت ... ولكن الفتى اختفى فجأة .

— أَهْرَبَ ؟

— إن الناس يُرْجَفُونَ بموته ، فقد تكون التماسيح أكلته . . . ومن ثمَّ أسدلت الفتاة على حياتها سِتْرًا غليظًا يحجبها عن العالم أجمع !
— قد تَسْلُوهُ يوما ، فترضى الزواج بأمر كبير !

— إن القصة تحدّثنا أن الفتاة قضت في عُزْلَتها عامين ، وهى لم تتغير . . . إنها لا تطلب الأمير ولن تطلبه ، بل ستحيا مترقبةً شاعرها الفقير كما هو ، بردائه الساذج وقلبه الكبير . . . لن تستبدل به أحدا ، مهما يعظم قدره ، ويتسع ماله !

— وهنا تنتهى القصة . . . أليس كذلك !

— تكاد تنتهى ، والبقية فى كلمتين . . . أتريد أن أتمّها لك ؟
فقال الأمير ، وهو يَضَعُ كلماته فى حسرة مكتومة :

إذا رغبتِ أتممتُها أنا لك !

فمايلت الأميرة ، وعرضتْ على وجهها ابتسامة ، وقالت :
كيف ؟ أو تعرفُها ؟

فقال فى شيء من السهوم :

إنَّ حَدِّقَكَ فى رواية القصة قد جعلنى أَحْزَرُ خاتمتها !

وراح الأمير يُحَدِّثُ بصره فى نجوم الليل البعيدة ، كأنه يريد أن يستلهم منها كلمة نصيح أو هداية . . . ولكن لم تَطُلْ وقفته على هذه الصورة ، فانحنى أمام الأميرة يقول :

لن أنسى ما حييتُ حُسْنَ احتفائكِ بي !

وقبَل يدها قبلة طويلة عميقة ، ثم ترك المكان لا يتكوى على شيء .
وأَقْلَتَه على الفور مجلته الحربية ، واستأذن رفاقه في أن يمضي
وحده ...

وانطلقت به العربة هائمة في أديم الصحراء ، تشقّ أمامها سِجْفَ
الظلام شَقًّا !

في غفوة الأقدار

إذا اختار القَدَرُ امرءاً فاضرب عليه رقابته ، وأحاطه بأنظاره ، فإن ذلك المرء يحيا راسفاً بين قيود وأغلال .

ليس القدرُ إلا وليدَ هذه الحياة ، فيه الكثير من خصائص المخلوقات الدنيوية جميعاً ، بل إنه ليمثِّلُ هذه الخصائص أقوى ما تكون عُنفوانا وروعة . والمخلوق الدنيوي لا يفهم من الرقابة والرعاية إلا أنهما فرضُ أنظمة وتقاليد وأوضاع يُنمِّقها وفق هواه ، ويتخذها ذريعةً إلى بسط سلطانه على من يدعى حمايته ورعايته .

وإذن فالقدر هو المثل الأعلى لتلك الظاهرة الحيوية ، ظاهرة الحماية والرعاية التي تكمن في طواياها نزعة الهيمنة والتأثر .

فإن قيل لك إن القدر يركاك ويرقبك بعين عنايته ، فاعلم ، علمت الخير ، أنك قد أصبحت في عداد ذلك القطيع الجَمِّ ، يسير متراصاً مُحَنٍّ الهام في طريق مرسوم ، لا يفكر في الحيدة يَمْنَةً أو يَسْرَةً ، ولا يعنُّ له أن يتطلع بأنظاره إلى الأفق النيرِّ يستجلي مصدرَ ما يعُمُّ الكونَ من ضياء ،

ولا يدور في خلدَه أن يُقدَّرَ ما قد يعترض طريقه من عقبات وعراقيل .
 حسبه أنه ساعٍ على أديم الأرض في غير حرية ولا اختيار ، صاغراً
 يستملى إرادة القدر ، قانعٌ بذلك القسطِ من العطايا قلّ أو كثر .
 وما له لا يمتنع بذلك ، وسواءٌ لديه القليلُ والكثير ، ما دامت جَذوةُ
 النفوس خادمة ، وما دامت الأغلالُ تُثْقِلُ الأيدي والأعناق ؟
 على أن للقدَر ساعات ، أو قُلْ لحظات ، تغفو فيها عينه ، فلا يملك
 رقابة ولا رعاية . أو لعلَّ القدر إنما يَكِلُ بصره بعضَ الكلال ، فيلتمس
 وقتَ دَعَاة ، ومُهْلَة جَمَام ، فإذا هو يُسِيلُ جفنيه أو يكاد .
 في هذه الساعات ، أو اللحظات ، تَتِمُّ خوارق ، إن شئتَ سميتها
 معجزات ، وإن شئتَ قُلْ ثورات ، فليست تسميتها بذات بال . وهي على
 أية حال خروج على العُرف المألوف ، وانحراف عن الطريق المرسوم . فيه
 تنقلب أوضاع ، وفيه تذهب دولة وتقوم أخرى .
 فَمِنْ هذه الخوارق ما يترك أثراً عميقاً لا يَعْقُوهُ كَرُّ السنين ، ومنها
 ما يمرُّ عَبْرًا ثم يمحوه ذَيْلُ العفاء .
 ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الكون المُنْقَلَبَ بأعباء الأقدار وأحواله
 يفتنم تلك الغفوات الخاطفة ، يتخفّفُ فيها مما يُثْقِلُه ، وينطلق ليتنفسَ
 خارجَ القيود والحدود .
 وإني لزعم بأن العبقرية لم تكن إلا وليدة هذه الغفوات التي تغفوها

الأقدار ، فتنبثق العبقريّة كالقذيفة العنيفة ، ترُوع بانفجارها ، وتبهّر بسطوع ضوئها ، وتضكُّ السمع بدويّها . . . وإنها بذلك لتشقّ جديداً من الطريق لم يكن للكون به عهد من قبل .

وحين ينبته القدر من غفوته ، يجد نفسه — كما يقولون — إزاء « أمرٍ واقع » فيُسكّت غضبه ، ويكظّم غيظه ، ويرفع سوطه ثانية يلهب به ظهر القطيع ، فيسير في ذلك الطريق الجديد الذي شقّته العبقريّة على الرغم من إرادة القدر المسيطر .

ومن حسن الحظ — أو من سوءه — أن العبقريات لا تستطيع الظهور في كل غفوة من غفوات القدر ، فلو أنها ظهرت كلما غفأ لما استراح الكون من عناء الضرب في آفاق جديدة مديدة تتوالى في غير مهل . والكون على تطلّعه إلى التخلص من أثقال القدر ورقابته ، يؤثّر الدّعة والراحة أحياناً في ظلّ العبودية والانتقيد .

فأما ما يقع كثيراً في غفوات القدر ، فهو الأحداث الهيئّة التي لا تسلم من شدوذ وانحراف ، ولكن أثرها لا يعدو نطاقها الضيق ، ومجالها المحدود .

وربما كان شأن الخادمة « فكرية » مثلاً لهذه الأحداث الهيئّة التي تنجم حين يغفو القدر . فإن الحادث الذي مرّ بها ، وإن عدّه الناس من التوافه التي لا خطر لها في مجرى الحياة ، تعدّه « فكرية » نفسها

أخطر حادث يشغل الفكر والبال ، فهو عندها أمر جسيم ، وحدث عظيم ،
حتى أصبح لزأماً علينا أن نذيقه على المَلَأِ ، لِيُقْتُوا في أمره بما يشاءون .
أول ما يجب الإشارة إليه أن « فكرية » نشأت في كَنَفِ القدر
يرقبها ويحميها ، ويرسم لها الخُطَطَ ، تأمينا لمستقبلها على نحو ما يريد .
هي فتاة يتيمة لم تر لها أمًّا ولا أبًّا ، ولا تعرف لها أحداً من ذوى
القربى .

أَيَجْمَلُ بالقَدَر أن يترك فتاةً في مثل حالها ، تتقاذفها أسباب التشريد ؟
إنه لَا كَرَمُ من أن يرضى لها هذا المصير !
وكان أن اختار لها مهنة الخدمة ، فقد أدرك القدر بناقب فطنته أن هذه
المهنة ملائمة للفتاة ، مناسبة لما أُوتِيَتْ من مواهب .

قضى القدر بهذا الحكم ، فأصبحت « فكرية » خادمة مؤبدة في
بيوت خلق الله . . . تنقلت من أسرة إلى أسرة ، ولكنها ظلت كما هي ،
تمارس أرذل الأعمال وأكثرها إمعاناً في المشقة .

وقد استقرَّ بها المَقَامُ اليومَ في أسرة يقول عائلها إنه رئيس إحدى
المصالح ، وهو يحيا مع زوجته وأطفاله الثلاثة وأمّه في الطبقة الثالثة من دارٍ
حديثة البناء في أحد الأحياء المتواضعة .

وإذا استطعت أن تتمثل هذه الطبقة بأثاثها ومتاعها وأهلها موضوعاً
جميعها في صينية ، فتمثل أن هذه الصينية محمولة على رأس الخادمة

« فكرية » تروح بها وتغدو في الحياة ، مهما تكاثرت فيها الصّحاف ،
وَتَقَلَّتْ بِهَا الْوَطْأَةُ !

ولقد ظلت « فكرية » تحمل هذه الصينية الضخمة ، حتى قرّ في ذهنها
أنها ستحملها أبد الدهر ...

ما أشبه « فكرية » بذلك الثور الذى يحمل الدنيا بما حوت من
رزايا وأحداث وشجون ، وإن « فكرية » لتجد في هذا بعض العزاء ،
إذ تعلم أن الأقدار قد جعلتها هى وذلك الثور الصبور الكريم في
منزلةٍ سواء !

لم تعد « فكرية » تستنكر شيئاً مما تُسَامُهُ من خَسَف ، وما تتعرض
له من أذى . ولذلك لم تعد تُدير في ذهنها أن لها في الحياة مذهباً غير هذا
المذهب ، فقد دار بها دُولَابُ العيش تلك الدورة الراتبة التى لا بدّ لها
ولا ختام ، كالحلقة المفرغة ليس لها طرف ، فانسدل على عينيها غشاوة ،
وران على نفسها صدأ ، ولم يبق في مجال تفكيرها منفذ ، فانطبعت على
مُحَيَّاهَا سِمْاءُ البلاء والتبدل والجود .

تراها في غالب أمرها فاعرة الفم ، تحدّق فيما أمامها بعين تأمّة النظر ،
فإذا ما أدركها بعض الانتباه ، وحاولت أن تشحذ ذاكرتها لاسترجاع
ما كانت تفكر فيه ، لم تبلغ مما تريد منالاً ... وأتى لها أن تقتنص شيئاً
من غير شيء ؟

سلخت « فكرية » من عمرها عقدين من السنين ، لم تتبدل بها الحال إلا قليلاً ، فهي دائماً فتاة قيئة زارها الامتحان ضموراً وقمأة ، وطمس ما عساه يكون فيها من مخايل الوسامة .

ولك أن تقول إن « فكرية » كانت تعمل في ذلك البيت صباح مساء ، فقد كانت كرقاص الساعة في جيئة وذهوب ، تفرغ من أعمال البيت في غيوب الشمس ، فستقبلها في آناء الليل شواغل الأطفال ! وكان بالدار مستشرف أنيق طلق النسيم ، تتوخواه الأسرة لتتجمع فيه مشتركة في حديث ومسامرة ، وإن « فكرية » لتغبط الأسرة على ما تلقى من نعيم في هذا المستشرف الرخى ، ولا مارب لها في الحياة فوق أن تنعم بقسط من الراحة والنوم في ذلك المكان المرموق ، تلاطفها النسمات الرقاق ، وتراسلها النجوم باللمحات اللطاف ، ويكلفها الليل يغلائته الساجية ! ولكن ذلك المستشرف العزيز ظل وقفاً على السادة ، لا تقربه خادمة لها مكانها المعلوم .

على أن هذه الحقيقة لم تكن لتمنعها أن تحلم بالتنعم في ذلك الفردوس ، بقدر ما في صدرها من مجال للمنى والأحلام ! بقيت « فكرية » على حالها تلك ، تدور في هذا المدار ، حتى كانت أمسية من إحدى الأماسي ، في عهد الحرب الماضية .

في لحظة من هذه الأمسية أحسَّ القدر إرهاقاً وعناء مما يمارس من

جهود الرقابة والعناية بتلك الفتاة ، فإذا بجفنيه يتشاقلان ، وإذا هو تأخذه
سِتَّة من نوم .

إنها غفوة سائحة ، وإن عُدَّتْ في الحساب أياماً وأسابيع . . . أين
تقع تلك المدة في حساب الأقدار ، وإن طالت في حساب الزمن ؟ !
انطلقت صفارة الإنذار تَعْوِي . فشملَ الناسَ دُعر ، واضطربت
الدار بما فيها من طبقات ثلاث ، وتوالى الهرج والمرج ، وعلا الصياح
والعويل ، وانحدر الأهلون يزحمون السَّلم ، ويهرعون إلى المخيا . . .
وكانت « فكرية » من فرط التعب والإجهاذ قد مَلَكَهَا نوم ثقيل ،
فلم تنفتح عيناها إلا بعد أن خلا المسكن ، فنهضت تستوضح الأمر ،
وأخذت تسائل نفسها :

ما سرُّ ذلك الاضطراب ؟

وَفِطِنَتْ إلى أن ثَمَّةَ غارة ، وأن أهلَ الدار قد أَخْلَوْهَا ، فاندفعت في
غير وَعَى إلى الباب تطلب حمايةَ المخيام مع الناس ، ولكنها لمحت المُسْتَشْرِفَ
ينبسط فيه ضوء القمر ، ويرفرف النسيم . . . وفي ذلك الوقت كانت
الجبلة قد انقطعت ، وعمَّ المكانَ هدوء وسكون .

إن « فكرية » لَتَرَجِعُ البصرَ فيما حولها ، فلا ترى في البيت سيداً
سواها ، وإن المُسْتَشْرِفَ بوسائده الوثيرة لكانما يدعوها إلى التمتع
والاستمتاع !

وظلت الفتاة هنيئة تتقاتل نزعاتها : أتغادر الطبقة أم تبقى ؟
وما لبث الهدوء الشامل أن سرى إلى نفسها ، فاستشعرت بعض
الطمأنينة والسكينة .

إنها لتتمثل موقفها في الخياض مع الأطفال ، تحمل هذا وتحنو على ذلك ،
وتعاني أشتات المتاعب من هنا وهناك .

وشعرت بقلها يفتح ، وبقدميها تخطوان إلى المستشرف ، وإذا هي
تهاوى على الوسائد ، وتتقلب يمنة ويسرة .

إن جسدها لم يعرف قبل اليوم إلا صلابة الأرض وخشونة
الوساد ...

ما أطيب المستشرف من مضجع ، وما أنعم وسائده من فراش !
وظفقت تستنشي نسمات العشي ، وتمطى في تلذذ واستمتاع .
وتواردت اللحظات ، وهي على هذه الحال ، تشعر بأنها تسبح في عالم
آخر ، ملؤه الهبة والإيناس .

وبغية قرعت سمعها قعقة مدوية اهتزت لها جوانب الدار ... فألفت
« فكرية » نفسها تهبط واقفة ، وتزعم أن تأخذ طريقها إلى الباب ،
ولكن القذائف ترادفت كأنها حُمم البركان ، فإذا بأوصالها ومفاصلها يدركما
تخلع واصطكاك ، وما هي إلا أن تهاوت فاقدة الرشد .

وبعد وقت لا تدري مداه ، ذهب عن « فكرية » الإغماء ، قاشرا ببت

متطلعة حولها ، فوجدت نفسها في مكانها من المستشرف ، وقد توهجت الشمس ، وَمَتَعَ النهار .

كل شيء كما كان ، أو يكاد .

ولكن ما بال هذا التراب المهييل ، وتلك الحجارة المتناثرة ؟

ثمّة شيء قد حدث ، فأیُّ شيء هو ؟

مهما يكن من أمر فإن « فكرية » لم يُصِبْهَا أذى ، إلا ما ينتظمُ جسدَها من فتور ، وما يرين على عينيها من خدر .

ووثبت في خاطرها على الفور أشباح سادتها من أهل البيت ، فعاجلتها رَجْفَةٌ .

عليها أن تهزّج إلى مكانهم ، تقوم بواجبها نحوهم ، وإلا تعرضت للنكال ، وذات على أيديهم عذاب العقاب !

وانطلقت تريد الباب ، وكان مقفلا ، فدفعته بِجُمُعِ يدها ، وهمت أن تخطو ، فراعها أن ترى هُوَّةً سحيقة لم تكد تُدْلي إليها أنظارها حتى أخذ برأسها دُورًا ، فأمسكت بالجدار زائغة البصر ، وأنفاسها تتلاحق . ثم ارتدّت وقد حوّمت في خاطرها أفكار وصور .

وفطنت بعد تفكير وَرَوِيَّةٍ إلى حقيقة ما جرى . . . فدرجت في محاذرة واحتراس إلى سورِ المستشرف تطل على الطريق ، فنفزعَت مما رأت حولها من خَرِبَاتٍ فِساخٍ تتراكم فيها الأبقاض والطلول . . . وأخذت

تُنعم النظر هنا وهناك ، وكأنما قد أصابها مَسٌّ .
 وَيَلْهَا ! . . . لم تُبقِ الغارة من أبنية الحىِّ إلا جداراً عالياً يحمل
 المستشرف الذى كان مَخْدَعَهَا أثناء الليل ، مثله كمثل منارة وَحْدَهَا
 قَائِمَةٌ فى ملتطَمِ الموج !

وارداد تَلَقَّت الفتاة فى جزع واضطراب ، وَنَدَّتْ من حلقها صيحات
 استغاثة مكروبة ، فاستجاب لها من الطريق بعضُ أصوات .

وبعد قليل رأت الناس يتجمعون على مسافةٍ من أسفلِ الجدار ، وهم
 يُشْرِعُونَ أَبصارهم فى خشية إلى تلك الأعجوبة . . . تلك الفتاة المعلقة بين
 السماء والأرض !

وأخذت حَلْقَةُ الناس تتكاثف ، وظهر بعد لآى ذلك الشرطى العتيد
 يلقي الأوامر والنواهى ، فى مِشْيَةٍ مُخْتَالَةٍ وصوت جَهَوَرِيٍّ .

ومضت لحظات قلائل فى انتظار الإنقاذ . . . فبدا أعوانُ المطافئ
 فارعى القامات حِدَادَ النظرات تلتمع على رءوسهم الخوذات الصفرة ، ومن
 حولهم رجال الإسعاف فى مِشْيَتِهِم الوديعه ونظراتهم الساكنة تزهو على
 رءوسهم القُبَعَاتِ الحُمْر .

وسرعانَ ما نَجَمَ وسط الجمع رجل كأنما انشقَّ عنه أديم الأرض ، قد
 انتفخت جيبه بالأوراق ، وامتدت يَدُهُ بآلة تصوير ، وهو يتوآب هنا
 وهناك ، ويقول :

افسَحُوا للصَّحْفَى طَرِيقًا !

ولبثت الفتاة تواصل استغاثتها ، وكلما تَجَمَّعَ الناس ازدادت من حماسة
واهتياج .

وانعقد تحت المستشرف مؤتمر تدَاوَلَ فيه الناسُ الحديث في شأن
الإنقاذ : على أىِّ نحو يكون ؟

الجدار متصدِّع يريد أن ينقضَّ ، ولا بدَّ من تدارك الخطر قبل وقوعه ،
وفي كل لحظة تمرُّ مقامرة بحياة الفتاة !

وما هى إلا أن بُسِطَتْ مُلَاءة أخذ بحواشيها رجال المطافئ والإسعاف ،
وصاحوا بالفتاة أن تُلقَى بنفسها ، وإلا تعرضتْ لِهَلْكَ وشيك ...

ووقفت الفتاة تقدِّمُ رِجْلاً وتؤخِّرُ أخرى ، وهى فى معركة من النزعات
والمخاوف ، وخُيِّلَ إليها أن المستشرف يهتَزُّ اهتزازَ التَّدَاعَى ، فاشتعلتْ
فيها العزيمة فجأة ، وألقت بجسمها فى الفضاء ، على حين وقف الصحفيُّ
بمصورته يلتقط الصورة الفريدة لإنسان يُلقَى بنفسه إلى الموتِ ، فراراً
من الموت !

وسقطتْ الفتاة على الملاة تشملهَا غيوبة ، وما إن لامست قدمها
الأرض ، فاستعادت وعيها ، حتى جعلت تقلَّب في الجمعِ نظراتٍ ذاهلة ،
وما عتَمَّتْ أن استبدَّ بها ضحك موصول .

وتحلَّق حولها الناس يسألونها ، ورجال الإسعاف يتفقدونها ، وتناولت

إليها الأعناق تَمَلَّى هذه الأعجوبة ، فلا تخطو خطوة حتى يزدحم طريقها
بِالْخَلْق .

وشعرت « فكرية » بأنها مُلتَقَى الأنظار ، وقِبْلَةُ الاهتمام ...
ما تلفظُ من قولٍ إلا التقطته الناس بِأَذَانٍ عَطَشِي ، وما تومئ أو تشيرُ
إلا أثارَت الدهشة والإعجاب .

وزُهِيتْ نفسها بتلك الآلة المصوّرة التي تُمَخِّصِي عليها حركاتها أني
سارت !

وبرزت لها من الصفوف امرأة حَزَبُونُ بادية الشيب ، ترتدى السواد ،
في مظهر من وقار مصنوع ، وإنك لتستطيع أن تقرأ في أسارير وجهها
المعروق حياة المغامرة والجرأة ، ولا يعوزك مِصْدَاقُ ذلك فيما تسمعه من
صوتها العريض الذي يمتلك الآذان .

اقتربت المرأة من الفتاة تُبَسِّمِل وتُحَمِّدِل ، وتمضي في تعويذات
وأدعية ، وتُضْفِي على شباب « فكرية » ووسامتها حُلَّةً من الإطراء
والإغراء ، فاهتزت الفتاة لهذا الحديث ، إذ كان أول ما يطرُقُ سمعها
في مراحل حياتها من تمدّح وثناء ! ...

والتفت طَلَقَةً المُحْيَا إلى المرأة ، فاستأنفت المرأة ثنئى وتمدح ، ثم
جاذبتها حديثاً لم يَطُلْ ، ولكنها عرفت به من شأنِ الفتاة ما فيه غناء !
يتيمةٌ لا عائل لها ؛ فأما الأسرة التي كانت الفتاة خادمةً عندها ،

فلاريب أن الغارة قضت عليها .

كانت تلك المرأة الحيزبُون فَطْنَةً نَفَّاذةَ البصر... من نظرة واحدة ألقتهَا على الفتاة استبانَتْ لها سرائرُ نفسها ، فعرفت أنها غُنى جدير بالاهتمام . وما أسرعَ أن عرضت المرأة بيتَهَا على الفتاة تنزل فيه ضيفاً مكرماً ، ريثما يستقرَّ بها الحال ، فلم تجد الفتاة مَحِيصاً من القبول .

أصبحت المرأة لهذه الفتاة هادياً ورائداً ، بل لقد أصبحت لسانها الناطق . فإذا ما أقبل امرؤ يستوضح شأنَ الفتاة وما جرى لها من مغامرة ، تَصَدَّتْ له المرأة تجيب ، حتى إنها لتصف تلك السقطة الرائعة ، كأنما هي صاحبُها !

ورافقت الفتاة تلك المرأة إلى بيتها ، فلقيت منها غايةَ الخفاوة والإعزاز ، وقضت يومها هانئة رافهة العيش ، ترفل في ثوب قشيب أنيق .

وفي الغد خرجت الصحفُ إلى الناس تحمل أنباء الغارة الشعواء ، وما كان لها من أثر وبيل ، ولكن قصة الفتاة وأعجوبة الجدار المعلق كانت واسطة العِقد في هذه الأنباء . فعَجَلَتْ المرأةُ بهذه الصحف إلى الفتاة ، تُريها صورها ، وتُلقي على سمعها ما كُتِبَ في شأنها . فامتلات الفتاة من عَجَبٍ وازدهاء ، وسرعان ما توردت وجنتاها ، والتمعت عيناها ، وبدت مبسوطة القامة ، ناهدة الصدر ، فأكسبها ذلك بهاء ورؤاء زانه ثوبها القشيب الأنيق .

وتوافدت على الدار أفواج المتطلعين يستزيدون من أنباء الفتاة ، ويرغبون في إمتاع أنظارهم بهذه المعجزة الحية ، بطلّة الغارة ، تلك التي انفردت بالنجاة على نحو طريف ، في حين أن العشرات من جيرانها قد أصبحوا حُطاما تحت الرّغام .

وما كانت المرأة تَصْنُ على الرُّوَاد بما يشفي غليل الفضول ، فكانت تحتفي بِمَقْدَمِهِمْ ، وتجلس هي وضيفتها إليهم ، وتتولى بنفسها رواية القصة ، وتطرّزها بالتزيّد المُطَرَّد ، حتى غدت حقيقة الواقعة فرعا ، وغدا الخيال المزيدُ أصلا .

وبينا المرأة تروى القصة ، تظل الفتاة مصغيةً يَقْطَى ، حتى انتهى بها الأمر إلى اعتقاد ما تصوغ المرأة من فضول ، فما كان عقلها بقادرٍ على أن يميز بين ما جرى وما يُرْوَى .

تواصلَ اهتمامُ الناس بتلك الطُّرْفَة الإنسانية ، فتواردوا زرافاتٍ على الدار في اليوم بعد اليوم ...

وما لهم يزهدون في تلك الطُّرْفَة الرائعة ، وهم ما يكادون يلمحون في الطريق حَدَثًا من الأحداث ، من نحو صِدَام سيارة أو ترام ، أو مشجرة عابرة ، أو شأن غير مألوف ، إِلَّا نَسُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَعَدَلُوا عن طريقهم ، فتجمعوا يُشَبِّعونَ نَهْمَهُمْ برؤية صريع يُحْتَضَر ، أو جريح يُنَّ ، أو ممسوس يَهْدَى ؟ وأيُّ تثريب عليهم في أن يفعلوا ذلك ، وهم في عَجَلَة الحياة الراتبة

مسوقون ، يدرّكهم سأم التكرار ، ومَلَالَةُ المألوف ، فتشتدُّ حاجتهم إلى ما يلهب العاطفة ، ويشير اليقظة ، من منظر جديد ، ومشهد طريف ؟ !
وتتنقّل في الدار أكواب المربطات ، والفتاة بين الجمع كأنها عروس
يوم الزفاف ... تختلط بين جوانحها مشاعر الإبتهاج والاهتياج !
عرّوس ...

الحق أن كل شيء كان يمهّد لذلك الحادث السعيد .
كان حديث العرس يعتلج بين الصدور ، وتتناجى به النفوس ، وإن
لم تنبس به الشفاه !
أخليفة هذه الفتاة حقاً بأن تكون عروساً مكرّمة تتهافت عليها القلوب ،
وهي التي كانت إلى الأمس القريب في منزلة الهوان ، لا يعبأ بها أحد ؟
لقد توارت خادمة الأمس فيمن توارى من صرعى الغارة ، وما تلك
التي تتجلى اليوم على الملأ إلا بطلّة تبهر العيون .

إن الرجل ليأخذ اللائع ، وإن كان زائفاً موقوتاً ، وهو بحكم عنجهيته
وأنايته يأبى أن تظهر عليه المرأة وتنافس في مجالات التبريز ، فلا يكاد يلمح
امرأة توشك أن تُسرق في مطلع من مطالع المجد ، حتى تراه قد أسرع إليها
يضرب عليها رؤاؤه ، ويمدّ لها ظله ، أو هو يوهّم نفسه بأنه يهبها الحماية
والصون !

ومن الرجال كثير طلب المجد فباء بالإخفاق ، فتراه يلتمس العوضَ

من كل باب ، فإن بدت له امرأة ذاتُ صيت أو منصب ، آثر أن يكون لها زوجا ، حتى تُصنّف عليه من صيتها أو منصبها مجداً طالما كان فردوس أحلامه المنشود !

كذلك نجمت فكرة الزواج ... زواج « فكرية » التي أصبح يلمع اسمها في محافل الناس وأندية السّمّار .

وكان السابق إلى الجهر بالفكرة رجل جَسُور من ذوى المغامرات ، لم يبق من شهرته إلا شارب مفتول ، وكَتِفٌ مَلَأَى ، ومن وراء ذلك ثروة طيبة . فأفضى بفكرته إلى المرأة الحيزبُون ، فأودعت قلبه أملاً كبيراً ، ووعدته عوناً كريماً ، فأغدق على الدار هداياه وعطاياه ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليوم الموعود ...

وما إن بارح الدار حتى تعاقب عليها ألوان من الخطاب ... هذا جزّار من أثرياء الحرب ، يمتاز بأصابع ضخام رُصّعت بالخواتيم البراقة ، و « بُلْغَةٍ » أصيلة تلتمع صُفرتها الفاقعة ، وقد هَفَّتْ نفسه إلى أن يضيف إلى متاعه تلك البطلة ، استكمالاً لما عنده من ضروب التّحف والطرف !

وما إن فاتح المرأة الحيزبُون حتى أودعت قلبه كبيراً من الأمل ، ووعدته كريماً من العون ، فأفرغ ما فى جيبه فى يدها ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليوم الموعود ...

وظفّق الخطاب يطرقون الدار بهداياهم والطفاهم ، ويصدرون عنها ،

ملء حقائبهم وعود وأمانى ، على حين تسترسل الفتاة في تدلُّلها ومغالاتها ،
 وتطمئن المرأة الحيزون بما يُفَاضُ عليها من خير كثير ، ورزق كريم .
 وكانت المجلات قد آنست في شأن هذه الفتاة مادة شائقة للحديث ،
 فتفتنت في تفصيل الموضوع ومجاذبة أطرافه ، وعُنيَت بتزيين صفحاتها
 بأنواع من صور الفتاة على اختلاف الأوضاع ، فازداد الخطَّاب إقبالاً ،
 وزخرت بهم الدار ليلَ نهار ؛ كأنها قاعة للمزایدات يشتد فيها التنافس ،
 فارتفع سعر الفتاة بهذه المضاربة ، حتى جاوز المُنَى والخيال ... وبات الأمر
 معركة بين متنافسين تأخذهم حمية الغالبة ، وتأسرهم نشوة التملك ،
 ويحدوهم نداء الظفر ؛ فهم متقاتلون متفانون ، لا إغلاء بالسلة المعروضة ،
 ولكن إحرازاً لقلب السَّبِق ، وإمتاعاً للنفس بلذة التَّغَلُّب !
 وأوشكت الفتاة أن ينتهى بها الأمر إلى رجل من الأثرياء الذين
 أقعدهم طولُ العمر ، وكان لا يكاد يدرى شيئاً من شأن هذه الفتاة .
 وقصارى أمره أن مثله كمثل امرئ في بعض طريقه ، صادفته جموع
 متدفقة ، فصَبَّأَ إليها قليلاً يتيئناً ، فما هو إلا أن غمرته الجموع ، وتشابكت
 وراءه الصفوف ، فلم يجد إلى الطريق مَخْرَجاً ، ولم يلبث أن سايرَ الجَمْعَ
 فيما هم مقبلون عليه .
 أوشكت الفتاة أن تكون لهذا الرجل زوجاً ، لولا أن وقع ما ليس
 في حِسبانِ أحد .

هنا اختلجت أحفان الأقدار، فكان ذلك إيذاناً بانقضاء الغفوة ،
واستئناف الصَّحوة !

وما إن انطلقت من عين الأقدار أولُ شعاعة ، حتى نفذتُ تنفقد
رَبَّيْتِها الفتاة ، خشية أن يكون قد أصابها مكروه .

في ذلك الوقت توالى الغارات عنيفةً أشدَّ العنف، تحمل إلى النفوس
ألوان الفرع ، فنفر كثير من الناس عن العاصمة يلتمسون المأمنَ البعيدَ ،
وكان في طليعة النافرين وَجِئْهُنَا الثرى الذى كاد ينتهى إليه أمر الفتاة .

وشغِلَ الأهْلون ، كلُّ بشأنه ، وانصرفت الصحف إلى ذلك الجديد
المتواتر من أبناء الغارات وأفاعيلها فى الناس ، فأسبل النسيانُ سجوفه على
« فكرية » وبطولتها التى طوت صفحاتها مُحدثاتُ الأيام !

لكل ساعةٍ فى الحياة بطولتها ، ولكل طالعةٍ أفول ، ولكل خافقةٍ
سكون !

فى لحظاتٍ تغيَّر مصير تلك التحفة التى علا قدرها وغلا مهرها فى سوق
المزايدة ، فأصبحت اليوم بضاعة مُرْجاة !

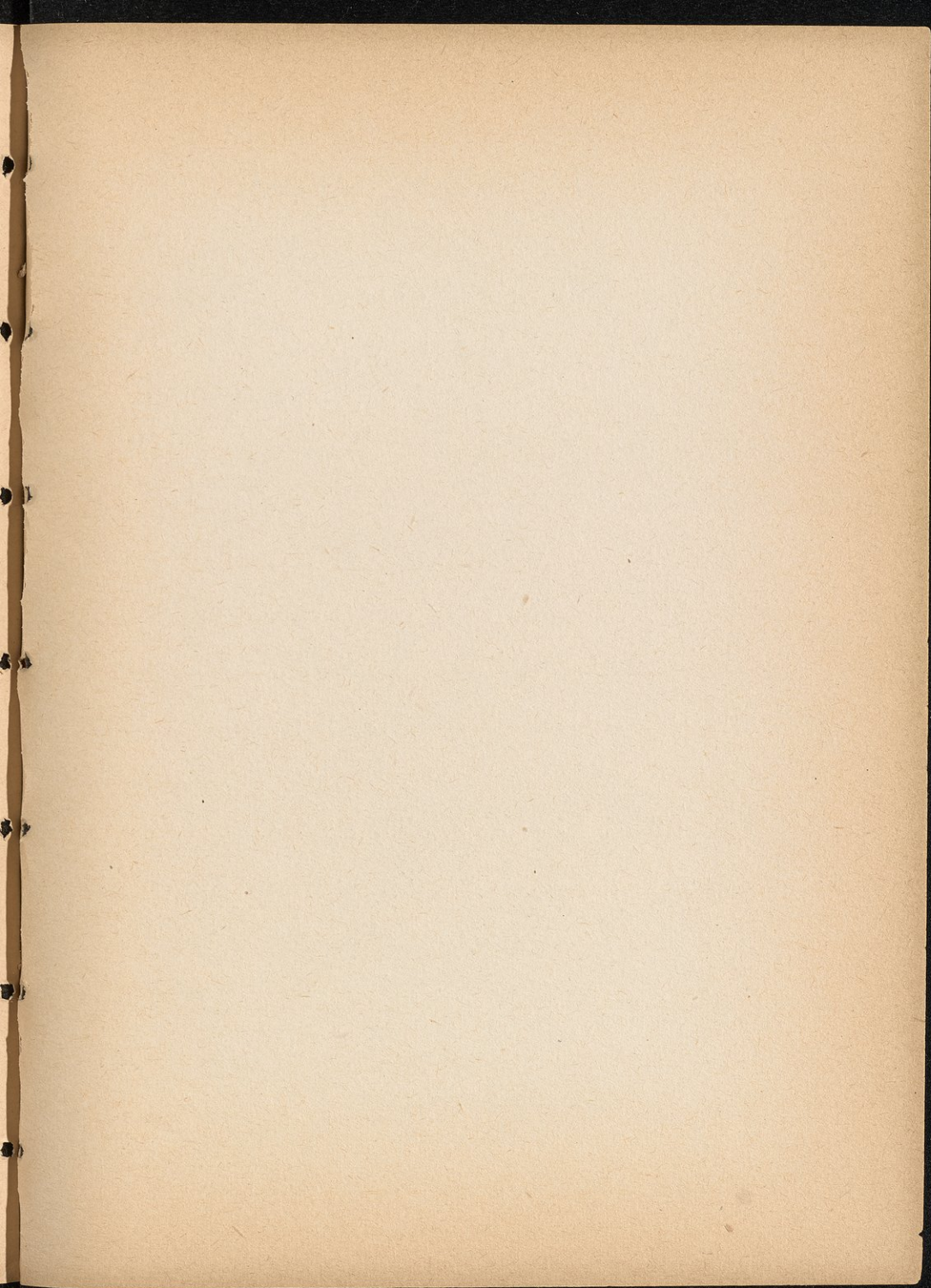
ووجدت الفتاة نفسها تدفعها إلى الشارع يَدُ المرأة الحيزبون . فتداولتها
الطرق ، حتى أسلمها التَّيَّه إلى دار ذاتِ ثلاثِ طبقات ، وهناك فى الطبقة
العليا تلاقى هى وسادتها الذين انقطعت بهم صلُّتها ، حتى حَسِبَتْهُمْ فى
ذمة المنون .

واسترجعت الفتاة مكاتبتها في الأسرة تُدافِسُ ذلك الثور العجيدَ
 الحُمُولَ الذي يَضَعُ على قرنيه متاعب الأرض .
 ومضت في عملها كسابق عهدها ، لا تشير إلى ما كان من أمرها يومَ
 الغارة ، ولا ما كان من بطولتها التي طبقت الأرجاء ذيوعا وشهرة .
 ونالها العجبُ مما ترى . . .

أ كذلك تنقلب بها الدنيا من حال إلى حال ، دون أن تستبقى في يدها
 شيئا من نعيم مَضَى ؟

وشماتها استسلام ، فما كانت تَتَسَخَّطُ ولا تَتَشَكَّى ، وكلما خطرت
 ببالها تلك المغامرة الفريدة في حياتها الغابرة ، راجعت نفسها تتساءل :
 أ كان ذلك حقا واقعا ؟ أم زيفَ أوهام ، وباطل أحلام ؟
 ولكن الفتاة لم تصل إلى فصل الخطاب ، وصدق الجواب ، ولن تصل
 إليه يوما من الأيام .

ولا غرو أن تختلط الحقيقةُ والخيالُ في رأس « فكرية » الساذجة ،
 فليس في عقلية الوجود الأكبر ، وفلسفة الكون العجيب ، ما يميزُ بين
 الحقائق والأخيلة تمييزاً طابَعَهُ الثباتُ والاستقرار !



عَرُوسٌ مِنْ قِطْنٍ

في بواكير شبابي الغارب ، كنت أختلفُ إلى الريف ، طلباً للمتعة بتلك الحياة الرَّخِيَّةِ الهادئة .

وما كان أطيَبَ الحياةَ الريفيةَ في تلك الأيام ... فقد ظلت تتمثل فيها الطمأنينة والسكينة ، وَيَشِيْعُ في جَوِّها رُوحٌ من الصفاء والسلام .
بل ما كان أطيَبَ دنيا الأُمس ، إذا قِيسَتْ بما نكابه في عهدنا العتيد من حيرة وقلق ، وتوجُّس من الخطوب ؛ ومن حرب تدوب في حَرِّها الأنفُسَ ، إلى حرب تَصَلِّي نَارَها الأعصاب .

وإنها لكثيرةٌ تلك المباهجُ التي أُولِعْتُ بها في الريف ، وكان أفتَنها عندي وأحبُّها إليَّ ، تلك الأُمسيَّات الوادِعة ، أقضيها في مُسْتَشْرِفٍ دارنا العتيقة ، وقد بُسِطَ عليه الحَصِيرُ ، عن كَثَبٍ من الحديقة .
وَأَلْفَتُ في هذه الأُمسيَّات أن يجلسَ إلى البستانيِّ الشيخ ، وأن أستمع إلى قصته الفريدة التي لم يكن يَلْهَجُ بغيرها .

قصة تبلغ من السذاجة حدَّ الإفراط ، يحلوه دائماً أن يردِّدها ، كما

يحولى أن أصغى إليها ، دون أن تدركنى ملالة التكرار .
إنها هي هي ، مقدمتها ، وجوهرها ، وخاتمها . لا تزيد ولا تنقص ،
ولا يعترى روايتها تغيير ولا تبديل .

طالما أرهفتُ سمعى له ، وتُجاهَ عيني خمائلُ من أشجار النارج
والليمون ، تنمو على فطرتها ، لا تجد من ضروب التشذيب والتعهد إلا جهد
ما يستطيع ذلك الشيخ الفانى .

إنها خمائل متشابكة ، يُعْيِيكَ أن تلتمس بينها مسلكا ، حتى ليخيل
إليك أن تتساءل :

كيف يجد الماء مساعه بين هذه الألفاف ؟
ما أشبه حياة هذه الحديقة الفطرية بتلك الحياة البدائية التى يحياها
شيخها العتيد !

وليس عجيباً أن يظل ذلك الشيخ راوية أميناً لقصته المعادة ، فهى
جزء متمم له ولحقيقته . من هذه العناصر الثلاثة تتألف حياة هذا المكان
ويتكامل انسجامه ... ذلك الانسجام الموسيقي الذى إن فقدَ جزءاً من
إيقاعه ، بطل سحره ، وبدا نُشُورُهُ !

وما أنسَ لا أنسَ مجلسَ ذلك البستانيّ متربّعاً قُبالتى ، وبين يديه
عُلبَة النبق ، تعبث أصابعه بين الفينة والفينة بما فيها ، فإذا به قد فرغ من
إعداد لفاقة ينفث دخانها فى مهل ، وهو يرقبُ سحائبه يهفو بها الهواء !

كان لا يفتأ يقول :

إن ما تسمعه منى ياسيدى ليس بقصة ، كتلك الحكايات التى يتشوق
بها الناس .

إنها قطعة من حياة .

حياة فتاة ، أو حياة عروس ... سمَّها كما شئت ، ولكنها على اختلاف
الأسماء فتاة عاشت عُمرَها عذراء .

لم تكن من أهل هذه القرية ، وإنما هى من صُقع بعيد ، يقطع الذهاب
إليه طوال الساعات على متن المِطِيَّةِ الدَّوِّب .

الناس أجمعون يقولون إن مَسْقَطَ رأسها « كفر السمان » . فيه درجت ،
وعلى ثراه قَصَتْ ... فهو وحده دنيها جميعاً فى ذلك الكون الرحيب !
وعلى الرغم من ضالة الكُفْر وتفاهة شأنه ، كان ميداناً فسيحاً يهبطها
كل ما يُسعدُها من أمانى وريغاب .

وما كان يغيب عنها من أرجاء هذا الكفر شئ :

طريقاه الضيقان ، تجوبهما فى غُدُوٍّ ورواح .

دوره المتظامنة ، تَتَسَنَّمُها كُومَاتُ الهشيم .

المرأة العجوز مُخْتَبِيةٌ تهالك على قُفَّتِها المهلهلة ، فيها نِثَارٌ من حُلُوى

تبيعها بالثمن الزهيد .

أما ما وراء ذلك المحيط ، فلم يكن للفتاة به عِلْمٌ ، إلا ما تَلْقُطُهُ من أفواه الكبار ، وهم يخوضون في الحديث .

كانت « رَيْحَانَة » وحيدة أبويها ، فهي الذُّخْرُ الذي بقي لهذين الأبوين من ذرية ذهبت بها الأقدار . فلا غَرَوُ أن تحاط منهما برعاية وإعزاز ، وأن يكفلاً لها حياة دعة ورخاء .

ما رأى « رَيْحَانَة » أحد إلا ظَلَّ ذا كراً لها .

كانت ضامرة ، خفيفة الوزن ، تكاد الرِّيحُ إن اشتدت أن تحملها على جناحيها كما تحمل أوراق الغصون .

وما أوفت على العاشرة حتى حجبتها أبواها في الدار ، فلم تعد تَرِيْمُ عتبتها .

وفي الخامسة عَشْرَةَ من عمرها ، جرى في شأنها حديثُ الزواج . هكذا بلغت الفتاة تلك السنَّ التي تستقبل فيها حياة الزوجية والأمومة ، ولكنها على الرغم من ذلك لبثت طفلة بكل ما للطفولة من خصائص : لهجتها في الحديث ، إشراقه وجهها بتلك البراءة والسذاجة ، خِفَّةَ حركتها كأنها الطيِّبُ الغَرِيرُ .

لقد احتفظت في هذه السن بطفولتها الحُلُوة ، حتى إنها لم تَقْرُطْ في عَرُوسها القطنية التي خاطتها لها أمها في يوم عيد ... فأصبحت هذه العروس أليفاً لها ، تتصافيان وتتناحيان ، وتقنعان بدنياهما معكفتين عن رحمة الناس .

ومن كان يرى « ريحانة » وعروس القطن ، لا يلبث أن يلمح بينهما من المشابه ما يثير العجب . وكانت « ريحانة » نفسها تفتن لذلك ، فتفرح به ، وتزداد شغفاً بصديقتها الوفية ، وإعزازاً لها : تهدهدها ، وتتوسمها ، ثم تلثى إلى قطعة من مرآة ، فتوازن بين قسَمات العروس القطنية وقسَماتها ، ثم تغرق في ضحك ذى نبرات رائقة يسرى فيها المرح البرى .

يا عَجَباً لهذه أَلَمْشَابِهِ !

تلك أنفُ العروس القطنية التى تماثل النبتة الياقة ، ليست إلا صورة من أنف « ريحانة » .

وهاتان العينان النجلوان الكحيلتان ، هما عيناها .

وهذان الحاجبان الغزيان ، أى فرق بينهما وبين حاجبي الفتاة ؟ وكانت « ريحانة » تؤثر عروسها بأعز مكان فى الدار ، حتى إنها حين أحضروا لها « صندوق الجَهاز » أحلّت عروسها فيه قبل كل شىء ، وأنزلتها منه أكرم منزل .

صندوق يزدهى بألوانه ورسومه ، لم يكد يُرَفُّ إلى الدار ذات يوم ، محفوفاً بأغاريد الفرح والتهلل ، حتى أيقنت الفتاة أنها خُطبت ، وأنها منذُ الآنَ عروس .

قالت لها أمها فى صوت رءوم :

في هذا الصندوق يا « ريحانة » نضع متاع العُرس ، فاحفظيه ، وكوني له صائنة .

فتلقت الفتاة هذه الكلمات في خَفَرٍ يطوى هِزَّةَ البهجة والاستبشار ، ولكنها لم تكن تدري : ماذا يدعوها إلى الخَفَرِ ؟ بل ماذا يبعث فيها الإبتهاج ؟ .

وتجادبَتْها بغمَّةٍ مشاعرُ أنْسَتْ بها ، وإن لم تدرك لها كُنْها .
قُصارى ما اطمأنت إليه من رأى أن كل فتاة على أُهُبَةِ الزواج خليفة أن تفرح ، وأن يكون لفرحتها قِناع من حياء ، فشأنها شأنُ لِدَاتِها سواء بسواء !

ورأت « ريحانة » صندوقَ الجَهازِ يستقبل في اليوم بعد اليوم جديداً من الثياب والمتاع ، فلم يكن بُدُّ من أن تنتقل عروسها القطنية من جانب إلى جانب ، ليكون لها على اختلاف الأحوال مقام كريم .
وكانت « ريحانة » تقضى طويلاً من الوقت أمام الصندوق تُسَوِّى مَنَابِةَ العروس ، فتتخير لها من متاع العُرسِ وساداً ، وتبسط عليها دِثَاراً ، وتكسوها من قشيب الثياب .

وكيف « لريحانة » أن تَضَنَّ على عروسها القطنية بتلك الحفاوة ؟
أليس بينهما من الوشائج ما يجعلهما شخصاً واحداً ، لا ميزة ولا فرق ؟
أولست « ريحانة » هي العروس ؟

وإذا خلا المنزل من أبويها ، وضافت بوحديثها ، عَجِلَتْ إلى الصندوق ،
توقظ عروسها فتناجيها بذات نفسها ، وتُصْنِي إلى مشورتها وما تقضى به
من أحاديث .

وكان أبوها كلما أضاف إلى الصندوق طارئاً من المتاع ، ألقى على
العروس القطنية نظرة ، ثم التفت إلى ابنته يرنو إليها ، ويُرَبِّتَ كتفها في
رقة وحنان .

وشرعت الأم تتحَيَّن بعض الفترات ، لتتحدث إلى « ريحانة » في
شئون تتعلق بالزواج : حياتها في غدها القريب ، وعيشها في بيتها
المرَجُوء ... ولا تفتأ تُعَدِّقُ نصائحها إليها أن ترعى زوجها ، وأن تُعْنَى
بخدمته ، وأن تكون على الدوام حريصة على كسب رضاه .

فأما « ريحانة » فإنها كانت تنصت لهذه النصائح أجمل إنصات ،
ولا تَنَبِّس بحرف .

وما تكاد الأم تَقْرُغُ من حديثها ، وتنطلق لشأنها ، حتى تُهَرِّعَ
« ريحانة » إلى عروسها القطنية ، تحاورها وتبادلها الرأي فيما غَمَضَ عليها
من تلك النصائح .

وقد يبدو « لريحانة » أن تتلفت يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، حتى إذا استيقنت أن
المكان خال لا رقيب ولا سميع ، أَسْرَتْ إلى عروسها سؤالها في صوت
خافض عن الزوج المنتظر .

وسرعان ما تنطلق العروس القطنية ، مطبئةً في وصف ذلك الزوج ،
مُسَيِّدةً بخلاله وشمائله ، متغنيةً بوسامته ورجولته ، و « ريحانة » مصغية إلى
عروسها ، مطيلة في إصغائها ، دائبٌ قلبُها في خفوق ، سَكْرَى بنشوة
الحديث .

وأقبلت أمها عليها يوماً ، ووجهها يتطلق ، وهمست في أذن ابنتها :
سيحضر اليوم زائراً أباك .

وفطنت « ريحانة » من فورها إلى الزائر الذي تعنيه أمها .
ومن يكون غيره ؟ إنه رجلها الأوحد ، هو الذي بعثه الله لها هادياً تجد
في كنفه الأمن واليُمن . . . هو الذي يجدر بها أن تهبه قلبها جميعاً . . .
تجبه حباً عميقاً ، حباً جديداً فريداً ، لا كالحب الذي تضمره لأبويها .
وكانت الفتاة يتناهى إلى سمعها أن زوجها لن يرى لها وجهاً قبل ليلة
الزفاف ، فأما في هذه الفترة ، فترة الخطبة ، فلا مناص من أن يقوم بينه
وبينها جدار غليظ ، وحجاب كثيف .

ولكن « ريحانة » على الرغم من ذلك كله ، أَلْقَتْ نفسها مسوقة في
هذا اليوم المتميز من أيام حياتها إلى أن ترتدى جديداً من اللبس ، وتتخذ
شيئاً من الزينة والعطر .

وعجبت من نفسها : فيم هذه العناية التي تبذلها ، على حين أنه لن
يكون بينها وبين زوجها في هذا اليوم لقاء ؟ .

ولبت تتعجلُ الوقت وتضيق بالانتظار ، وتبثُ نظراتها من الطاق ،
تبين دورة الشمس من تقلص الظلال على الحوائط والجدران .
وأخيراً عرفت أن الضيف المنتظر قدِمَ الدار في رُفقة من ذوى قرباه ،
فاستحثت خطاها ، هاربة إلى السطح ، وانزوت في غرفة ضيقة ، لا رفيق
لها إلا عروسها القطنية .

وظلت « ريحانة » في الغرفة ، محتاجة الأوصال ، مبهورة
الأنفاس . وفيما هي تُعاني اضطرابها ، كانت تختلس النظرَ إلى عروسها
القطنية ، فتراها تبتسم لها في دهاء ومكر ، كأنما تشير إليها أنها تعلم
مبعثَ حفاوتها ، وسرَ اضطرابها ، فكانت « ريحانة » تضيق بها ،
وتزيعُ نظرها عنها .

ولبت كذلك فترة ، ثم أحست طارئاً من حركة وجلبة ، فعلمت أن
زورة الضيوف قد انقضت ، وأنهم عائدون أدراجهم . . . فشعرتُ بقدميها
تدنوان من شِقِّ في حائط الغرفة يشرف على الطريق ، وصافح سمعها صريرُ
الباب الكبير ، وإذا عينها ترصد الزوار في مُنصرفهم من الدار .
وخيلَ إليها أن بصرها قد أوتى من الحدة أضعاف ما كان له ، فأصبح
يستطيع أن يميز الأشباح في وضوح وجلاء .

وما أسرع أن عرفت فتاها !

لقد ميّزته من بين الزوار جميعاً ، منذ النظرة الأولى . . . ومحال أن

يكون نظرها قد خدعها ، فإن كل سِمَة من سِمَاتِ هذا الشاب تنطق بأنه الزوج لا مَحَالَة .

قامة باسقة ، تتجلى فيها الفتوة والرجولة ، ومِشْيَة مزهوّة يستبين فيها النشاط والمرح ، وكِساء أنيق يتلألأ بلونه الزاهر .
أما مُجَيَّاه ، بملاحمه وقسماته ، فلم يَبْنِ لها إلا لَمَحًا .
ومهما يكن من أمر ، فإنه فتى وسيم ، بل إنه دُرَّة الفتيان ، وزينة الشباب !

وأرغعتْ الجمعَ نظرها ، حتى أخفته مَعَاطِفُ الطريق .
وأُنَحَّتْ « ريحانة » على عروسها القطنية تضمُّها في شغف واهتياج ،
حتى أحسَّت العروس أنها تخنق .

ومنذ هذا اليوم خَفَقَ قلب « ريحانة » لزوج المستقبل . فكان شبح
هذا الفتى المَشِيق الطروب بكسائه الزاهى يترأى لها حيناً في اليقظة ، وحيناً
في جنة الأحلام .

وانكشف لها أن حياتها الماضية لم تكن إلا أياماً فارغة تافهة ، وأنها
قد أخذت تَتَمَكَّلُ أياماً عامرة بالبهجة والإيناس ، مشرقة بالأضواء السواطع
تَشِيع فيها مِرْقَصات الأنعام .

وتواترت زورات الزوج ، فأذكتْ حبَّ « ريحانة » وملأت قلبها من
وَجْدٍ وحنين .

ولم تزد صلتها بفتاها على تلك النظرات المُرسَلات من شِقِّ الحائط
في غرفة السطح ، تُشَيِّعُ بها شَبَحَ القامةِ الفارعة !

وما زال صندوق الجَهاز يتلقى الجديد ، حتى أوشك أن يكتمل ، فتواصل
حديث الأسرة في عقد الزواج : متى يومه ؟ وعلى أى نحو يكون ؟
ولكن لأمر ما فوجئتُ « ريحانة » بانقطاع الحديث في شأن الزواج ،
واقترن ذلك بأن الزوج لم يعد يُهلُّ على البيت كما كان يفعل ...

وشاع جوٌّ من الغموض لم يظهر الفتاة سره ، فأظلت نفسها حيرةً
واكتئاب ، وفزَعَتْ إلى عروسها القطنية تلمس منها العون فيما حَزَبَها
من أمر ، بَيَدَ أن عروس القطن كانت لا تزيد على أن ترنو إليها بعينها
الكحيلة وحاجبها الغزير ، في حسرة واغتمام ... وكانت « ريحانة »
كأنما تلمح في عين عروسها أُنْدَاءً من دموع !

وكما تفقدت الفتاة صندوق الجَهاز ، وجدته دائماً يرتقب شيئاً ينقصه ...
شيئاً ، واحداً ، ذلك هو حُلَّةُ الزَّفاف ، ولكن تلك الحلة غابت وطال مغيبها !
ورِيَعَتْ « ريحانة » مما تراه من تجهُّمِ أبيها ، وتحسُّرِ أمها .

واعترمت أن تقتحم السر المكتوم ، فطفقت تراقب حركات والديها ،
وتتجسس عليهما ، وتسترق السمع إليهما ، وما كان يَعزُبُ عنها أنها
بذلك تجانب ما يليق ، ولكن ... أليس الذى يغشى الدار من جهامة
وخفاء عذاباً لا يطاق ؟ !

واستطاعت بعد لآي أن تصل إلى أشياء ظَنَّتْها مفتاح السر أول
وهلة ، بيد أن هذه الأشياء زادتْها حيرة إلى حيرة .
إن أباهَا يُنْجِي باللائمة على الزوج ، لأنه شَدَّما اشتبك في خصومة
ونزاع ، واشترك في مشاجرة وعراك ... حتى صار اسمه مُضْغَةً الأَفْواه !
وساءلت الفتاة نفسها :

ماذا يَعِيب الرجل في أن يخاصم ويغالب ، حتى يُعَقِّدْ له الظفر ؟ أليس
ذلك برهاناً على فتوته ورجولته ؟ إن ذلك لجدير أن يُعَدَّ في محامده ...
أيرغب أبوها في رجل كالفتاة في خِدْرها ، لا تملك إلا الطَّوْع والإِذعان ؟
إن أباهَا لَيَنْعَى على الزوج ارتيادَه محافل الموالد ، وغَشِيَّاته سوامر الغناء
وقيادته للمواكب والجموع ، يقوم زعيماً عليها ، ويتقدمها راقصاً يتلاعب
بعضاه ...

ومضت الفتاة تسائل نفسها :

أيعاب الرجل بأنه ممراح طروب ، يقبل على مباحج الحياة ، ويستوفي
حظه من متع الشباب ؟ أيريد أبوها أن يكون الزوج الفتى على غِرازه هو ،
وَقُوراً في مجلسه ، قعيد بيته ، يملأ الجو حوله من تحفظ وترثت وغبُوس ؟
لماذا لا يرقص ؟ لقد طالما سمعتُ أن كثيراً من الأزواج استخَفَّهم
المرَّح في الأعراس ، فرقصوا طرباً أمام هودج العروس في موكب الرِّفاف .
إنها لتمثل ذلك الفتى المشيقَ بكُسوته الزاهية يتقدم هو دَجها مطوَّحاً

بعصاه ذات اليمين وذات الشمال ، وقد أخذَ منه الاعتزاز بجبال عروسه
وفتنتها كلِّ مبلغ ! ... وإنها لتمثله كذلك وقد رأى الجَمْعَ يَدُّونَ أعينهم
إلى هودجها ، فأشرع إليهم عصاه يردُّ عن عروسه خائنة النظرات ...
ما أكثر ما يتجنَّى أبوها على الفتى الحميدِ الخصال !

ولبت الصندوق ينتظر حُلَّةَ الزَّفَافِ ، ولكن الحلة صَدَّت عنه ، وطال
صدودها مديدا من الأيام .

وفي هَدَاةٍ من ليل ، تفرغت « ريحانة » من نومها ، وصوتُ أبيها
يَدَوَّى في الدار ، ويقول :

طالما نصحتُ له ، مُحاسِنًا مرة ، ومُغْلِظًا له في القول مرة أخرى ، فلم
تُجِدْ معه الحُسْنَى وغير الحُسْنَى ... وها هو ذا اليوم يحصِّد ما غرست
يداه ... لقد ذهبَ إلى غير مَرَجِع !

فارتجفت « ريحانة » مما تسمع ، وتكشَّت في غطاءها ، وبقيت ساهدةً
ليلها كله ، يطوف حديثُ أبيها حولها كأنه خُفَّاشٌ مخيف .

وفي الغداةِ رأت أمها تقصِّد إلى صندوق الجَهَّاز ، فتُحَكِّم إغلاقه بالفتاح ،
وتحمِّله إلى مكان في الدار بعيد .

وتلَّتْ ذلك أيام لم تسمع فيها « ريحانة » من والديها أىَّ نَبَأٍ يتعلق
بالزوج ، فلا شئ إلا الصمت والجهامة والركود .

ولم يبرح سَمِعَ الفتاة قولُ أبيها : لقد ذهب إلى غير مَرَجِع !

ماذا يريد أبوها بما يقول؟ ما معنى أنه لن يرجع؟ إن الموتى هم الذين لا يرجعون... أيكون قد مات؟

لقد تلقَّطَ سمعها نثاراً من أحاديث في هذا الصَّدَد ، ولقد قيل فيما قيل : إنه سيقَ إلى غِيَابَةِ السجَن في جنايةٍ ذاتِ خطر .

حَمَى الله الفتى المُقَدَّام !... فيم يُسَجَّن؟ هيهات أن يكون قد أُجْرِمَ أَوْ جَنِيَ... إنه لبطل كريم ، تكاثر حُسَّاده ، وتوافر منافسوه ، ولا بد أنهم نَصَبُوا له حائلَ كيد ، واثمروا به ليقعوه في محذور... يالهم من أخصاء!... مهما يفعلوا فإنهم لن يُدِيرُوا عنه ، ولن يظفروا بكرهها له ! وخلت مرةً إلى عروسها القطنية ، وأقسمت بين يديها أغلظَ القسم إنها لن تخفِرَ عهده ، ولن تخونَ ودَّه ، ما بقي فيها دَمَاء من حياة ! لتكوننَّ له وفيه نقيّة ، فهو فتاها الأولُ والأخير .

وفُجِعَتْ « ريحانة » بعد قليل في أبيها ، ولم تلبث أن لَحِقَتْ به أمها . وغدت الفتاة وحيدةً بيتها ، لا تجد إلا عروسها القطنية من أنيس .

وانتقلت إلى الدار خالة للفتاة شاركتها في حياتها ، وإن لم تنفِ عن نفسها حياة الوحشة وفراغ الفؤاد . . .

وتعاقب الخطَّاب على بيت « ريحانة » يطلبونها . . . ولكنها ردَّتْهم جميعاً !

فإذا سألتها خالتُها : ما بالها تَعْتَلُّ على كل خاطب ؟

أجابتها الفتاة في سذاجة وسلامة نية ، وعيناها موصولتان بأديم الأرض :

لقد جَرَّبْتُ بَحْتِي في الزواج يا خالة !... والبحت الأول لا يُعَوِّض ...

فإن أَلَحْتُ خالتي عليها ، تحاول إقناعها بقولها :

أَتُظِلُّنِ عانساً سائرَ عمرِكِ ؟

أجابتها الفتاة في ثبات و يقين :

لستُ عانساً يا خالة . . . أنا مخطوبة !

— مخطوبة ؟ . . . لقد ذهب الذي تَعْنِينِ ، وانتَقَضَى أمرُهُ .

— إما أن يكون حَيًّا ، وإما أن يكون قد طوته المَنُون . . . فإن كان

حيا فهو عائدٌ إلَيَّ ، وإن كان ميتا فأنا صائِرةٌ إليه . . . سنلتقي يوما ،

ونتزوج حتماً ، في هذه الدنيا أو في العالم الآخر !

وصبرتُ « رِيحانة » على تلك الحال عاما وبعضَ عام . . . تنتظر

عودة الحبيب ، وقد شفَّها الجَوَى ، وبرَّحَ بها الانتظار ، حتى قصفتْ

يدُ المَنُونِ غصنَ شبابها الذاوى .

.

وما يبلُغُ البستانيُّ الشيخَ هذا المبلغَ من رواية قصته ، حتى يَفْغَمَ غُلْبَةَ

دخانه ، وما هي إلا أن يُسوَّى لفافة يشعلها في تمهل ، وهو يقول :

هكذا كانت نهاية تلك العذراء !

وبهذه الجملة كان دائماً يختم قصته .

... ..

واتفق لى فى آخر لقاء له أن امتدَّ بنا الحديث ، فقلتُ لشيخ البستان

بعد فترة صمت :

ما كان أشقى حياةَ هذه الفتاة !.. لقد خَطَّتْ بيدها طريق
تعاستها ، على حين أنه كان فى مُكْنَتِها أن تَنَعَّمَ بشبابها فى ظل
زوج جديد !

فرفع الرجل بصره إلىّ ، وقال :

أترى أنها كانت حقاً شقية تاعسة ؟

— وهل تكون حياة الوحدة والوحشة والانتظار إلا تعساً وشقاء ؟ !

فأرسل الرجل بصره فى الأفق ، وهو يقول :

ربما كانت حياة الوحدة والوحشة والانتظار حياة حافلة بأطايب
النُّعمَى ... إن وفاء النفس وصفاء السريرة يُسبغان على الرُّوح طمأنينة
وسكينة هما لبابُ السعادة وجوهرها الخالص !

فنظرتُ إليه وقتاً دون أن أنبس ، وجعلتُ أستعيد كلماته الساذجة
الغريبة ، وأدير الرأى فيها .

أفى الإمكان حقاً أن نكون بأحزاننا وهمومنا سعداء ، ما دام ثَمَّة شعور
بالوفاء والإخلاص يملأ جوانب النفس ؟

وأزِفَ وقت مغادرتي لمُسْتَشْرِفِ الدار ، ولكنني لم أجدَ محيِداً عن مواصلة الجلوس ، ومتابعة الحديث .

ووجدتُني أقول لصديق البستانيّ الشيخ ، وكأني أتحدث إلى نفسي :
والزوج ؟ ... ألم تُحِطْ علماً بشأْنِه ؟

فلاحت على وجهه بسمة وادعة ، وقال هادئ الصوت :

دعنا من شأن هذا الزوج ... علّمهُ عند عَلامِ الغيوب !

— أ كبر الظن أنه كان شريداً عريداً ...

فأخذ الرجل يقلّب علبة دُخانِه ، ثم قال :

كان كذلك فيما يشاع ويُروى !

— خيراً فَعَلْتَ الأقدار ، إذ فرقت بين هذين الإنسانين قبل أن

يتزوجا ...

— لماذا ؟

— لو تَمَّ زواجهما ، لبَسَّت تلك الفتاة الطيّبة النقيّة بين براثنِ ذلك

الشّرير الأثيم !

— ربما كان ذلك ... وربما كان للأمر وجه غير هذا الوجه !

ثم تابع تقليبه لعلبة دخانِه ، وهو يقول :

لم يكن محالاً أن تصبح هذه الفتاة أسعدَ الزوجات .

— في صحبة هذا الشّرير ؟

— نعم يا سيدى . . . فى حبة هذا الشرير ! . . . إن عينا الطاهرة
لم تكن ترى فيه إلا المثل الأعلى للرجولة والبطولة والإقدام . . . كانت
عين هذه الفتاة من البراءة بحيث لا تبصر إلا الجانب الطيب من
مشاهد الحياة !

— ولكن أليس من الحق أن تظل هذه العين البريئة غافلة عن
الحقائق ، مخدوعة بالظواهر ، راضية بهذه الغفلة والخداع ؟ !
فابتسم الشيخ ابتسامة يتجلى فيها الإشفاق . . .
وقال :

أليس من نعم الحياة أن نظل شيئاً ما غافلين عن الحقائق ، مخدوعين
بالظواهر ؟ . . . وعلى أية حال ، من ذا الذى أوتي القدرة على أن يحكم حكماً
حاسماً يميز فيه بين الحقائق والأوهام ؟ دونك مثلاً . . . كل الظواهر
والقرائن تؤيد أن هذا الرجل كان جُرثومة شر ، وأخا سوء .
— أأنت فى ذلك تشك ؟

— العلم عند علام الغيوب . . . نحن دائماً نحكم بحسب الظاهر . إن
عيوننا حَسَرى ، وإنها فى الغالب أَعْيى من أن تستجلى بواطن الأمور
ودخائل الأحداث . . . قد يكون هذا الرجل على سوءه وشره مَطْوًى
الضلع على قلب أنقى نقاء من قلب طفل برىء . . . أليس ذلك بجائر ؟
فهممت :

كلُّ شيءٍ جائز !

— فإذا كان للرجل هذا القلب ، فهل يَعْجزُ عن أن يُسعدَ زوجته ،
ويكفل لها نِعماء الحياة ؟! ... أكان من المتعذر أن يتأثر هذا الرجل
بطيبة فتاته وكرم طبعها ، فإذا هو على يديها تائبٌ من ذنبه ، ناهجٌ طريقَ
خير وهدى ؟!

كان شيخ البستان يخوض في هذا الحديث ، مسترسلاً يتوقّد حَمِيَّةً
وحماسة . .

وبغته رأيتُه قد توقف ، كأنما يستدرك على نفسه ما فرطَ من قول .
ثم انحنى على عُلبته يعبث بالتبع في صمت ، وأنا أحدّق في وجهه
أتقحصه ، وما هي إلا أن ألفتُه قد نهض يَلُمُّ شَعَثَه ، وحيّاني في أدب
جَمٍّ ، وأخذ سَمَتَه بين ألفاف الحديقة ، فلم أرْده عنه بصرى ، حتى
أطبقت عليه أفنان الشجر ، تُعِينُها أستار الظلام .

....

ومرت بضعة أشهر بعد هذا اللقاء ، قضيتها مستشفياً في بعض المداين ،
خارج « مصر » .

وما إن عدتُ حتى انتهت إلى سمعي أن البستانيَّ الشيخ قد وافاه
حينُه منذ قليل ، ففضّني أسف عليه ، وقصدتُ الضيعة أمضى بها فترة ،
فكان أول ما عُنيْتُ به أن يَمَمْتُ قبره .

وفي فواتح المساء ، خرجتُ إلى مُسْتَشْرِفِ الدار وحدي ، وبسطتُ
الحصيرَ أجلس عليه ، وأنا أرنو إلى تلك الحديقة الموحِشة .

وبقيتُ وقتاً في صمت ، أعرضُ جلساتي إلى شيخ الحديقة ، فابلثتُ
أن آنستُ صوتاً لم يكن غريباً عني ، صوتاً واضح النبرات ، على الرغم من
بُعْدِ مَأْتَاهُ . فأرهفتُ السمع في تلك الخلوة المظلمة ، وإذا الصوتُ
يُروِي لي قصة « ريحانة » كما هي بأحداثها وتفصيلها ومراحلها .

شدَّ ما كان حبيباً إليَّ أن أصغي ، وأن أنهلَ الكلمات نهلاً .
ولما فرغ الهاتف من قصته ، ألفتني أهمهم ، وأنا أرنو إلى الأفق ، وقد
تكاثفت ظلماته :

والزوجُ ؟ ... ألا علم لك به ؟ !

فسمعتُ الهاتفَ كأنما يحيب :

أما برحتَ طلاعاً إلى تعرفِ شأنه ؟

ورأيتني أنهض من فوري ، وكأن يداً مستورة تأخذ بيدي ، تهديني
الطريق ، فجعلتُ أجوسُ خلال الأشجار ، تُحدِّقُ بي أطباقُ الحُلُكَةِ
والصمت والوحشة ، حتى أفصى بي المسير إلى كوخ فقيدنا البستاني .

ودفعتُ الباب في رفق ، وأضأتُ شمعةً أصبَتْها هنالك ، فتبينتُ متاع
الرجل كما تركه ، لم تَمَسَّه يدٌ بعده . ووقفتُ أرَدِّدُ النظرَ أمامي ، ثم
ألفتني أقلب وأتقب ، حتى عَلِقْتُ أناملِي بشيء ، فأخرجته أدْرِيه من

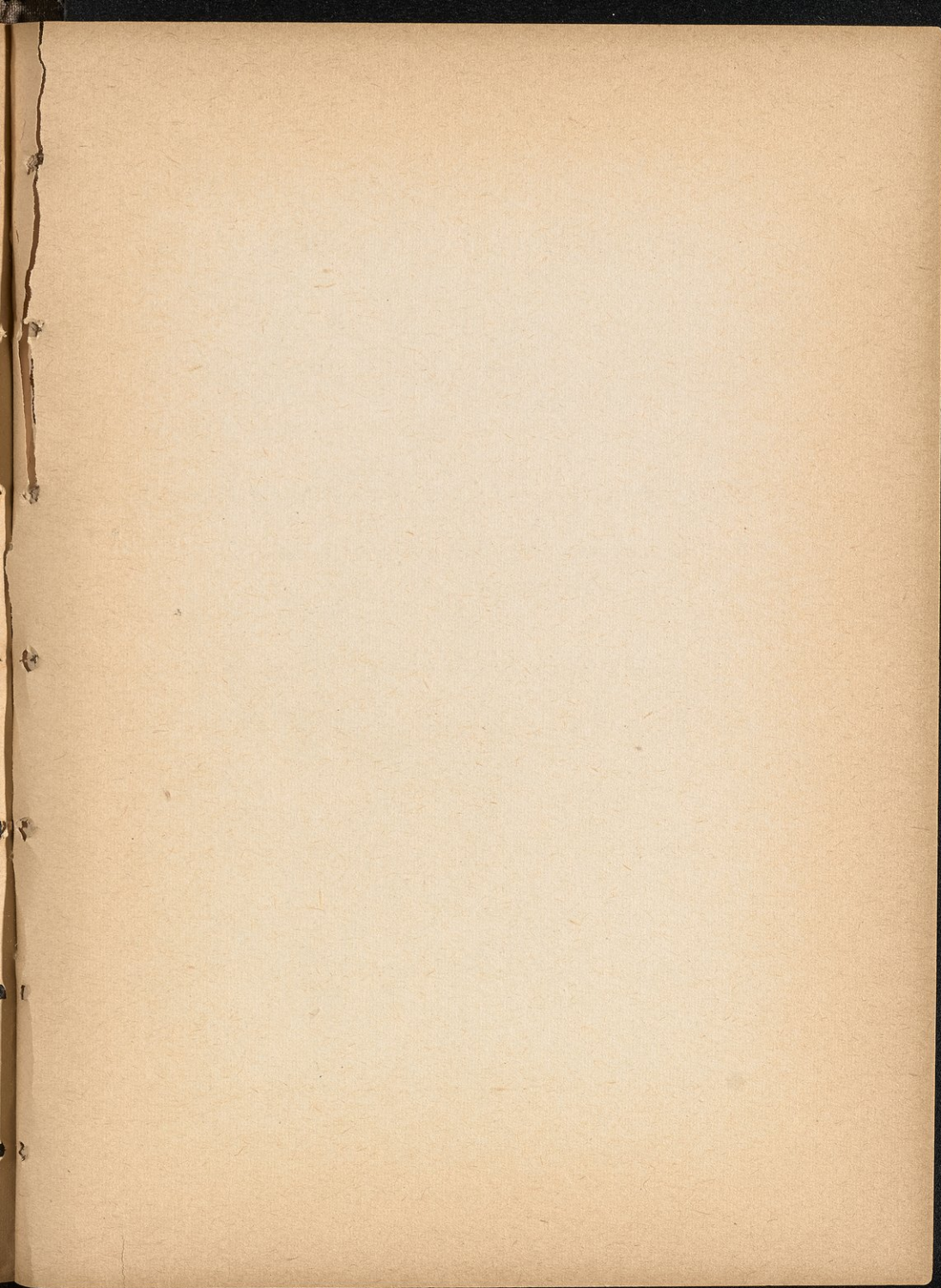
ذُبَالَةُ الشَّعْمَةِ ، فَإِذَا هُوَ : « عُرُوسٌ مِنْ قُطْنٍ » !
 وَجَمَدَتْ قَدَمَايَ لِحَظَةٍ ، وَأَنَا أُحَدِّقُ فِي ذَلِكَ الْأَثَرِ الْعَجِيبِ :
 أَنْفٌ كَالنَّبَقَةِ الْيَانِعَةِ .

عَيْنَانِ نَجْلَاوَانِ كَحِيلَتَانِ .

حَاجِبَانِ غَزِيرَانِ .

وَأَحْسَسْتُ هَيْبَةً مِنْ نَسِيمِ تَقْتَحِمِ الْكُوخِ ، كَأَنَّهَا أَنْفَاسٌ تَتَصَعَّدُ . فَمَا هِيَ
 إِلَّا أَنْ انْطَفَأَتِ الشَّعْمَةُ ، وَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ ، وَخَيْلٌ إِلَى أَنِّي أَرَى طَيْفَ
 وَجْهِ يَهَيْمُ فِي الْكُوخِ . . .

وَالْتَقَتْ عَيْنَايَ بِوَمِضِ عَيْنَيْهِ ، فَسُرْعَانَ مَا وَجَدْتَنِي أَوْسَدُ
 الْعُرُوسِ الْقَطْنِيَّةِ مَكَانَهَا الَّذِي أَخْرَجْتُهَا مِنْهُ ، وَأَتَسَلَّلُ مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ ،
 ضَارِبًا فِي الظَّلَامِ ! . . .



هذه الحصاة

في حياتك أحداثٌ قد تعدّها تافهة لا بال لها ، ولكنك لا تلبث أن تجد لها من النتائج ما عساه يُغيّرُ منهجك في هذه الحياة ...

ربما صدرتُ عنك نأمةٌ على غير قصد ، أو بدرتُ منك كلمة هي عَفْوُ الخاطر ، أو انحرفتُ بك القَدَمُ خطوة دون تدير ، فإذا أنت قد ألفتَ نفسك تشقُّ طريقاً غيرَ طريقك المرسوم ، وإذا البؤنُ شاسع جِدُّ شاسع بين ماضيك المطوَّى ، وحاضرك المرموق .

إنْ هي إلّا « حصاة » صغيرة تعترض السائرَ في مسلكه ، فلا يتمالك أن يعترُ ، ولا ينهض بعد ذلك إلا وقد احتواه أفق جديد .

ليس حديثي هذا إليك ضرباً من لَفْوِ الحديث ، وإنما هو زُبْدَةٌ ما خَلَصَ لي من أحداث حياتي التي كُتِبَتْ عليّ .

لم يكن محورُ قصتي إلّا « حصاة » عثرتُ بها قدمي ، فكان منها كلُّ ما كان !

وأنت ألفتَ من نصيح الناس أن يُحذِّروك من جسام الجنادل والصخور

أما أنا فما أردتُ بما أثبتك إياه من حديثي أن أحذرَكَ من صخرة أو جندل ، وإنما أردتُ تحذيرَكَ من هذه الحَصِيَّات الضَّئِل ، حين تتناثرُ في مواطئِ الأقدام .

ولكنَّ على ثقة بأنِّي لن أخفيَ عنكَ سرّاً ولن أُمَوِّهَ عليك شيئاً . فهذه قصتي أصارحكُ بها ، لا أبالغ ولا أتزيّد ، وقصّاري ما أبتغيه منها أن تنفعَ بتلك التجربة التي مرّتْ بي ، فأكونَ قد أسديتُ إليك جميلاً .

إن المتشرفَ بخطابك في هذه الساعة رجلٌ مُعَدِم ، حَطَمَتِهُ الأيام ، وألَحَتْ عليه الشيخوخة ، وبلغَ أرذلَ العمر ، وهو لا يجدُ الآن مُتَنَفِّساً لعيشه في غير لفائف الدخان الرخيص ، يبيعُها كَسْباً للقوت وطلباً للكفّاف . لقد أسلمني الزمن إلى هذه الحِقْبَةِ من حياتي ، تُمِضُنِي فيها الخِصَاصَةُ ، وتُضِلُّنِي الوَحْدَةَ . وما كانَ عزيزاً عليّ أن أصبحَ رجلاً من ذوى المناصب العالية ، وأرباب الاسر الرفيعة ، وأولئك أقراني في النَّشْأَةِ ، قد أُمْسَوْا زينةَ الحياة ، وزهرةَ المجتمع ، وظفروا من الدنيا بأطيب ما فيها من نعيم .

ولكن هي « الحصاة » . . .

رَلَّتْ بها قدحي ، فَهَوَتْ بي إلى الحَضِيض !

بنفسِكَ أن تسألني :

ما هي هذه الحصاة ؟

وكانى بكَ تنعجلى الجواب .

لكى تعرفَ حصاتى هذه ، يجب أن تضعَ على عينيكَ المنظارَ المُكَبَّرَ ،
فسينكشفُ لكَ أمرها .

هى إنسانة . . . إنسانة وافرة الحظ من الوسامة والحسن ، لا وصفَ
لها عندى إلا أنها عجيئةٌ من لؤلؤ سقيتَ بذوبٍ من الماس . ولكن أىَّ
قيمة لهذا الوصف ؟ أليست هى فى أول الأمر وآخره امرأةً من بنات
« حواء » ، جُبِلَتْ فى حقيقتها من ماء وطين ، إذا أنتَ حللتها ، ورجعتَ
بها إلى عناصرِها الأولى ، ألفتَ قيمتها لا تزيدُ على بضعة قروش ؟ !
لا تضعَ المنظارَ المُكَبَّرَ جانباً ، بل امضِ فى الكشف والتعرف جاهدًا .
سترى هذه الإنسانة قد اعتلتَ منْصَةً فى ملهى كان قائماً منذ عشرات
الأعوام ، وإنها لتبدو فى زىِّ الملاحين رُؤَادِ البحار : كُسُوَّةٌ قصيرة
تلتصق بالجسد ، وتتمُّ عن مفاتنه . وإنها لتتجلى فى بُهْرَةِ المنْصَةِ لا تزيد
على أن تُنْقَلْ قدمها فى دائرة صغيرة ، منشدةً إحدى الأغانى بصوت ليس
بالرخيم .

لم تكن ترقص ، ولم تكن تُغنى ... حسْبُها ما كانت تبديه من إيماء ،
وما تلفظه من نغم ، فإذا بها تتحوّل إلى اختلاجة راعدة ، إلى رِغْشَةٍ
متمردّة ، لا تلبث أن تُثيرَ فى نفوس النّظّارة رُوحَ العريضة والهوس .
تنحّ بمنظارك المُكَبَّرَ عن هذه الناحية ، وسدّده إلى ذلك الركن الأيسر

من المسرح فستلمح من بين النظارة هنالك فتى تستطيع أن تجعل وصفه
في كلمتين . . . شاب تنوهج في إهابه كل معاني الشباب ، شاب يختصر
لك في جسده وفي رُوحه كل خصائص تلك السن الرائعة ، سن
الثامنة عشرة !

ولن يفوتك أن ترى ما تحتويه يمينه من رزمة كتب مدرسية !
إنه في جلسته المسحورة يتتبع تلك الإيماءات والخلجات بعين طفل
رقيق يتفرج في « صندوق الدنيا » أول مرة ! ... فإن ما يشهده الفتى
في هذه اللحظة ليس في الواقع إلا « صندوق دنياه » الجديدة ، وما أحق
تلك « الحصة » الأدمية ذات الجسم الفالوذجي الجراج بأن تسميها
« دنيا » جديدة لذلك الفتى ، قد انزاح عنها الستار ، على غير انتظار !
إذا أقسم لك هذا الفتى بأنه لم يطأ هذا المسرح من قبل ، ولم يعرف
له اسماً حتى ساعته تلك ، فصدقه . . .

وإذا أنباك بأنه قبل تعريجه على هذا المسرح بلحظات ، كان خالي
الذهن من أمره كل خلاء ، فصدقه أيضاً . . .

ليس لتكذبيه من مُسوِّغ . فقد كان الفتى أبيض الصفحة ، صريح
اللهجة ، آية في الطُّوع ، صبور النفس ، مثابراً على الدرس .

كان يحيا في كنف والد أشبه ما يكون بقائد شديد المِراس ، قوى
الشكيمة ، جهم القسِمات . منزله أقرب إلى أن يكون تُكنة مُحِشَّة

من تُكُنَّاتِ الجند. وما حياة هذا الفتى في ظل ذلك النظام إلا «مواعيد»...
مواعيدٌ دقيقة ليس إلى الإخلال بها من سبيل. وإن وطأة هذه المواعيد
لتجعلُ الفتى يتمثلُ نفسه في جوف ساعةٍ ضَخمةٍ يقوم منها مقامُ «الرقاص»
عمله فيها هو تلك الحركة الدَّوَّوب من جيئة وذهوب، وفقاً لخفقات
الساعة الصارمة، لا وناء ولا انحراف.

بيد أنه مع هذا كله لم يكن يجدُ في نفسه مَسَاغاً للضجر، فهو مستسلم
لهذه الحياة الراتبة المستتبّة، يسودها ذلك النظام المحكم الدقيق...

أليس النظام، فيا تَعَلَّم الفتى، عماد الحياة؟
ما كان للفتى من بُغْيَةٍ إلا أن يُنجز دراسته، ليأخذَ جَوَازَهُ إلى
مَنْصِبِ كَرِيم. فذلك ما كان يحدثه به أبوه، لا يَمَلُّ فيه تَكَرُّارُ
الحديث.

بينه وبين إتمام الدرس عامان اثنان، يقضيها بما هو مألوفٌ من اجتهاده
واستذكاره، ثم يظفر آخرَ المطافِ بتلك الصحيفة المبرقشة الزاهية،
مَهْوَى الأفتدة، ومَطْمَحِ الأنظار...

ولهذا الفوز ما بعده!

أليس هو موعوداً من أبيه بأنه ما إن ينالُ إجازته الدراسية، حتى
يحقق له تلك الأمنية الغالية، إذ يُهدى إليه ابنة عمه الحسنة عروساً له؟
إنها فتاة وسيمةُ الطَّلعة، يَزِينُهَا تحفظ وخجل، لا تقعُ عليها عين

الفتى إلا مرةً في كل جمعة ، وفي هذه الزورة الأسبوعية تظفر الأسرة بمتعتها التي لا متعة لها سواها في سائر حياتها . . . الأبُ يقيم في هذا اليوم مأدبةً غداء تقوم على أربعة لا يزيدون : الأب وأخته وابنه والعروس ، وهؤلاء الأربعة يجمعهم طابعٌ واحد من التزمُّت والتوقُّر والاحتشام .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الفتى كان يرى في هذه المأدبة المتواضعة « حفلةً ترفيه » شائقةً تنعم بها في كل أسبوع تلك الشُّكنة الموحشة بنظامها العسكري .

وكان الفتى كلما تطلع إلى ابنة عمه في مكانها من المائدة قبائلته ، أحسَّ كأن الفتاة خلف أسوار وقضبان لا يستطيع الدنو منها . . . أو كأنها « مِنطقةٌ حرام » في عُرفِ قائد الأسرة العتيد . . .

ما خلا الفتى إلى عروسه قطُّ ، وما حاول أن يخالسه الكلام يوماً من الأيام ، ولكنه مع ذلك كان يلتقي عروسَ غده فيطارحها الحديث ، وَيَنعم في ظلها بأوقات صفاء ومراح ، يستبجح فيها ما لا يستطيع البوح به ، حتى في مناجاته لنفسه . . . كان ذلك يجري في أحلام اليقظة ، وفي رؤى المنام ! . . . فإذا ما صحا من نشوته ، أو انتبه من غفوته ، استنكر صنيعه ، وثار عليه ضميره يؤنبه ، فلا يلبث أن يعاهد نفسه على ألا يعود إلى تلك المعابث الصبائية البغيضة .

وما له يتعجَّلُ المتعة وزينة الحياة ، وإن قصور الأمانى لتتساقط

أمامه في أفق رحيب . فها هو ذا مُجِدِّ في مسلكه المدرسي ، مَوْقِّ دَائِمًا
في الانتقالِ من مرحلة إلى مرحلة ، وكلُّ شَيْءٍ يجرى في عِنايه ، باعثًا على
الطَّمَأْنينة ، داعيًا إلى الثقة بمستقبل زاهر باهر .

ظل الفتى ماضيًا في طريقه الوردى المهود ، حتى هذه الأُمُسيَّة التي
عَثَرَتْ فيها قَدَمُهُ بتلك « الحصاة » . . .

وأنت إن رفعتَ المنظارَ المكبَّرَ عن عينيك ، وتخطيت صفوف المسرح
لتدنو من الفتى في مجلسه ، وتسأله متلطفًا به :

ماذا أتى بك إلى هذه المثابة ؟

أجابك في غير تكلف :

هي مصادفة محضة ، لا يد لي فيها بتدبير !

وإن الفتى ليقصُّ عليك ، كيف انساقت به قدماءه ، إلى مكان

« الحصاة » . . .

بارح الفتى دارَ قرين له ، عشيةَ يوم ، حيث كان يستندُ كمر معه بعض
دروسه ، وذلك قُبَيْلَ الإمتحان . بارح الدارَ مُخْتَنِقًا يتلصص الهواء ، فقد
أضنَّته المكابدةُ والمجاهدةُ في المذاكرة والتدأُّرُ ، إذ احتوته هو وقرينه
حجرة متضايقة ، ضوءها شحيح . فما كاد يُدْبِرُ عن الباب حتى ألْفَى يده
تَعَجَّلُ إلى رباط رقبته فتحلُّ عُقْدَتُهُ ، وكان وهو يفعل ذلك يُخَيِّلُ إليه
أنه يستخلص رقبته من طَوْق حديدٍ يضغطها ومضى يتلفت حواليه منهوَمَ

الأنفاس والنظرات ، يَعْْبُ الهواء ، ويشْتَفُ الضياء !
 جَدَّ الفتى فى سيره ، يطلبُ منزله ، سالكاً ذلك الطريقَ الذى أَلِفَ
 سلوكه من قبل ، ومَرَّ فى خُطاه بأحدِ الشوارع التى كان يمرُّ بها ، دون
 أن يَأْبَهُ لها . إنه شارع كسائر ما يتفرع من الشوارع فى الطريق العام ،
 لا يمتاز بشئ إلا ما يسطع فيه على مَرَمَى النظر من أضواء أَلَاة
 تتلون ألواناً .

وألقى الفتى قدميه تمشيان وثيداً ، ونظراته تنساب نحو ذلك النور البهيج
 تَبَاعاً . . . وفى خطفة البرق عَنَّ لخاطره أن يَخْتَرِقَ هذا الشارع ، تَأَنُّساً
 بأضوائه ، وما عليه فى ذلك من بأس ، فإنه بالغ داره ، دون أن تبعد
 عليه الشُّقَّة ، ويطول السير .

وعَدَلَ إلى الشارع يَحْتَازُه ، وإذا هو بعد خطوات أمام تلك الأضواء
 المبرقشة التى بهَرَّتْ عينه . . . وإذا هى أضواء مسرح ، أو بالأحرى دار
 لم يدخلها ، ولن يُتَاحَ له دخولها . إنها أحد تلك المواطن التى يضعها أبوه
 فى « القائمة السوداء » ، ولا يذكرها إلا مقرونة بالتحقير والازدراء .

لما خَذَ عليه فى لحظة خاطفة يلقىها على هذه الدار ، ثم يَمْضى لِطِيبَتِهِ
 لم يَعلَقْ بأذياله ضَيْرٌ .

وسُرعاناً ما اشتبكت أنظاره بطائفة من الصور والرسوم تتناثر على
 الجُدران ، وأخذ العَجَب من تلك المناظر التى يبدو فيها صنف من الناس

غريبُ الأزياء والأوضاع ، فقام في ذهنه أولَ وهلة أنه يشهد صوراً لجمع
من المجانين !

واسترعى انتباهه صورة تتجلى في صدرِ المدخل ، صورة تُمثِّلُ الحجمَ
الطبيعيَّ لفتاة في لبّوسٍ يحاكي زِيَّ الملاحين رُؤَاد البحار ، فما إن رآها
الفتى حتى شعرَ بأن الدمَّ يَصْبِغُ وجهه بِصِبْغَةِ الخجل . إنها شبهُ عارية ،
لا يكسوها إلا شُفُوفُ تُوهِمُ الناظر أنها تُغَطِّي ما اصطَلَح الناس على تسميته
« مناطقَ الحياء » ... أما سائرُ أوصال الجسد فقد تُرِكَتْ نُهْبَةً للعيون !
واستحالت حمرة الخجل في وجه الفتى ، فصارت حمرة غُضْبَةٍ وَحَمِيَّة ،
أو قل إن ذلك ما سَرَى في وهمه . فردد في نفسه :

يا لَلسَّوْءِ ! ... يا لَصَيْعَةِ الأخلاق !

وهمَّ الفتى يجتذبُ أنظاره ليردّها عن هذه المَعَابِثِ الفاضحة ، فلم
يجد له عزماً ...

لقد تلاقت عيناه بعيني الفتاة ، فكان وإياها كالسمكة عُلِقَ بها
شِصٌّ عَتَى ، وإن لم يكن يدرى : أيهما الشِّصُّ الناشب ، وأيهما السمكة
المصيَّدة ؟ !

وفيما كان الفتى يُعاني مجاهدةَ النفس ، للتفريقِ بين السمكة والشِّصِّ ،
سمع صوتاً يقول له :

بخمسة قروش تستطيع أن تَرَى هذه الفتاة واقفة تغنى وترقص ...

بخمسة فقط ... هالك تَذْكِرَة ... مقعد حسن، منه ترى وتسمع بوضوح ...

لا تُضيع الفرصة ... الليلة ختامُ الموسم !

في هذه اللحظة شعر الفتى بأن وعيَه يتناقص ، وأن إدراكه يَغيب .
ما أشبهه بالمريض قد مُدّد على سرير الجراحات ، وقد بدأ يَنْشَقُّ المُخَدَّر ...
ليس في مقدور الفتى أن يتابع لك حديثه في تفصيل وتحديد ، فهو
الآن في غيبوبة شاملة ، وكأنه يَشْهَد أضغاث أحلام .

أنغام صاخبة ، أنوار كاشفة ، أصوات مُلتَجَّة ، خَلَقَ يتزاحم هنا وهناك ،
سحائب تتعقّد فوقه من دخان وأنفاس ... وفي وسط ذلك كله تتألق
تلك الاختلاجة البشرية الراحدة ، مثيرةً حولها رُوحاً من العردة والهوس .
ولما فرغت الفتاة مما سَمَّوه غناء ورقصا ، مدتْ يدها إلى سَلَّةٍ في جانب
من المسرح ، مُلِئَتْ بورد قانيء كأنه الجمر ، وَهَبَطَتْ بالسَّلَّةِ إلى قاعة النظارة ،
فجعلت تقذف بتلك الجمرات يَمْنَةً ويسرة ، والفتى إليها متطلع ، يغشاه صمت
وذهل ، على حين كانت الجموع متهافئة على هذه الجمرات ، تتلقفها لتضعها
على الصدور ، دانيةً من القلوب ، كي تزيدَها من ضرام !

واستَبَقَّت الحسنة في يدها وردةً واحدة ، جعلت تدور بها في بهرة
القاعة ، وكأنها منارة في بحرٍ مَوَّاج ، يغشاه ليلٌ عاصفُ الريح ...
في هذا البحر المتلاطم تراءى زورق ضئيل ، تكاد تلتقيهُ الأمواج .
وكان هذا الزورق يحاول أن يتماسك ، تقادياً من الغرق ، وطلباً لشاطئ

الأمان ، وإذا الثور يهبط نَسْجًا من الأشعة على الزورق ، فيجتذبه إلى قلب المنارة المتوقّد ، ولا يلبث أن يغيبه فيه .

تدانت الفتاة من ذلك الفتى ترشُّق على صدره وردتها الأخيرة ، وهي تحيطه بهالة من بسماتها اللطاف .

وأومات إليه أن ينهض ، فأطاع .

ثم أشارت إليه أن يتبعها ، فانقاد .

صعدت الفتاة بالفتى إلى منصّة المسرح ، تختتم رقصتها الشادية ، على مألوف عاداتها في كل ليلة ، إذ تعمد في نهاية ما تعرضه من فنّها الأنيس إلى أن تصطفى أحد النظّارة ، فتراقصه على إيقاع قوى من تهلل وتصيح

ومراح ...

وانسدل الستار ، لا كما ينسدل عادة في كل ليلة على هذه المشاهد من الرقص والغناء ، وإنما انسدل الليلة على عهد لهذا الفتى ، فقطع الصلة بينه وبين ماضيه ، وانحدر به إلى عهدٍ من الحياة جديد .

كان أول ما استقبل به الفتى حياته الجديدة أنه رأى الفتاة الحسناء تعاجله بقرصة في خده ، وعلى شفثها تصلصل الضحكات ، وميل عينيها لهب تطاير منه نظرات منهومة جيّاشة !

وتقدّمته ، وقد أرخت له يدها ، فتعلق بها ...

وإذا هي تمضي به تيّاهة تتخطر !

ولمس الفتى يمينه الوردة الحمراء على صدره ، فانتزعها ، وجعل يتوسمها ،
ولمعت في خاطره قصة « التفاحة الخالدة » التي التهمها « آدم » في جنة
الخلد . وتراءت له الوردة الحمراء ، وكأنها تلك التفاحة في شكلها وصبغتها
وما لها من أريج . . . فابتسم ، وقد عرته من النشوة هزة !

هذا أبوه الأول « آدم » لم يتمنع على التفاحة حين عرّضت له ،
فكيف للفتى أن يكون هو المتمنع الأبى ؟ أوليس هو بآدمي ؟ !
والنبي الفتى خطاه تجاه حجرة أنيقة . . .

وما هي إلا أن غيَّبه الباب فيها ، مع حوائيه الحسناء !
ماذا أنتَ طالبٌ إلى أن أقصّه عليك بعد الذي قصصتُ ؟
إن هي إلا فضالات وقشور . . .

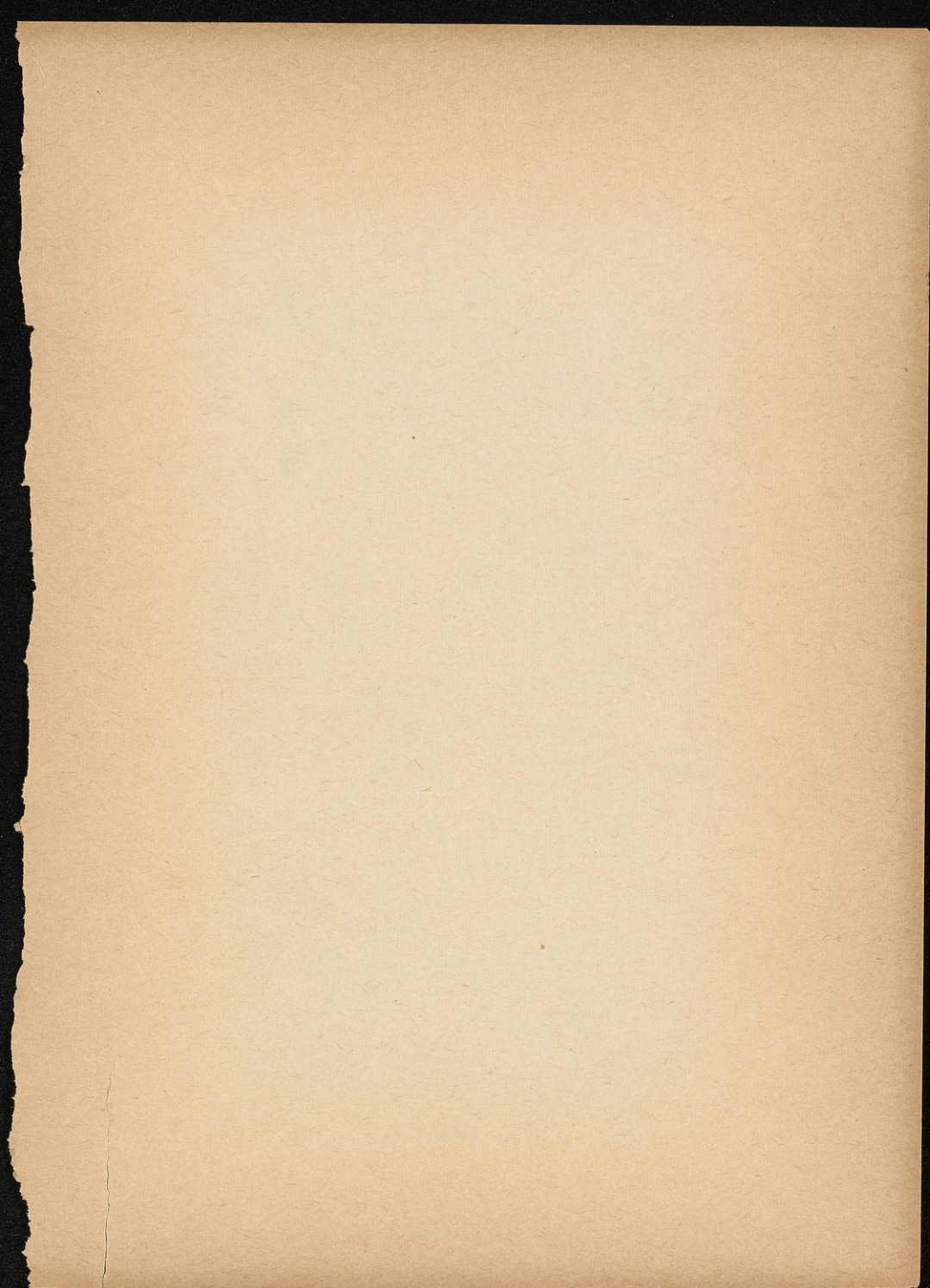
إن هو إلا حشو ليس له في مجرى حياة الفتى كبير شأن . . .
على أنى أوترأ ألا أترك فضولك على ظمأ ، فاعلم أن ما كان من أحداث
عمر الفتى يمكن إجمالها على هذا النحو :

أحسن الفتى بأنه كأنما أُلقي به في أتونٍ يتضرم ، وقودُه أصناف من
خلق الله يتفاوتون طبقات ودرجات ، كانوا جميعاً يضطربون حيناً في هذا
الأتون ، ثم تستحيل شخوصهم حَفَنَةً من رماد ، وإذا بجاروفٍ يفتح
في القينة بعد الفينة جَنَبَاتِ الأتون ، فيمتلئ بهذا الرماد الهامد ، ولا يلبث
أن يدفَع به في مَرَمَى القمامات ... في ذلك التلّ النبوذ !

وشعر القى يوما بأن الجاروفَ يحتويه . . . يحتويه قبضةً من رماد
ليُلقيَ بها في المرْمَى البعيد !

واستقرَّ بالقى مصيرُهُ ، يتقلب على سَفْحِ هذا التل المنبوذ ، مستكيناً
لذلك المصير .

ويتصفحُ القى ، في الحين بعد الحين ، سوافَ أحداثه ، ومواضى أيامه ،
منذ كان يُسمَّى إنساناً سَوِيّاً له عقل وروح ، إلى أن استحال حَفَنَةً
مهملة من الرماد الزَّرِّيِّ ، فتراءى له على الفور هذه « الحصاة » . . .
فَتَسَرَّى في حُطامه رِغْشَةٌ يتناثر بها رَمَادُهُ ، ثم إذا هو يتجمّعُ ويتكسّ
في مُسْتَقَرِّهِ الأخير !



ورقة النصيب

في « قهوة الأفندية » بِحَيِّ « الحُسَيْن » ركن اصطلاح عُمارُ القهوة على تسميته بركن « سيد أفندی » ... فقد كان وَقفاً عليه ، ظل يختلف إليه قرابةَ عَشْرِ سنين .

ولم يكن أحد تحدّثه نفسه بأن يزاحمَ « سيد أفندی » في ركنه ، فإن الرجل كان موضعَ احترام الناس ، لما تَمَيَّزَ به من شمائل رِقاق ، ولما عرفوه عنه من انتسابه إلى بيت كريم العنصر، وإن عُبِّثَ به تصاريفُ الزمن الغدور .

ينتسب « سيد أفندی » إلى أسرة لها في شئون التجارة قدم راسخة ، وقد كان لِمَتَجَرِّها في « الحمزاوى » صيت بعيد ... أيامَ كان « الحمزاوى » مِجْوَرَّ التجارة في العاصمة .

على أن المَتَجَرَّ جعل يتضاءل ويخبو على مرِّ الأيام ، حتى انتهَى إلى « سيد أفندی » وهو في درجة من الهزال تنذر بالزوال ، فلم يستطع « سيد أفندی » أن ينشلَه مما هو فيه ، ورأى خيراً

له أن يتخلص منه بالبيع، وأن يقنع بما بقي له من عقار يُدرُّ عليه ما يكفل له عيشة قانعة، ويسر عليه أن يحيا في هدوء وسكينة، ينعم بذلك الركن الطيب في «قهوة الأفندية».

كان «سيد أفندي» يوافي ركنه في الأصيل، فلا يريه إلا بعد أذان العشاء، يقضى وقته في ترانخٍ وتثاؤبٍ، حتى يهبط عليه بعض السَّمار، فيطارحهم لغو الحديث.

وفي أصيل يوم، قدّم «سيد أفندي» على القهوة، يحبُّ في جلبابه الصوفيّ البلى، متباطئاً رزمةً من صُحف اليوم، وهو يُميل طربوشه على قوذه... وسلك طريقه إلى ركنه، وهو يحيي من يراه من الأصحاب، تعلو فيه ابتسامته المألوفة، وإن كانت في هذه الساعة يمازجها لون من التكلف، ويغشاها ظل من الكآبة والاغتمام.

وما لبث «سيد أفندي» أن اتخذ مجلسه في ركنه المألوف، ثم نادى فأوصى بالشاي والنارجيلة، وبسط الصُحف يحاول أن يسرّي عن نفسه بقراءة الحوادث والأخبار.

وهكذا شرع يُمارس ما ألف من عمله، يقلّب صفحةً من أيامه المتكررة المتشابهة!

وبينما هو يرشّف من قدح الشاي إذ جاز به بائع أوراق النصيب،

ذلك الغلام المعهود في تلك البقعة ، فما إن اقترب منه يَعْرِضُ بين يديه أوراقه ، حتى زَجَرَهُ « سيد أفندي » مُحَنِّقَ النفس ، وهو يقول له :

هل عَهْدَتَنِي أَشْتَرِي هذا الورق ؟ لِمَ تصايقتني ؟
فقال له الغلام :

عندي أوراق « جمعية الرفق بالإنسان » ، وهي جديرة بالشراء ! ... الكَسْبُ أَلْفُ جُنْيِهِ ... أوراق مضمونة كالذهب ! فازوَرَّ عنه الرجل ، مُقَطَّبَ الجبين ، وهو يقول :
اخترْ غيري ، فألقِ على سمعه هذا الهراء ... أُغْرِبُ عن وجهي !

وأقبل على قدح الشاي يترشِّفه ، واثنيَ الغلام إلى رُقَّةٍ عن كَسْبٍ من ذلك الركن ، وجعل يغريهم بقوله :
الكَسْبُ أَلْفُ جْنِيهِ ... لم تبق إلا ورقات ثلاث .. السحب غداً ... الورقة ثمنها خمسة قروش فقط ... جرُّوا حظكم قبل أن تطير الفرصة !

وطَفِقَ الرفاق يحاورون الغلام ويفاكهونه ، وهم يتداولون ورق النصيب ، والغلام مسترسل في حديثه ، يلوک جملةَ الألف جنيه ويؤديها على أوضاع شتى .

وَهُمْ « سيد أفندى » بَأَن يَمْضَى فِي قِرَاءَةِ صَحِيفَةِ الْمَسَاءِ ،
ولكنه ما أسرع أن طواها .
إن مبلغ الألف جنيه الذى يَرِنُ به صوت الغلام قد غزا مناطق
تفكيره .

وضاق « سيد أفندى » ذَرْعاً بما يدور فى مجلس الرفاق من
محاورات فى شأن ورق النصيب ، فرماهم بنظرة تَجَلَّى فيها الإستخفاف
والإصغار .

بَيَدَ أَنَّهُ عَلَى الرِّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ تَرَاءَتْ لَهُ فِي أَفْقِ خِيَالِهِ
عَشْرَ وَرَقَاتٍ مَالِيَةٍ تَزْهَوُ بِلَوْنِهَا الْعُنَابِيَّ ، وَقَدْ بَرَزَ فِي كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْهَا
رَقْمٌ مِائَةٌ جِنِيهِ !

لَا أَحَدَ يَنْكُرُ أَنَّ مَبْلَغَ الْأَلْفِ جِنِيهِ مَبْلَغٌ جَدِيرٌ بِالاعتِبَارِ ...
بِهِ يَسْتَطِيعُ مَأْزُومٌ أَنْ يَخْلُصَ مِنْ ضَائِقَتِهِ ... مَأْزُومٌ مِثْلُ « سيد
أفندى » الذى تَحَاصَرَهُ أَقْسَاطُ جَاءَ أَجْلُهَا ، وَهُوَ الْيَوْمَ يَحْمِلُهَا
هُومًا ثِقَالًا .

وعادت يده تنساب إلى الصحيفة ، يحاول أن يَتَعَلَّلَ بِمُطَالَعَةِ
مَا فِيهَا مِنْ أَخْبَارٍ .

وَأَحْسَنَ بَأَن جِيرَانَهُ قَدْ اشْتَرَوْا مِنْ وَرَقِ النَصِيبِ ، فَمَدَّ إِلَيْهِمْ بَصَرَهُ
يَتَثَبَّتْ ، وَهُوَ مُخَنِّقٌ يَهْمُهُمُ بِالْإِزْرَاءِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ

« متولى أفندى » وهو شابٌّ موظَّفٌ لامع الفِطنة ، ذَلِيقُ اللسان ، يُحَسِّنُ التحدُّثَ فى شئون المجتمع المصرى .

وكان « سيد أفندى » يأنس به على ما بينهما من اختلاف فى المشارب والأذواق ، فما إن استقر به المقام حتى هتف « سيد أفندى » بأحدِ النَّدُلِ يطلب لجليسه الشاى .

ثم مال على « متولى أفندى » يقول له ، وهو يشير إلى جيرانه :
عجباً لأولئك الذين ينفقون أموالهم فى هذه السخائف !
فالتفت « متولى أفندى » حيث أشار رفيقه ، وما عَتمَ أن أوماً إلى الغلام الذى يبيع أوراق النسيب ، فدعاه إليه .

وزَوَى « سيد أفندى » ما بين عينيه ، وهو يقول :
ماذا أنت فاعل ؟

فابتسم « متولى أفندى » مُجِيباً بقوله :
أجرَّبَ حظى .

— لم أعهدك من أولئك النفر الذين ينصاعون لتلك الأضاليل .
— حقاً لستُ من مدمنى شراء أوراق النسيب ، ولكنى
أمتحن حظى بين حين وحين .

— وهل ظفرت بكسب ؟

— كسب غير قليل ...

وجاء الغلام طَلَقَ الأسارير ، متحمساً في الإغراء بالشراء ،
فاشترى « متولى أفندى » ورقة ، وما لبث أن أودعها جيبه .
فقال له « سيد أفندى » :

لقد أضعتَ نقودك ...

— كلا ، لم أضِعهَا ... إذا لم أ كَسِبْ فإني أعدُّ تلك النقود
تبرعاً منى لتلك الجمعية التي تعمل الخير .

— كان أجهلَ أن تتبرع بما تريد التبرعَ به للجمعية ، دون
أن تشتري ورقاً .

— ولكنى إذْ اشتري الورق ، أداعب حظى ، لعله يستجيب .

— إنها مقامرة ... ولا تنسَ أن المقامرة حرام !
وكان الساقى قد أقبل بصينية الشاي ، متبرجة بأكوابها الملوّنة ،
يتضوَّعُ منها العِطر .

فَطَفِقَ « متولى أفندى » يملأُ قَدَحَه ، وهو يقول مبتسماً :
أنتَ تُلقَى القول على عواهنه ، وما يجوز لك أن تُقَحِّمَ التحريم
والتحليل في مثل هذه الشؤون ، فالمعوّل على النيات . وما دامت
نياتنا صافية ، وأغراضنا شريفة ، فلا داعى إلى التعسير ، والدين
يُسَرُّ .

وانثنى إلى قَدَحِه يَرشُفُ منه ، ثم استأنف يقول :

إني أؤمن بهذه المؤسسات الخيرية التي تُصدِر أوراق النصيب ،
 فهي قائمة على فكرة اجتماعية طريفة ، فكرة التعاون .
 فأرسل « سيد أفندي » قهقهة ساخرة ، وهو يقول :
 أيُّ تعاون هذا ؟

— إنه تعاون لا رَيْبَ فيه ، فهذه الجمعيات الخيرية التي تُصدر
 ورق النصيب وتعرضه للبيع ، والجمهور الذي يشتري هذا الورق ، إنما
 يشتركان في إسعاد بعضهم بعضاً ، ويتعاونان على أن يتبادلا
 نفعاً وجدوى ... أنا إن ربحْتُ مبلغَ الألف جنيه الذي أنا
 أحوج ما أكون إليه لتحسين حالي ، فكأن هذا المبلغ اكتسبَ
 به لي أولئك الذين اشتروا الأوراق ، دون أن يلحقهم في ذلك
 رهق ولا إعنات .

— هيات لك يا « متولى أفندي » أن تُقنعني بهذه الفلسفة العرْجاء !
 إني مقتنع بأن فكرة ورق النصيب لا تعدو أن تكون احتيالاً .
 — سمَّها ما شئت ... قل إنها احتيال ... ولكنه احتيال شريف ...
 احتيال مفيد !

فصاح « سيد أفندي » :
 أئمة نوعان من الاحتيال ؟ الاحتيال هو الاحتيال ... شرُّ كلِّه !
 فابتسم « متولى أفندي » ونظر إلى صديقه نظرة إشفاق ، ثم قال :

ألم يَسْبِقْ لك أن اشتريت يوماً ورقة نصيب ؟
 — كلا . . . وهل أنا مخبول حتى أجازفَ بمالى فيما لا ينفع ؟
 فَرَبَّتْ « متولى أفندى » كتفه قائلاً :

هذا عيبك !

— أَسْمَى هذا عيباً ؟

— أنتَ رجل هَيَّاب . عيبك الكبير هو أنك تُجْفِلُ من المغامرة .

— إني بحالى هذا لَجِدُّ سعيد .

— أنت تغالط نفسك . . . لستَ بحالك سعيداً . . . لو كنتَ

غامرتَ فى حياتك شيئاً لكنتَ اليوم أسعدَ حالاً .

— المغامرة نَذِيرُ الخراب !

— من لا يغامر فى الحياة يا صديق لا يشقُّ ألقاً . . . اعترف لى :

أزاد دَخْلُكَ منذ قتَ على مالك ؟

فَأَرْتَجَ على « سيد أفندى » وزاغ بصره ، وراح يهيمهم فى اختلاط .

وواصل « متولى أفندى » قوله :

سَأَجِيبُ بلسانك . . . النفقات تزداد ، ورأس المال يتناقص . . .

لو كنتَ على نقيض ما أنتَ عليه لجعلتَ من مَتَجَرِّك القديم مَتَجَرّاً يستردُّ

مكانته ويزهو فى عهد جديد .

فشمل « سيد أفندى » صمت وسهوم ، وحاصره انقباض ، وغغم :

الحمد لله على كل شيء... أنا راض بحالى !

— القناعة... تقصيد القناعة... ما أقساها من فضيلة !

فخلق « سيد أفندى » فى وجه جليسه ، وهو لا يدري : أَمُعْجَبٌ
هو بقوله ، أم ناظم عليه ؟

ولم يلبث أن همهم :

دَعْنَا من هذا الحديث !

وأقبل على المجلس بعضُ الخلَّان ، فحاض الرفاق فى أحاديث شتى
لم يشترك فيها « سيد أفندى » إلا بِقَدَرٍ ، وكان يبدو كأنه شارد الخاطر ،
مشغول الفكر بطارئٍ من الأمر .

ولما انقضت جلسة العشيّة نهض الرجل مثاقيل الخطا ، يؤمُّ داره
واستقبلته ساحة « الحسين » يسير الهوينى ، وقد ذهب به التفكير
كل مذهب .

أتراه حقاً قد أضاع فرصاً ما كانت لتضيع لو غامر وخاطر ؟

إنه ليتمثل حانوته الصغير ذلك الذى جرَّ عليه الزمن ذيلَ العفاء ، وقد
غدا متجراً كبيراً تسطَّع على جبينه الأنوار الكهربية السيَّالة ، وبين قاعاته
يموج الناس موجاً ، وأمام الخزانة تتدفَّق الأموال ، لا ينضب لها معين...
فأما هو فإنه يحيا فى رخاء وترف ، لا تقتير ولا حساب ، ولا مأزقَ
كالذى يعاينه اليوم : ينغص عليه عيشه ، ويسلمه إلى غمٍّ وقنوط !

وتابع السير، وإذا بعينه تنصيدان كومةً على الطَّوَّار، وإذا هي غلام
أوراق النصيب، يَهُوِّمُ برأسه. فألقى «سيد أفندي» قدميه تنمَّهْلان،
ونظره لا يبرح الطَّوَّار.

وشعر الغلام بأن شخصاً عن كَثَب منه، فانفتل قائماً، ينفُضُ عنه
فُتُورَ المنام، وأقبل على «سيد أفندي» يعالج القول في حَذَر، ويُدْنِي
منه ورقة في يده:

إنها آخر ورقة... ليس معي سواها... الحظ من نصيبك حتما...
خمس قروش تعطيك ألف جنيه!

وَتَرَيَتْ «سيد أفندي» يتأمل الورقة في يد الغلام، فرأى الغلام في
ذلك ما يُشجِّعُه على التقدم والمزِيد من القول والإغراء.

وألقى «سيد أفندي» يده تَدَلِّف إلى جيبه، وتَخْرُجُ بخمسة قروش،
وسُرَّعان ما دَسَّها في يد الغلام، واجتذب منه الورقة، وهو يجمجم:
لولا ما أنت فيه من فقر ومُسْكَنَةٍ لما اشتريتُ الورقة منك...
فليكن هذا المبلغ مَنَحَةً لوجه الله!

وطوى الورقة، ثم غَيَّبَهَا في جيبه، واستأنف سيره، حثيثةً خُطاه.
وما إن أُحْتَلَّتْ هذه الورقة السحرية جيبَ «سيد أفندي» حتى
تبدلت حاله.

قلق طارئ.

ذهن شَرُود .

الأوراق العُنَّائِيَّة تتراقص أخيلتها قُبَالَةَ عينيه .

نوبات تتوارد عليه من تبكيت الضمير .

كيف سَوَّغَتْ له نفسه أن يمدَّ يده إلى هذه المقامرة النكراء ؟

وَأَلَى على نفسه لِيَمَزَقَنَّ الورقةَ شَرَّ مَزَقٍ . ولكنه لم يملك أن يفعل .

وما إن بلغ داره واستقرَّ به المقام ، حتى قُرَّب إليه الطعام ، ولكنه لم

يجد من شَهِيمَتِهِ إقبالا ، فلم يُصِبْ منه إلا قليلا .

وأَوَى إلى فراشه ، يطلب النوم ، فكأنما كانت في انتظاره عجائبُ

أطياف ، وأضغاثُ أحلام .

كُومَات من الأوراق المالية مكدَّسٌ بعضها فوق بعض ، تُحْدَقُ بها

ألسنة من لَهَبٍ ... وهو يحاول أن يفتح سِيَّاحَ النار ، لِيُنْجِيَ الأوراق

من الحريق المحتوم ، فلا يستطيع !

وقضى الرجل ليلةً ليلاً ، جَثَمَتْ فيها على صدره هموم ثقالة .

وانتبه من نومه صُبْحاً ، فأسرع إلى الطريق .

وأَمْضَى سَوَاعِدَ الصُّحَا يَتَنَقَّلُ بين المتاجر ، يزور عارفه ، كأنما يَهْرُبُ

من يومه ، ويتعجلُ غده ، فهو يلتبسُ إزجاء الوقتِ بكل سنيل .

وكان لا يفتأ يسأل في مُسَاوَرَةٍ ولباقة عن موعد إعلان النتيجة في شأن

أوراق النصيب ، وَيَتَعَرَّفُ المكان الذي يُسْتَقَى منه الخبر اليقين ... وقد

أَلْفَى خطاه تنفرط إلى هذا المكان ، فوقف يرقبه عن كُتُب منه ، فإذا به
 أمام ظُلةٍ وضِعة فيها مِنْصَدَةٌ مُلِئَتْ أوراقاً ، وقد انكبَّ عليها رجل
 هزيل نحيل ، أكبر ما فيه أنف يتدلى عابثاً بهذه الأوراق .
 وفي ضَحْوَةٍ غده قَدِمَ على تلك الظُّلَّة ، ومَثَلَ أمام الأنف المتدلى ،
 وهو محتاج النفس ، لا يَمْلِك لأوصاله من قرار .

وتثاقلت الدقائقُ في سيرها ، و « سيد أفندي » مائل ينتظر .
 وأخيراً تَسَلَّمَ كشف الأرقام ، راجف الأصابع ، زائغ النظرات .
 وبعد مراجعة وتحقيق ، أيقن « سيد أفندي » أنه قد خَسِرَ قروشَه
 الخمسة .

فترك الظُّلَّةَ ساهماً يجفف عرقه ، ولكنه أحسَّ طارئاً من الراحة يسرى
 بين جوانحه : راحة الخلاص من تلك الحيرة وذلك القلق ، راحة الوصول
 إلى رأى حاسم بين مختلف الظنون والأوهام .
 وتراءت على مُخَيَّأٍ ابتسامة . . .

ما كان أعجبها مغامرةً سخيفة ، نقلته يوماً وبعضَ يوم من هدوء
 وطمأنينة إلى جحيم من القلق والاضطراب !
 إنها جحيم حقاً ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر ما لهذه الجحيم من طرافة ،
 وما فيها من خروج على الراتب المألوف الذى يَتَمَثَلُ فيه الجود والحمول .
 وأَلْفَى نفسه يُطَلِّقُ ضِحْكَةً عالية ، وهو يدفع بقدميه فى الطريق .

وفيا هو يسير ، لمحت عيناه بعض من يطالبونه بالديون ، فتنكّب عن طريقهم ، وتجنب لقاءهم ، وظفر بالفرار .

لو كان الحظ قد واثاه لأخرس هؤلاء المتبجّحين ، ولرفع رأسه أمامهم عالياً غير صاغر ولا هيّوب .

ولكن هذه الأوراق العنّابية المنشودة طارت من أفق خياله ، وخلفتها رهين ضائقته ، لا يجد منها براحاً .

مهما يكن من أمر ، فقد أبى الله له أن يكون تقريج ضائقته بوسيلة بغیضة ليست إلا ضرباً من احتيال مشروع !

وجاء الأصيل ، فعجل « سيد أفندى » إلى ركنه في « قهوة الأفندية » على مألوف عادته ، وفجأة علت ضجة من حوله ، وما أسرع أن استبان له أن أحد رواد القهوة هو الذي ظهر بالغنيمة من ورق النصيب !

وشعر « سيد أفندى » بضيق ، وألقى نفسه يهيمهم :

هذا كسب حرام ... لا يبارك الله فيه ... لقد حمانى الله منه !

وما هي إلا أن وافى القهوة « متولى أفندى » فأقبل على جليسه جياش

الخاطر ، قائلاً :

هأنت ذا ترى كيف ربح جارنا ورقة النصيب ، وظفر بالغنم العظيم ! ..

لو كنت لنصحى سمياً لكان الربح منك داني المئال !

فبادره « سيد أفندى » بقوله :

هل لك في أن نلعب بالنرد؟ ... هذا خير لنا من لغو القول !
 وشرا يلعبان ... ولم يغب عن فطنة «متولى أفندى» أن جلسه يتابع
 اللعب على مضض وتكلف ، فصاح به :

أقترح أن نلعب على رهان ... ولتكن الرهان قليلا من النقود ...
 حتى لا يكون اللعب فاترا كسولا ... نحن نلعب إيقاظا للمشاعر ، وإثارة
 للنفس ، ولا يتم ذلك إلا حين يكون للعب غرض ، وللغلبة غم .
 فرفع «سيد أفندى» يده ، قائلا :

هيات لي أن ألعبك على نقود ، مهما تكن قلائل .
 قال الرجل ذلك ، وقد طاف بمحيطته ذلك الإحساس الذي استبد به
 وقتا عصيبا منذ الساعة التي اشترى فيها ورقة النصيب ، إلى اللحظة التي
 عرف فيها أنه لم يظفر بشيء !

لقد قضى هذا الوقت في ثورة نفسية عارمة ، شدة ما أتعبت به ، ولكنه على
 الرغم من ذلك يعترف بأنها أهدت إليه نشوة ليس له بها عهد ... نشوة
 اليقظة والاهتياج !

وانفض مجلس العشيّة، فترك «سيد أفندى» القهوة ، ولما جاز بذلك
 الجار المحظوظ الذي كان له الظفر بالورقة الراجعة ، رمقه بنظرة شذراء !
 وترادفت الأيام على «سيد أفندى» أشبه ما تكون بكتاب يقلب من
 صفحاته المكررة المعادة ، لا جديد فيها إلا اشتداد الضائقة المالية به ،

واجتماع الدائنين عليه ، وتهديدهم إياه باتخاذ إجراءات الحجز والتنفيذ .
ويومًا لاح في القهوة غلام النصيب ، يحمل رِزْمَةً جديدة من الورق
لموعد جديد ، وهو يتغنى بالأرباح والغنائم ، إغراء للرؤّاد بالشراء ...
وجاز الغلام بـ « سيد أفندى » في ركنه المعهود ، فما كاد يدانيه ويبسط
أمامه الأوراق ، حتى وجد « سيد أفندى » نفسه يمدُّ يده إلى العصا متوعداً
بها ذلك الغلامَ الجريء المُلحاح ! ... فقفز الغلام لائتدأً بالهَرَب ، ولكن
« سيد أفندى » جعل يتابعه بنظره ، وهو يتنقل في أرجاء القهوة يوزع الورق
ويقبض النقود ... وكان « سيد أفندى » في أثناء ذلك مكتئب النفس ،
عَبُوسَ الأسارى !

وانقضت السهرة ، وابتغى « سيد أفندى » داره ، وهو يجرجر قدميه ،
ويغالب في نفسه طارئاً من المشاعر ...

وما إن شارَف الدارَ ، حتى ألْفَى نفسه يعود أدراجَه ، وهو يحدث
نفسه بأن يقصِدَ مسجدَ « الحسين » يؤدي صلاةَ العِشاء !
ولبت يجتاز منطقةَ المسجد ، كأنه يبحث عن شيء ... وأخيراً وقع
بصره على الكُومَةِ بجوار حائط ، فتلكأ في سيره ، وجعل يتنحرج .
وتمخضت الكُومَةُ عن الغلام ناهضاً يداعبه الأمل في بيع ورقة مما
يحمل ... وتقدم حَذِرَ الخطوات ، وقد بسط الأوراق أمام « سيد أفندى »

فاجتذب الرجل منها ورقة ، وقذف بالنقود في وجه الغلام ، ثم حث خطاه
إلى البيت لا يُلَوِّى على شيء ! ...

إنه ليعجَّب لذلك الباعث الجديد الذى ملك عليه أقطار نفسه .

إنه ليحس هَيْجَةً من الطرب تملأ ما بين جوانحه .

إنه لَيُقْبِلُ على الطعام فى شَهِيَّةٍ ، ويلعب أطفاله على المائدة فى
رحابة صدر .

وانقضت ليلته ، والأوراق العُنَّائِيَّة العشر تتراقص فى خاطره ، مختلفة
الأشكال والأوضاع .

وتواردت أيام على الرجل ، وهو يتربص اليوم الموعود ، يوم إعلان
الأرقام الراجعة من أوراق النصيب .

وضُحُوَّةُ النَّيِّ نفسه عند الظُّلَّة الممهودة . ماثلاً تُجَاه الأنف المتدلى ،
وتناول كشف الأرقام ، وأقبل يستجلي حَظَّهُ المَطْوَى ! ...

وواجهه ، أولَ ما واجهه ، رَقْمُ الورقة التى يملكها !

إنه فى رأس القائمة !

لا يكاد يصدق ...

ونظر إلى الورقة فى إحدى يديه بِجُمُعِ عَيْنِيهِ ، والتفت إلى الكشف
يقابل الرِّقْم ، وهو يحس بأن قلبه مُوشِكُ أَنْ يَطْفِرَ من بين الضلوع .

وَنَدَّتْ مِنْهُ صَرْخَةً ، وَكَادَ يَتَهَاوَى ، لَوْلَا أَنَّهُ تَمَالَكَ وَتَمَاسَكَ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى إِحْدَى قَوَائِمِ الظِّلَّةِ .

وَصَاحَ بِالْأَنْفِ الْمَتَدَلَّى ، وَبَيْنَ اجْتِمَاعِ حَوْلِ الظِّلَّةِ مِنَ النَّاسِ ، قَائِلًا :
أَنَا صَاحِبُ الرَّقْمِ الرَّابِعِ ... أَنَا رَابِعُ الْوَرَقَةِ الْأُولَى !

وَنَهَضَ ذُو الْأَنْفِ الْمَتَدَلَّى مِنْ فُورِهِ يَرْحُبُ بِالْمَحْظُوظِ السَّعِيدِ ، وَسَرَّعَانَ مَا قَدَّمَ لَهُ مَقْعَدًا ، وَهُوَ يُمِيطُ عَنْهُ الْغُبَارَ .

وَتَحَرَّكَ يَدَاهُ يَصْفَقُ ... وَجَارَ مَنَادِيَا غَلَامِ الْقَهْوَةِ الْمَجَاوِرَةِ لِیُخْضِرَ لِلضَّيْفِ الْكَرِيمِ مَا يَرُوقُهُ .

وَهَدَّاتِ الثُّورَةَ فِي نَفْسِ « سَيِّدِ أَفْنَدَى » وَمَلَكَ زِمَامَ أَمْرِهِ ، فَانْكَشَفَ لَهُ أَنَّهُ فَرَطْتُ مِنْهُ هَنَاتٌ لَا تَلِيقُ بِهِ أَمَامَ ذَلِكَ الْجَمْعِ الَّذِي تَكَاثَرَ عَلَيْهِ حِينَ انْطَلَقَ صَوْتُهُ !

وَأَخَذَ صَاحِبُ الْأَنْفِ الْمَتَدَلَّى يَشْرَحُ لَضَيْفِهِ : كَيْفَ السَّبِيلَ إِلَى تَسْلِيمِ الْوَرَقَةِ الرَّابِحَةِ ؟ وَكَيْفَ الْحَصُولَ عَلَى مَا غَنِمْتُ مِنْ مَالٍ ؟

وَمَا لَبَثَ أَنْ اتَّفَقَ مَعَ ضَيْفِهِ عَلَى أَنْ يَرِاقِقَهُ ، لِيَنْفَعَهُ بِخَبْرَتِهِ وَتَجَرُّبَتِهِ فِي تَيْسِيرِ الْإِجْرَاءَاتِ .. وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَذْكُرَ صَاحِبَهُ فِي مَلَاظِفَةٍ وَمَلَايِنَةٍ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ مَنَحَةٍ طَيِّبَةٍ سَخِيَّةٍ !

وَانْصَرَفَ « سَيِّدُ أَفْنَدَى » فِي مَعِيَةِ الرَّجُلِ ، وَرَأْسُهُ كَأَنَّهُ أَثُونٌ يَتَأَجَّجُ ...
انْقَطَعَ « سَيِّدُ أَفْنَدَى » عَنِ الْقَهْوَةِ أَيَّامًا ، فَعَكَفَ عَلَى اتِّخَاذِ الْخَطِّطِ

ورسم البرامج ، وهو لا يفتأ يَعدُّ الأوراق المالية في صباحٍ ومساء ...
وتسامع الناسُ بنيا هذا الكسب الذي أصابه الرجل ، فزاره صديقه
الحميم «متولى أفندى» وهنأه على جُرأته ، وجعل يُدِلُّ عليه بأنه هو الذي
شجَّعه على المغامرة والاقتحام ... فأكد له «سيد أفندى» أن الأمر لا يعدو
أن يكون تدييراً من الأقدار ليس لأحد فيه إصْبَع ، وأنه سوف ينفق هذا
المال الجديد في وجوه البر والخير .

وكان «سيد أفندى» بعد ذلك لا يكاد يجلس في ركنه من القهوة ،
حتى يتهاوت عليه غلمان أوراق النصيب ، يعرضون ما عندهم من مختلف
الأصناف ، فلا يرُدُّهم الرجل ، بل يأنسُ بهم ، ويكبشُ في وجوههم ،
ويجاذبهم أشتات الأحاديث ، ثم يشتري مما يعرضونه مثنى وثلاث ورباع !
وطال ترَّدَاد «سيد أفندى» إلى الظلَّة المهددة العامرة بالأنف المتدلِّ
يتعرَّفُ الأرقام الراجعة ، ويتفهم دخائل الجهات التي تُصدر أوراق النصيب ،
حتى أصبح بصيراً بهذه الشؤون ، وصارت الظلَّة مَثَابَةً حبيبة إليه ،
يستجيب لها ما وسَّعه أن يستجيب !

وعاش «سيد أفندى» هذه الحقبة من حياته تسرى فيه نشوة
الترقب ، وتعتلج بين جوانحه حمية الانتظار ، فلم يعد النهار يمرُّ به طويلاً
الذيول ، ضافى الساعات ، يقضيه في تناوب وتراخ .

وكان من تديير القدر الخفي أن يستلين الحظ لـ «سيد أفندى» وأن

يألفه ، فواتاه في الفينة بعد الفينة بكسب تفاوت قلة وكثرة ، ثم سخا له يوماً بغنم ليس باليسير ... فأمن الرجل بحظه ، وتوضح له بذلك منهاج في الحياة جديد .

ما أعجب أسرار القدر !

أترأه قد رتب لـ « سيد أفندي » تلك المصادفات ، لينهج به مسلكاً معيناً ينتهي به إلى غاية مرسومة ؟ !

وشوهد الرجل بعد ذلك لا يلعب الترد مع صديقه « متولى أفندي » إلا على رهان موفورة ...

يا لها من جلسات صاحبة حامية !

إن « سيد أفندي » في تلك الجلسات غيره بالأمس .

لقد ودّع السكينة والهدوء ، وأصبح الآن يرقب اللعب بعين متممة ، ووجه متقلص ، وأوصال مستوفزة .

ولم تلبث تلك الجلسات أن اجتذبت إليها أنظار رؤاد القهوة ، وأصبحت ذائعة الصيت ، مشهوداً لها بعلو الشأن .

ولم يكن بُدّ من أن تزداد الحدة بين الصديقين فرسى الرهان ، حول منضدة اللعب ، وأن تنقلب إلى ضراوة وشراسة ، أعقبها عداوة وشحناء ، فإذا الصديقان يفترقان إلى غير ملتقى !

وتضرمت مشاعر « سيد أفندي » ، فطلبت المزيد من الوقود .

إن تلك المشاعر التي لبثت دهرًا طويلًا تحت أثقال الشبكات والحمول ،
تعانى الكبت والضغط ، لم تكد تحسُّ القرُجَةَ من هذا الضيق ، حتى
انطلقت وقد استبدَّ بها الشُّعار .

لا غرَوْ إذن أن يأخذَ « سيد أفندى » طريقه إلى ساحات السِّباق ،
يصول فيها ويجول .

وتفتقت فطنته ، وتوهجت بصيرته ، فما أسرع أن أصبحت له خبرة
لا تعدُّ لها خبرة في شؤون السباق ، وبرزت شخصيته بين قُصَّادِ هذه
الجامع ، فصار فيها علمًا من الأعلام . . . !

ولم يكثرث « سيد أفندى » بما يظفر به من كسب ، وما يُمنَى به من
خَسار . . . كانت النقود في حركة دائبة من يده إلى جيبه ، ومن جيبه
إلى يده ، لا يقرُّ لها قرار !

وعلى الرغم من أن الأوراق المالية كانت كثيرة الانسياب بين يديه ،
فإنه كان يحسُّ أثقال الديون تتعاقبُ على كاهله ، بيد أنه لم يكن يجدُ
لذلك في نفسه كبيرَ اهتمام .

إنه في شُغلٍ شاغل بهذه الحياة الصاخبة الزاخرة بألوان المضاربات
التي تثير المشاعر ، فهو يمارس أنواعها وضروبها ما وجدَّ إلى ذلك السبيل .
وَمِنْ ثَمَّ لم يكن بدًّا من أن تتقاذفه أندية القمار ، وأن يقضى حول

مناضدها لياليه ، ولا يتركها إلا وقد أحسَّ وطأة التعب تنهك أعصابه ،
وتفتت أوصاله .

شدَّ ما دفعت الأقدار به « سيد أفندى » في ذلك التيار الجارف .
إنها لتقذف به في تلك الموجة الدَّوَّامة ، فهو يدور فيها ولا يفتأ يدور ،
ولا يعرف لدورانه مُنتَهَى ، ولا يرى أمام عينيه شاطئ خلاص !
أكان في مستطاع « سيد أفندى » — وهو رهين ذلك التيار العارم
الفوار — أن يستنقذ لنفسه أنثارةً من شمائله الغابرة ، شمائل الدَّعة
ودماتة الطبع ؟

لقد أصبح الرجل اليوم شديد المراس ، حديد المزاج ، سريع
الغضب ، غليظ القول ، حتى في معارِض الدُّعابة والمزاح ! ..
وليلةً وهو يقظانٌ يلعب في ناد من أندية القمار ، شرب حتى أثقل ،
وملكته نوبةُ اللعب ، فهاج وماج ، وجعل يشغب على الرفاق . وكان
من جرَّاء ذلك أن قامت معركة بينه وبين غريم له ، وإذا به « سيد
أفندى » يقذفه بزجاجة شجَّت رأسه .

وبات « سيد أفندى » في المَحْبِيس بقية ليلته ، وأتاه النبا صبحاً بأن
غريمه قد أودت به جراحه .

وبدأ الرجل طوراً جديداً من أطوار حياته .

عشرة أعوام قضاها حليف السجون ، عشير الجُناة الآثمين .

وَصَدَرَ عَنِ السَّجْنِ ، بَعْدَ أَنْ عَلِقَتْ بِنَفْسِهِ أَدْرَانُ الْإِجْرَامِ .
 وَلَعَلَّكَ أَنْ تَزُورَ يَوْمًا مَنَظِقَةَ « الْحُسَيْنِ » وَتَنْتَهِيَ بِكَ الْمَطَافُ إِلَى
 « قَهْوَةِ الْأَفْنَدِيَّةِ » ... وَلَوْ فَعَلْتَ لَمَّا أَخْطَأَ بَصْرُكَ رَجُلًا بَادِيَ الزَّرَايَةِ ،
 وَضِيعَ الْمَلْبَسِ ، يُقَلِّبُ فِي النَّاسِ نَظْرَاتٍ كَأَيَّةِ شَعْنَاءَ . وَلَكِنْ
 لَا يُعْيِيكَ أَنْ تَسْتَجْلِيَ تَحْتَ سِمَاتِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْقَاضَ نِعْمَةٍ غَابِرَةٍ ،
 وَبَصِيصَ كَرَامَةِ غَارِبَةٍ !

إِنَّهُ لَيْسَ يَسُوقُ رَجُلِيهِ سَوْقًا ، يَمْسَحُ أَنْفَهُ بِظَهْرِ يَدِهِ ، وَهُوَ يَجُوسُ خِلَالَ
 الْمَنَاضِدِ ، يَبْسُطُ رِزْمَةً مِنْ أَوْرَاقِ النَّصِيبِ ، مُشِيدًا بِمَا تُفِيئُهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ
 فَضْلِ عَظِيمٍ ، وَخَيْرِ عَمِيمٍ !

فَإِذَا مَا كَلَّتْ قَدَمَاهُ عَنِ السَّعْيِ ، وَجَفَّ حَلْقُهُ مِنَ الْمَنَادَةِ ، انْتَحَى عَلَى
 الطَّوَارِ نَاحِيَةً عَنْ كَتَبِ مِنَ الْقَهْوَةِ ، وَتَجَمَّعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَاعْتَمَدَ
 بِظَهْرِهِ عَلَى الْحَائِطِ ، وَأَلْفَى نَظْرَاتِهِ تَسْرُبُ إِلَى ذَلِكَ الرُّكْنِ الْعَتِيدِ الَّذِي
 كَانَ مَثَابَتَهُ الْمُخْتَارَةَ بِالْأَمْسِ ...

وَلَا يَلْبَثُ فَنَّهُ أَنْ يَنْفَرَجَ عَنِ ابْتِسَامَةِ شَاحِبَةٍ تَنْقُلُهُ إِلَى عَالَمِ الذِّكْرِيَّاتِ .
 ثُمَّ إِذَا بِرَأْسِهِ يُهَوِّمُ ، وَبِجَفْنَيْهِ يَتَرَاخِيَانِ !

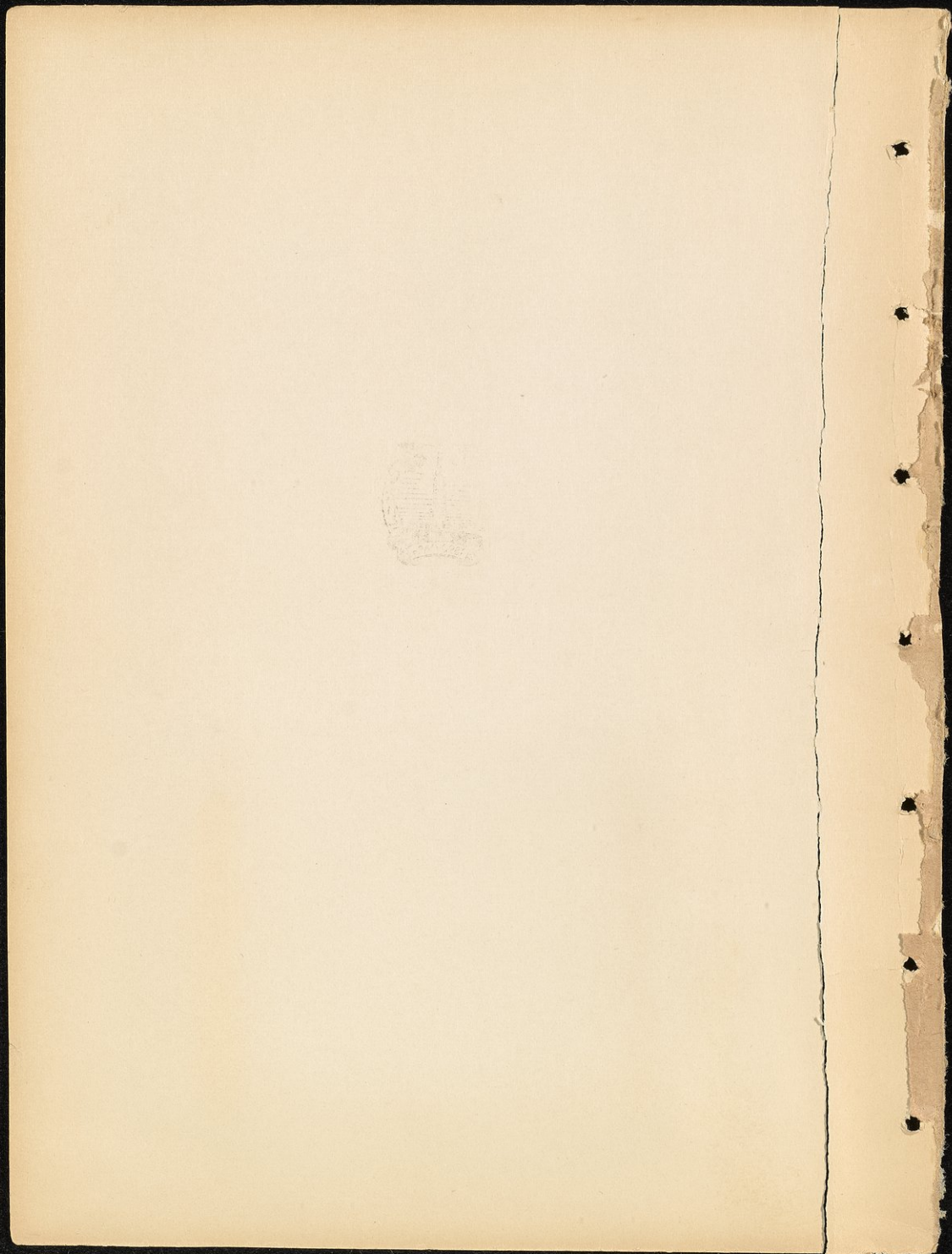
فهرس

٥	...	...	...	...	...	كل عام وأتم بخير
٢٩	...	...	...	...	...	صراع في الظلام
٥٥	...	...	...	...	...	مجنون
١٠٣	...	...	...	...	...	الحكم لله
١١٩	...	...	...	...	...	قبلة مرهونة
١٢٩	...	...	...	...	...	في ظلمة الليل
١٤٩	...	...	...	...	...	في غفوة الأقدار
١٦٩	...	...	...	...	...	عروس من قطن
١٩١	...	...	...	...	...	هذه الحصاة
٢٠٥	...	...	...	...	...	ورقة النصيب

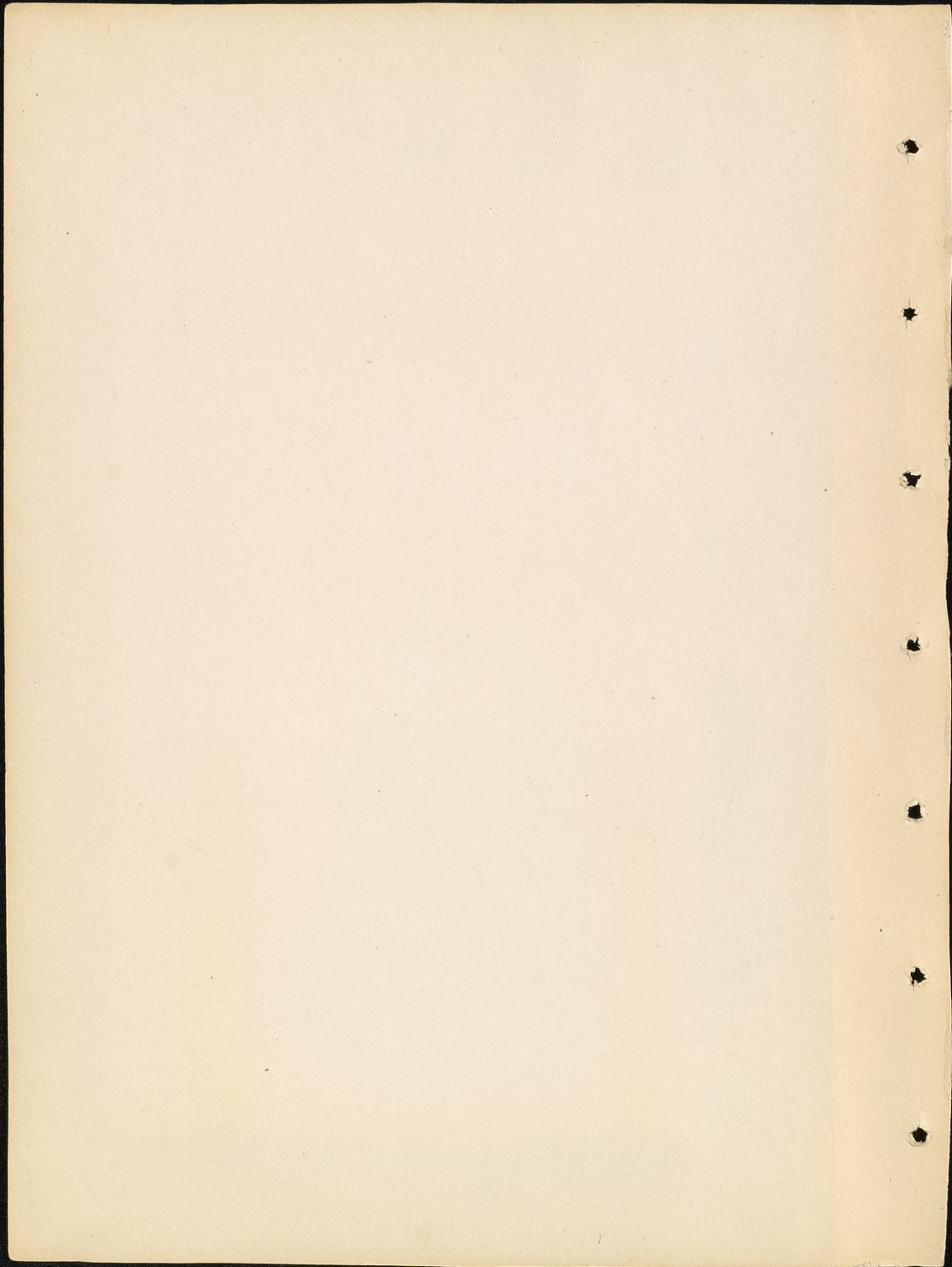
أحدث مؤلفات

محمد نيمور

- | | |
|----------------------------|---------------------|
| ● ملامح وغضون | ● اليوم خمر |
| ● إحسان لله | ● خلف اللثام |
| ● أبو الهول يطير | ● عطر ودخان |
| ● حواء الخالدة | ● سلوى في مهب الريح |
| ● كليوباتره في خان الخليلي | ● شفاه غليظة |
| ● المخبأ رقم ١٣ | ● نداء المجهول |
| ● فن القصص | ● قال الراوي |
| ● قنابل | ● مكتوب على الجبين |
| ● فرعون الصغير | ● سهاد |
| ● عوالى | ● المنقذة |
| ● أبو شوشة | ● كل عام وأنتم بخير |







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

[illegible]

893.79

TL363

893.79

TL363

Taimūr

Kull cām wa-antum bi-khayr wa-
qisas ukhrā.

OCT 12 1951

BINDER
R-106

DEC 10 1951

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58872787

893.79 T1363

Kull am wa-antum bi-